الفصل الخامس

النَّثْرُ وكُتَّابه

١

الرسائل الديوانية

كان طبيعيا أن يعنى عبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية فى الأندلس بديوان الرسائل، كما عُنى به خلفاء أسرته الأمويون فى دمشق، وخاصة جده هشام بن عبد الملك، وقد أسند الكتابة فى ديوانه بقرطبة إلى أمية بن يزيد بن أبى حَوْثرة، وأسندها ابنه الأمير هشام إلى محمد[١] بن أمية المذكور، وتولى مقاليد الحكم بعده ابنه الحكم الربضى، وأسندها إلى حجاج[٢] المغيلى، وفُطَيْس بن سليمان وفى كتاب الحلة السِّيَراء أن راتبه كان خمسمائة[٣] دينار. وخلفه ابنه عبد الرحمن الأوسط مؤسس الحضارة الأندلسية ونُظمها الإدارية التى استقرت منذ عهده، كما ذكرنا فيما أسلفنا، إذ اتخذ مجلس وزراء وقسم شئون الدولة فى القضاء والمال والحرب وغير ذلك إلى خطط، واقتضى ذلك تعدد الكتَّاب مع الوزراء وأصحاب الخطط مما كان له أثره فى نهضة الكتابة الديوانية. ويذكر ابن حيان كتَّابه، ويسميهم أصحاب الكتابة العليا، وهم - على التوالى - عبد[٤] الكريم بن عبد الواحد بن مغيث مع ما كان له من الحجابة، وتوفى سنة ٢٠٩، فخلفه فيها محمد بن[٥] سعيد الزجالى، حتى إذا توفى سنة ٢٢٨ خلفه فيها عبد الله[٦] بن محمد بن أمية، وتوفى عبد الرحمن الأوسط سنة ٢٣٨ فظل يليها - مع مرض كان ينتابه - فى عهد

---

(١) انظر فى محمد بن أمية وأبيه وتوليهما الكتابة المقتبس لابن حيان (تحقيق د. محمود مكى - طبع لبنان) ص ٣١ والمغرب ٧١/١.

(٢) راجع فى تولى المغيلى وفطيس الكتابة للحكم الربضى، المغرب ٤٤/١

(٣) انظر الحلة السيراء لابن الأبار (تحقيق د. مؤنس) ٣٧٣/٢.

(٤) المقتبس ص ٣٢ وانظر الحلة السيراء ١٣٥/١.

(٥) المقتبس ص ٣٢ والمغرب ٣٣٠/١.

(٦) المقتبس ص ٣١ والحلة السيراء ٣٧٣/٢.

محمد بن عبد الرحمن الأوسط حتى وفاته سنة ٢٤٦ وكان يخلفه فى الكتابة أثناء مرضه فومس[١] بن أنتنيان النصرانى وكان بليغا بصيرا بصناعة الكتابة فأسلم وحسن إسلامه، وولاه الأمير محمد الكتابة العليا، وكان قد استنَّ فى أثناء اعتناقه للنصرانية - كما ذكرنا فى غير هذا الموضع - الإجازة يوم الأحد، فتبعه فى ذلك جميع الكتاب فى ديوان الأمير محمد، وأصبحت تلك الإجازة - كما يقول ابن حيان - سنة عامة فى الأندلس. وعجلت المنية بقومس، فتقلد الكتابة العليا بعده حامد[٢] بن محمد بن سعيد الزجالى مع ما تقلد من الوزارة إلى وفاته سنة ٢٦٨. وحين أصبح صولجان الحكم بيد ابنه الأمير عبد الله اتخذ على الكتابة العليا عبيد[٣] الله بن محمد بن أبى عبدة، ومنذ سنة ٢٨٧ يقلدها عبد[٤] الله بن محمد بن عبدالله الزجالى، ويظل يتقلدها سنتين زمن عبد الرحمن الناصر حتى وفاته سنة ٣٠٢ فيعهد بها الناصر إلى عبد[٥] الملك بن جهور فعبد الحميد بن بَسِيل فعبد الرحمن بن بدر فعيسى بن فُطَيس بن أصبغ بن فطيس، ونراه يحبرٌ عن عبد الرحمن الناصر رسالة سنة ٣٢٧ فيخليها من السجع[٦]، مما يدل على تأخر استخدامه فى الكتابة الديوانية بالأندلس، ويؤكد ذلك أننا نرى عبد الرحمن الناصر يعهد بالكتابة العليا بعد ابن فُطَيْس إلى عبد[٧] الرحمن بن عبد الله الزجالى سنة ٣٢٩ حتى إذا كلَّفه فى سنة ٣٤٥ بكتابة منشور[٨] - على نحو ما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع - يُقْرأ فى المساجد الجامعة بقرطبة وغيرها من مدن الأندلس ضد ابن مسرَّة وأتباعه أخلاه من السجع. وظلت الكتابة الديوانية تخلو من السجع فى عهد ابنه الحكم المستنصر، حتى إذا كان عهد هشام ابنه وحاجبه المنصور بن أبى عامر وابنيه الحاجبين بعده المظفر والناصر رأينا السجع يشيع على ألسنة كتابهم، على نحو ما يلقانا عند ابن[٩] بُرْد الأكبر صاحب ديوان الإنشاء لعهد المنصور بن أبى عامر وابنيه وفى زمن الفتنة للمستعين (٤٠٠ - ٤٠٧ هـ) ثم لبنى حمود بعده، وتوفى سنة ٤١٨ وقد نيَّف على الثمانين، وله من

---

(١) المقتبس ص ١٣٨ والقضاة للخشنى ص ١١٠.

(٢) المقتبس ص ٣٢، ٣٧ والمغرب ٣٣١/١.

(٣) راجع فى ابن أبى عبدة الحلة السيراء ١٤٦/١.

(٤) المقتبس ص ٣٢ وإعتاب الكتاب لابن الأبار ص ١٧٢.

(٥) راجع فى ابن جهور وغيره من كتاب عبد الرحمن الناصر فهرس المقتبس الجزء الخامس الخاص بالناصر طبع مدريد.

(٦) المقتبس ٤٣٨/٥.

(٧) المقتبس ٤٧١/٥.

(٨) المقتبس ٢٥/٥.

(٩) انظر فى ابن برد الأكبر الذخيرة ١٠٣/١ والمغرب ٨٦/١ والحميدى ١١١ والصلة لابن بشكوال ص ٤٠.

رسالة[١] ديوانيه عن الحاجب المظفر بن المنصور بن أبى عامر، يبرِّر فيها قتله لصهره ابن القطّاع:

«إنا أخذناه من الحَضِيض الأَوْهَدِ، وانتشلناه من شظف العيش الأنْكد، ورفعنا خَسِيسَتَه، وأتممنا نقيصَته.. فلا أقرَّ لنا بحق، ولا قابل إحساننا بصِدْق، ولا عامل رعيَّتنا برِفْق، ولا تناول خدمتنا بِحذْق، بل أعلن بالمعاصى ونَبذ عهودنا، وخالف سُبلنا، وكدَّر على الناس صَفْونا»

وينتهى عصر الدولة الأموية، وندخل فى عصر أمراء الطوائف: عصر التنافس السياسى الحاد بينهم والتنافس الأدبى الحاد بين الأدباء من كتّاب وشعراء، ويصبح السجع أشبه بقانون عام فى جميع الرسائل الديوانية الصادرة عن هؤلاء الأمراء إذ التمسه جميع كتّابهم فى كل ما يكتبونه عنهم، التمسه أحمد[٢] بن عباس كاتب زهير أمير المريَّة على البحر المتوسط المقتول معه سنة ٤٢٩ والتمسه محمد بن أحمد البِزليانى كاتب حبوس صاحب غرناطة وسنترجم له عما قليل كما التمسه أبو عامر[٣] التاكرنى كاتب أمراء بلنسية: المظفر ومبارك حتى سنة ٤١٧ ثم المنصور بن أبى عامر الأصغر أميرها بعدهما، وكان يعاصره ابن برد الأصغر كاتب مَعْن أمير المرية وسنترجم له بين أصحاب الرسائل الأدبية، وعاصرهما أبو محمد بن عبد البر كاتب مجاهد وابنه على أميرى دانية وسنترجم له بعد قليل. ومن الكتاب النابهين فى هذا العصر أبو المطرف[٤] بن مثنى كاتب المأمون بن ذى النون أمير طليطلة (٤٢٩ - ٤٦٧ هـ) وأبو المطرف عبد الرحمن بن فاخر المعروف بابن الدباغ كاتب المقتدر بن هود أمير سرقسطة (٤٣٨ - ٤٧٥ هـ) وسنترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية، وكان يشاركه فى الكتابة للمقتدر أبو عمر الباجى، ومنهم أيضا ابن المعلم[٥] كاتب المعتضد بن عباد أمير إشبيلية، وأبو عبد الرحمن بن طاهر أمير مرسية وسنترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية ومحمد[٦] ابن أيمن كاتب المتوكل بن الأفطس أمير بَطَلْيوس، وله رسالة عنه إلى يوسف بن تاشفين أمير المرابطين بمراكش

---

(١) الذخيرة ١٢١/١.

(٢) راجع فى أحمد بن عباس الذخيرة ٦٤٣/١ والمغرب ٢٠٥/٢ والإحاطة (طبعة عنان) ٢٦٧/١

(٣) انظر فى التاكرنى الذخيرة ٢٢٦/٣ والمغرب ٣٣٢/١ والحميدى ٥٦ وإعتاب الكتاب ٢٠١.وتاكرنا كانت قصبة رندة.

(٤) راجع فى ابن مثنى الذخيرة ٤٠٩/٣.

(٥) راجع فى ابن المعلم الذخيرة ١١٢/٢، ١١٨.

(٦) انظر فى ابن أيمن الذخيرة ٦٥٢/٢ والمغرب ٣٦٦/١.

يستصرخه لنجدة الأندلس ضد ألفونس ملك قشتالة ونصارى الشمال، وفيها يقول:[١]

«لما كان نورُ الهدى دليلَك، وسبيلُ الخير سبيلَك، ووضحتْ فى الصلاح معالمُك، ووقفتْ على الجهاد عزائمك، وصحَّ العلم بأنك لدعوة الإسلام أعزُّ ناصر، وعلى غزوك الشرك أقدرُ قادر، وجب أن تُستدعَى لما أَعْضَلَ من الداء، وتُستَغاثَ لما أحاط بالجزيرة من البلاء، فقد كانتْ طوائفُ العدو المُطيفةُ بها - أهلكهم الله - عند إفراط تسلُّطها واعتدائها، وشدَّة كَلَبها[٢] واستِشْرائِها، تُلاطَف بالاحتيال، وتُستَنْزَلُ بالأموال.. ولم يزل دَأْبُها التشطُّطَ والعِنادَ، ودأْبُنا الإذعان والانقياد، حتى استُصْفِيَ الطريفُ والتِّلاد، واضطرمت فى كل جهة نارهم، ورَوِيتْ من دماء المسلمين أسنَّتهم وشِفارُهم[٣]، فيالله! ويا للمسلمين! أيسطو هكذا بالحق الإفْكُ، ويغلب التوحيدَ الشِّرْكُ، ويَظْهر على الإيمان الكفرُ، ولا يَكْتنف هذه الملةَ النَّصْرُ، ألا ناصرَ لهذا الدين المهتضم؟! ألا حامىَ لما استُبيح من حِمَى الحَرَمِ؟ وإنا لله على ما لحق عَرْش الدين من ثَلٍّ[٤]، وعِزِّه من ذُلٍّ!»

وتمضى الرسالة بهذا الاستصراخ المتقد حمية للدين الحنيف وأهله. وتوالى على ابن تاشفين مثلها من المعتمد. وأرسل هو والمتوكل له قاضييهما مستغيثين به، كما استغاث به كثير من فقهاء الأندلس، فخفَّ بجنوده وعبر بهم المجاز خِفافا وثِقالا رجالا ورُكبانا، وأنزل بهم وبمن اجتمع له من أهل الأندلس بألفونس السادس ونصارى الشمال موقعة الزلاقة التى سحق فيها أعداء الدين الحنيف سحقا، على نحو ما مرَّ بنا فى الفصل الأول. ويرى ابن تاشفين ببصيرته النافذة أن يرفع عن الأندلس عبء أمراء الطوائف الذين أحالوها مِزَقًا بينهم، فجمَع بلدانها تحت لوائه، وكان قد تعرف على أبى بكر بن القصيرة كاتب المعتمد بن عباد، فاستدعاه إلى مراكش بعد ثلاث سنوات وعهد إليه بديوان الإنشاء، وظل يتولاه فى عهد ابنه على إلى وفاته، وسنترجم له عما قليل. وطالت مدة حكم على بن يوسف (٥٠٠ - ٥٣٧) وممن كتب له أبو القاسم بن الجد وسنترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية، وأبو عبد الله محمد بن أبى الخصال وسنترجم له عما قليل وعبد العزيز بن القبطورنة كاتب المتوكل بن الأفطس مع ابن أبين المار. وكثر ولاة المرابطين فى الأندلس وكان كل منهم يتخذ كاتبا بليغا وممن كتب لتميم بن يوسف بن تاشفين والى غرناطة أبو الحسن

---

(١) الذخيرة ٢/٦٥٣.

(٢) الكلب: شدة الحرص والمعاناة، والاستشراء: تفاقم الاعتداء.

(٣) الشفار. جمع شفرة: حد السيف.

(٤) ثل: هدم.

على[١] بن الإمام تلميذ ابن باجة الفيلسوف، وكتب لسير بن أبى بكر والى إشبيلية عبد المجيد بن عبدون، وهو من كتاب المتوكل بن الأفطس ومرت ترجمته مع مرثيته المشهورة لدولة بنى الأفطس، وقد كتب بعدهم للمرابطين، أولا لسير بن أبى بكر -كما ذكرنا- ثم لعلى بن يوسف بن تاشفين إلى وفاته على نحو م مرَّ فى ترجمته.

وتخلف دولةُ الموحدين فى الأندلس دولة المرابطين، ويذكر صاحب المعجب كتَّاب حكامها ويبدأ بكتَّاب مؤسسها عبد المؤمن، وهم أبو جعفر أحمد[٢] بن عطية وهو مراكشى وأبو القاسم القالمى من بجاية وعياش بن عبد الملك بن عياش القرطبى، وفى مجموع رسائل موحدية المطبوع بالرباط غير رسالة ديوانية للأولين، وهما جميعا مغربيان. وكتب ليوسف بن عبد المؤمن عياش[٣] والقالمى إلى أن توفى فخلفه ابن محشرة وهو من بجاية مثله. وكتب ليعقوب بن يوسف ابن محشرة كاتب أبيه وأبو عبد[٤] الله محمد بن عبد العزيز بن عياش التجيبى المرىى المولود سنة ٥٥٠ استكتبه يعقوب سنة ٥٨٦ فنال دنيا عريضة، وظل يلى ديوان الإنشاء لابنه الناصر ثم لابن ابنه المستنصر حتى وفاته سنة ٦١٨ وفى مجموع رسائل موحدية ثلاث رسائل، له اثنتان منها عن الناصر والثالثة عن يعقوب، وهى فى وصف غزوته الثانية للنصارى سنة ٥٩٢ بعد سحقهم فى موقعة الأرك سنة ٥٩١، وكانت وجهته طليطلة، فاستولى على كثير من الحصون حولها، وفيها يقول[٥]:

«فلما صارت البلاد كأن لم تَغْنَ، والمعاقلُ كأن لم تُبْنَ، وعُلم أن من حِيل بينهم وبين المواطن والأموال والأقوات أحياءٌ ولكن فى عِداد الأموات، صوَّبْنا على طُلَيْطلة قاعدةِ الصُّفْر، وأم بلاد الكفر.. وأخذهم العذَابُ من حيث لا يشعرون. وعرفوا التخاذل من حيث كانوا يُبْصرون، واستقبلتهم العِبَرُ أَفْوَاجًا أفواجا، وجاءتهم النذر تأويبًا وإدلاجا».

وكان أبو عبد الله محمد[٦] بن يَخْلُفْتن الفازازى القرطبى يعمل فى ديوان قرطبة وعُيِّن

---

(١) المطرب ٨٩ والمغرب ١١٦/٢

(٢) المعجب ص ٢٦٧.

(٣) لعله أبو الحسن بن عياش المذكور فى مجموع رسائل موحدية وله فيه عن يوسف رسالتان.

(٤) انظر فى كتَّاب يعقوب المعجب ص ٣٣٨ وراجع فى أبى عبدالله بن عياش التكملة رقم ٩٥٢ وزاد المسافر ٩٤ والمعجب ص ٣٩١، ٤٠٥.

(٥) مجموع رسائل موحدية (طبع الرباط) ص ٢٢٨ وما بعدها.

(٦) راجع فى محمد بن يخلفتن المعجب ص٣٩١، ٤٠٦ والتكملة رقم٢١٣٥.

قاضيا فى مدينة مرسية، واستُدْعى للنهوض بالكتابة فى ديوان المستنصر حين توفى ابن عياش، وظل قائما عليه فى عهد العادل (٦٢١ - ٦٢٤) وتوفيا معا فى سنة واحدة. وخلف العادل إدريس بن يعقوب وتلقب بالمأمون (٦٢٤ - ٦٢٩ هـ) وكان يحكم إشبيلية قبل ذلك وثار عليه البياسى بجيّان وقضى على ثورته وكان يكتب له حينذاك أبو زيد[١] عبد الرحمن بن يَخْلُفْتن المترجم له فى الفصل الماضى أخو محمد المذكور آنفا، وقد استقدمه إلى مراكش ولم يكد يمضى بها عدة أشهر - كما مرَّ بنا فى ترجمته - حتى توفى سنة ٦٢٧.

وكان يكتب لولاة الموحدين فى الأندلس كتاب بارعون ويكفى أن نذكر أنه كتب لعثمان بن عبد المؤمن والى غرناطة عبد[١] الرحمن بن مسعدة وأخوه يحيى وابن جبير الرحالة المشهور وابن هَرَوْدس الوشاح المبدع على نحو ما ذكرنا فى حديثنا عن الموشحات. وأخذت الأندلس جميعها تثور على المأمون والموحدين لضعفهم فى مقاومة الأرجونيين فى الشرق والقشتاليين فى الشمال والبرتغاليين فى الغرب. وكان أهل شرق الأندلس أول من ثاروا على الموحدين بزعامة أبى عبد الله محمد بن هود سنة ٦٢٥ تحت شعار الخلافة العباسية إرضاء للعامة، واتخذ مرسية قاعدة له ومدَّ سلطانه على مالقة والمرية وقرطبة وإشبيلية وغرناطة، وثار عليه بإشبيلية الباجى وابن صاحب الرد وابن الجد وتوفى ابن هود سنة ٦٣٥ وثار بمرسية عزيز بن خطاب سنة ٦٣٦ وقتل بعد تسعة أشهر. ومن أكبر الثوار حينئذ ابن الأحمر محمد بن يوسف، وقد واقع ابن هود وانتصر عليه مرارا واستخلص منه غرناطة وأسس فيها دولتهم التى ظلت أكثر من قرنين ونصف. ومن كبار هؤلاء الثوار أبو جميل زيان بن مردنيش الثائر ببلنسية سنة ٦٢٦ وقد حكم أولا تحت شعار العباسيين مثل ابن هود، ثم حول الدعوة منهم إلى الحفصيين فى تونس رجاء أن يمدوا له يد العون ضد ملك أرجون. وقد أخذت تسقط جواهر الأندلس ومدنها الكبرى فى حجور الأرجونيين والقشتاليين والبرتغاليين، وإنما ذكرنا ذلك لأن كل ثائر ممن سميناهم اتخذ كاتبا بليغا، فالبياسى كتب له أبو يحيى[٢] بن هشام القرطبى وأحبطت ثورته سريعا، واعتنق النصرانية مذموما مدحورًا، وكتب لابن هود أبو جعفر[٣] أحمد بن

---

(١) راجع فى عبد الرحمن وأخيه يحيى المغرب ١١٢/٢ - ١١٣.

(٢) انظر فى أبى يحيى بن هشام المغرب ٧٤/١ واختصار القدح المعلى ص ٨٩ وصبح الأعشى ٣١/٧ حيث احتفظ برسالة مهمة له عن ابن هود.

(٣) راجع فى أبى جعفر المغرب ١٦٤/٢ والقدح ١١٤.

طلحة وابن الجنان[١] وأبو المطرف بن عميرة، وسنترجم له، وكتب عن الباجى ابن[٢] البناء الإشبيلى، وكتب لابن الأحمر ابن خطاب[٣] الجيانى وأبو عبد الله[٤] ابن الخيال، وكتب لزيان أبو المطرف بن عميرة، وابن الأبار الذى ترجمنا له فى الفصل الماضى.

ومن الكتاب فى دواوين بنى الأحمر ابن الحكيم[٥] كاتب الحاكم الثانى فى الأسرة محمد بن محمد بن نصر المعروف بالفقيه (٦٧١ - ٧٠١ هـ) وكتب ابن الحكيم أيضا لابنه محمد (٧٠١ - ٧٠٨ هـ.) ومن كتاب بنى الأحمر النابهين فى القرن الثامن الهجرى ابن الجيَّاب[٦] ولسان الدين بن الخطيب الكاتب المشهور وسنترجم له، وخلفه على ديوان الإنشاء ابن زَمْرَك، ومرَّت ترجمته بين شعراء المديح، وربما كان أنبه كتابهم فى القرن التاسع الهجرى أبو عبد الله[٧] الشِّرَّان محمد بن إبراهيم. وحرى بنا أن نتوقف قليلا لنتحدث بكلمات مجملة عن ستة من كتاب الرسائل الديوانية النابهين هم: البِزِلْيانى وأبو محمد بن عبد البر وابن القصيرة وابن أبى الخصال وابن عَميرة ولسان الدين بن الخطيب.

البِزِلْيانى[٨]

هو أبو عبد الله محمد بن عامر البزليانى المالقى، وبزليانة من قرى مالقة، وكانت مالقة تتبع غرناطة وكانت إمارة الإقليم فى عصر أمراء الطوائف لبنى زيرى المغاربة، وأول من تولاها منهم زاوى حتى سنة ٤١٠ وتولاها بعده ابن أخيه حَبُّوس بن ماكسن بن زيرى، وطمحت نفس البزليانى للعمل فى الدواوين بغرناطة وسبقت شهرته بإحسان الكتابة إليها فاستكتبه أميرها حبوس وأصبح رئيسا لديوانه وكتابه. وعمل بعده مع ابنه باديس (٤٢٩ - ٤٦٥ هـ) وكانت فيه قسوة وجفوة، فرأى التحول عنه وعن دواوينه، ويقول صاحب الذخيرة إنه «ممن أدار الملوك ودبرها، وطوى الممالك ونشرها» وإنه تقلب فى البلاد، وانتهى به المطاف إلى المعتضد بن عباد سنة ٤٤٣ فألحقه بدواوينه، ووصله بابنه

---

(١) راجع فى ابن الجنان ورسالة له عن ابن هود صبح الأعشى ٣٤/٧.
(٢) انظر فى ابن البناء القدح ص ١١٨.
(٣) راجع فى ابن خطاب الجيانى القدح ص ٢٢.
(٤) انظر فى أبى عبد الله بن الخيال القدح ص ٦٦.
(٥) أزهار الرياض ٢٤٠/٢ والإحاطة ٤٤٤/٢.
(٦) الكتيبة الكامنة ص ١٨٣.
(٧) انظر فى الشران أزهار الرياض ١٣٣/١.
(٨) راجع فى ترجمة البزليانى ورسائله الذخيرة ٦٢٤/١ والمغرب ٤٤١/١.

إسماعيل، وما تدخل سنة ٤٤٥ حتى يأمر المعتضد ابنه إسماعيل بغزو قرطبة، ولم يكن البزلياني – كما سنرى – يرتضي سياسة المعتضد فى غزو جيرانه، بينما يرضخ خاضعا لنصارى الشمال، وأغوى إسماعيل بمخالفة رأى أبيه، وخوَّفه من إسراع باديس أمير غرناطة بنجدة بنى جهور فى قرطبة، فيقع بين فَكَّىْ أسدين يمضغانه. وكان المعتضد أبوه يعامله بقسوة وفظاظة فرأى أن ينصرف من طريقه بجيشه إذ تعاظمه الهجوم على قرطبة مع قرب حلي أمرائها باديس أمير غرناطة منهم كما ذكرنا. ويقال إن البزلياني مضى فى استغوائه له وإنه أشار عليه بهربه من أبيه ودبَّره، وتطورت الظروف، فقتل المعتضد البزلياني لما وقَر فى نفسه من أنه هو الذى أغواه، وقتل بعده ابنه. هكذا يقول الرواة ونظن ظنا أن المعتضد استدرج البزلياني للعمل فى دواوينه، وهو يبيِّت له هذا المصير المحتوم، لما عرف عنه من إنحائه على أمراء الطوائف باللوم–فى رسائله–منذ كان عند حبوس – على سياستهم وحربهم بعضهم لبعض واستعانتهم فى ذلك بنصارى الشمال، ليغرسوا حِرابهم فى صدور إخوانهم المسلمين. وليس ذلك غريبا على المعتضد فقد كتب إليه أصدق أصدقائه أبو حفص عمر الهوزنى يحضه على جهاد النصارى فاستدرجه، ووضعه بأعلى محل، وعوَّل عليه فى العقد والحل، حتى إذا مضى عليه عامان باشر قتله بيده[1]، فكان طبيعيا أن يفتك بالبِزِلْيانى، حتى لو لم يتصل بابنه إسماعيل، لحملته العنيفة على سياسته وسياسة أنداده من أمراء الطوائف، على نحو ما يتضح من رسالة أرسل بها – كما يقول ابن بسام – عن حبوس إلى يحيى بن منذر التجيبى أمير سرقسطة: وفيها يقول:

«اتصل بى ما وقع بينك وبين المؤتمن (المنصور[2] الأصغر عبد العزيز) أمير بلنسية (٤١٧ – ٤٢٥ هـ.) والموفق مجاهد (أمير دانية) (٤١٣ – ٤٣٦ هـ.) وعضد الدولة (أمير إشبيلية)، وأنكم اضْطُرِرْتم إلى إخراج كل فريق منكم النصارى إلى بلاد المسلمين، فعظم قَلَقى، وكثُر على المسلمين شَفَقى، فى أن يطأ أعداؤهم بلادَهم، ويُوتِموُا أولادهم.. ولو لم تكن الفتنة – يا سيدى – إلا بين المسلمين والتشاجر إلا بين المؤمنين لكانت القارعة العظمى، والداهية الكبرى، فإذا تأيَّدنا بالمشركين، واعتضدنا بالكافرين، وأبحناهم حُرْمتنا، ومنحناهم قوتنا، وقتلنا أنفسَنا بأيدينا، وأدَّتْنا إلى النَّدم مساعينا، كانت الدائرة

---

(١) المغرب ٢٣٩/١ وما بعدها. الذخيرة ١٩٣/١، ٢٠٣، ٢٠٥.

(٢) انظر فى تلقيب المنصور الأصغر بهذا اللقب

أمضَّ[١]، والحيرة أَرْمَضَ[٢]، والفتنة أَشَدَّ، والمحنةُ أهدَّ، والأعمال أَحْبَطَ، والأحوال أَسْقَطَ، والأوزار أَثْقَلَ، والمضارّ أَشْمَلَ، والله يُعيذنا من البَوائِق[٣]، ويَسْلُك بنا أجملَ الطرائق.. وأنت يا سيدى للمسلمين الحِصْنُ الحَصِين، والسَّبَبُ المتين، والنصَّيح المأمون، فاجْرِ فى جَمْعِ كلمتهم والمراماة دون حَوْزتهم[٤]».

والبزليانى يصرخ فى يحيى بن المنذر التجيبى أمير سرقسطة فى أقصى الشمال، فإن أمراء الطوائف من أمثال أمير بلنسية وأمير دانية وأمير إشبيلية يوطئون النصارى بلادهم مستعينين بهم فى حرب أهل دينهم وقتل الآباء وتيتيم الأطفال والأبرياء. ويقول لو كانت المحنة محاربة المسلمين بعضهم بعضا فحسب لكانت تلك قارعة عظمى وداهية كبرى، ولكن المحنة أدهى وأمر فإننا نستعين بالنصارى ونبيحهم ديارنا فيا لله ويا للمسلمين. ويستغيث بيحيى بن المنذر أن يجمع كلمة هؤلاء الأمراء، حتى يدافعوا عن حَوْزتهم وحدود أرضهم ويرموا العدو يدا واحدة حتى لا تقوم له قائمة. ومن غريب أن هذه الصرخة دوَّت فى العشرينيات من القرن الخامس، وكأنها صرخة فى فلاة ولا حياة لمن تنادى. ويصرخ البزليانى فى رسالة ثانية وجَّه بها إلى (المنصور الأصغر أمير بلنسية الذى ذكره فى الرسالة السابقة)، وله يقول - فيما أظن - على لسان باديس:

«اتصل بى ما جزعتُ له من لزومك مع الموفق مجاهد ومَنْ تبعكما من مُعاقديكما لمقاتلة المظفر أبى بكر محمد أمير بطليوس (٤٣٠ - ٤٦٠ هـ) ومنازلته ومقارعته واستجاشة[٥] كل حزب منكم النصارى وطمعكم أن تمنعوا بهم ذِمارَا، وتَقضوا بإخراجهم (معكم) أَوْطارا[٦]، وتُدْركوا بأيديهم أوْتارا.[٧] ولم يَخْفَ عليك ما يتسبَّب بالفتن، من البلوى والمِحَن.. باختزام[٨] الرِّجال، وإيتام الأطْفال، وإرْمال[٩] النساء، وإحْلال الدماء، وانتهاب الأموال، واعْتِساف[١٠] الأهوال، وإخْلاء الأوطان، وإجْلاء السكان. هذا إذا كانت الدعوة واحدة، والشرعة معاضدة، فأما إذا انساق العدوّ إلينا، وتطرَّق علينا،

---

(١) أمض: أكثر ألما.
(٢) أرمض: أوجع.
(٣) بوائق: جمع بائقة: الداهية.
(٤) الحوزة: الحمى.
(٥) استجاشة هنا: استعانة.
(٦) أوطارا جمع وطر: مأرب.
(٧) أوتار جمع وتر: ثأر.
(٨) اختزام هنا: قتل أو موت.
(٩) أرملت المرأة: مات زوجها.
(١٠) اعتساف: ركوب.

وضَرِىَ[١] على أموال المسلمين ودمائهم، وجَرُؤ على قَتْل رجالهم وسَبْى نسائهم، وبانتْ له العَوْرات، وتحققت عندهم الاختلافات، أحدُّوا رَحَاهم[٢]، واستمدُّوا مَنْ وراهم، ولم يكن للمسلمين بهم بعد يد[٣]، ولا عن إخلاء هذه الجزيرة بُدّ، والله يحميها من الغِيَر[٤]، ويكفيها سوءُ القَدر»

ولا تقل هذه الصرخة عن سابقتها قوة، والبزليانى يهيب فيها بالمنصور الأصغر أن لا يمضى مع مجاهد فى حشد الجيوش ضد أخيهما المظفر بن الأفطس أمير بطليوس مستعينين فى قتال أهلهما المسلمين بالنصارى طامعين أن يحموا لهما حماهما وأن يحققوا لهما آمالهما ويدركوا لهما أثآرهما غير مراعين فى أهل دينهما حقا، إذ تُقْتَلُ الرجال وتيتّم الأطفال وترمَّل النساء وتنهَب الأموال وتخلو الأوطان ويجلو السكان. والطامة الكبرى أن العدو إذا جاس خلال ديارنا وتجرَّأ على نهب أموال المسلمين وعلى سفك دمائهم وقتل رجالهم وسبى نسائهم وانكشفت له فى البلاد العورات، وتحقق مما بين أمراء المسلمين من الاختلافات والمنازعات شحذ أسلحته وأدار رحى حرب طاحنة مستمدا فيها النصارى من ورائه فى أوربا، فجاءوه من كل فج، وأصبح المسلمون ولا طاقة لهم فى نزالهم ولا قدرة، واضطروا اضطرارا إلى مبارحة الجزيرة لا يلوون. وذهبت الصرختان جميعا هباء، وبدلا من أن يعيها هؤلاء الأمراء الذين عاشوا للترف وأعدوا لضياع البلاد جازاه المعتضد الباغى منهم شر الجزاء، فسفك دمه.

أبو محمد[٥] بن عبد البر

هو أبو محمد عبد الله ابن الفقيه المشهور أبى عمر بن عبد البر النمرى القرطبى، وقد عُنى به أبوه، فخرجه على يده فى أجمل صورة علمية للشاب الأندلسى فى عصره، وتفتحت فيه مبكرا نزعة أدبية جعلته يؤثر على حلقات العلم والدراسة دواوين أمراء الطوائف، ويقول ابن بسام إنه «حلّ من كتاب الإقليم محل القمر من النجوم.. وتهادته الآفاق، وامتدت إليه الأعناق.. ففاز به المعتضد (أمير إشبيلية) بعد طول خصام، والتفاف

---

(١) ضرى: اجترأ.

(٢) الرحى هنا: رحى الحرب.

(٣) يد هنا: طاقة، قوة.

(٤) غير الدهر: أحداثه وتقلباته.

(٥) انظر فى ترجمة أبى محمد ورسائله الذخيرة ١٢٥/٣ وما بعدها والمغرب ٤٠٢/٢ والقلائد ١٨١ والصلة رقم ٦٠٦ وبغية الملتمس رقم ٩٦٥ وإعتاب الكتاب ٢٢٠ والخريدة ١٦٦/٢، ٤٥٩/٣.

زحام، فأصاخ أبو محمد لمقاله، وتورط بين حبائله وحباله» وأصبح من كتَّاب ديوانه، ولا نعرف الأسباب التى جعلت ابن زيدون يَغَصّ - كما يقول ابن بسام - بمقامه معه فى حضرة المعتضد، إذ أخذ يوغر صدره عليه، ومضت الأيام. وشعر أبو محمد بتغير المعتضد عليه، وكان سفاكا للدماء، فأخذ فى اقتناء الضياع والديار حتى يوهمه بأنه لن يفارق عمله عنده، ويبدو أنه أرسل إلى أبيه يطلعه على موقف ابن زيدون وزير المعتضد - وموقف المعتضد نفسه منه - وأنه يخشى مغبة مكثه عنده، فربما فتك به كما فتك بكثيرين. وكان أبوه قد استوطن دانية وطاب له المقام عند أميرها مجاهد، فخفَّ إلى المعتضد، وخلصه من يديه، وانصرف به محفوفا بالتجلة والإكرام، يقول ابن بسام: «وجعل أبو محمد بن عبد البر بعد نجاته من المعتضد يتنقل فى الدول كالبدر يترك منزلا إلى منزل.. وكتب عندنا عن أكثر ملوك الطوائف» وأكبر الظن أن ابن بسام بالغ فى قوله إنه تنقل بين ملوك الطوائف وكتب عند أكثرهم، فإنه هو نفسه لم يَرْوِ له رسائل ديوانيه إلا عن المعتضد وعلى بن مجاهد أمير دانية بعد أبيه مجاهد (٤٣٦ - ٤٦٧ هـ) وكأنه صَحب أباه إلى دانية، فوظفه على بن مجاهد رئيسا لديوانه وكتَّابه، وظل يعمل فيه، حتى توفى سنة ٤٥٨ وحزن أبوه لفقده، ولعل ذلك ما جعله يتحول عن دانية إلى شاطبة، شرقيها، وبها توفى.وقد أورد ابن بسام لأبى محمد رسائل ديوانية كثيرة عن المعتضد وعلى بن مجاهد، ومن أطرفها رسالة عن ابن مجاهد وقد زفَّ ابنته إلى المعتصم بن صمادح أمير المرية، وفيها يقول:

«أُنْفِذت الهديَّة (العروس).. وأنا أسأل الله فى متوجَّهها ومُنْقَلبها الرعاية الموصولة بك، والكفايةَ المعهودةَ منك، حتى يَفِيءَ[1] عليها ظِلُّك، ويبوِّئَها[2] مَثْوَى الحفاوة محلُّك، ويحميها حَوْزُك ومكانك، ويُؤْويها عِزُّك وسُلْطانك، ثم حَسْبى عليها كرمك وكَنَفُك[3]، وخليفتى عليها بِرُّك ولُطْفُك.. وإنك - واللّهُ يُبْقيك ويُعْليك، ويشدُّ[4] قَبْضتك على رقاب أمانيك وأراجيك - ذُخْرُ الأَبَد، وعَتادُ الأهل والإخوان والولد، وعندك ثمرة النفس وفَلْذَةُ الكَبِد، فارقتُها عن شدة ضَنانة، وأسلمتها بعد طول صِيانة، ومازُفَّتْ إلا إلى كريم يحملها محملَ الأمانة، ويقضى فيها حقَّ الديانة، ويَرْعَى لها انقطاعها عن أهلها، واغترابَها عن مَلَئِها ومَنْشَئِها، وهو حُكْمُ الله الواجب، وقَدَرُه الغالب، وسُنَّتُه المشروعة، ومَشِيئته المتبوعة»

---

(١) يفىء: ينبسط.
(٢) يبوئها: ينزلها.
(٣) الكنف: الحفظ والجناح.
(٤) يشد: يقوِّى ويحكم.

وحدثت فى سنة ٤٥٦ نكبة عظمى، فإن النورمانديين فى الشمال الغربى لفرنسا تجمعوا وتجمعت معهم شراذم من فرنسا وأوربا لحرب المسلمين فى الأندلس، مكوِّنين حملة صليبية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة إذ باركها البابا إسكندر الثانى، واخترقت الحملة جبال البرينيه الفاصلة بين فرنسا وإسبانيا وحاصرت مدينة وَشْقة فى أقصى الشمال الشرقى لإسبانيا، ولم تستطع اقتحامها، فاتجهت إلى مدينة بَرْبَشْتر إلى الشمال الشرقى من سرقسطة، وحاصروها أربعين يوما، واضطر أهلها إلى التسليم لنقص القوت والمئونة، ففتكوا بهم فتكا ذريعا وانتهكوا نساءهم وسبوا عشرات الألوف من غلمانهم وفتياتهم، وحملوا من الكسوة والفرش والأمتعة خمسمائة حمل، كل ذلك والمقتدر أمير سرقسطة قد وكلهم إلى أنفسهم وقعد عن النفير لهم. وِزْر لا يماثله وزر، وقد شركه فيه أمراء الطوائف جميعا، إذ لم ينهض أحد منهم للدفاع عن بَرْبشتر. ويعلل ابن حيان تلك الكارثة بعلتين: علة صمت الفقهاء لأكلهم على موائد هؤلاء الأمراء وتقيةً وخوفا منهم، والعلة الثانية، وهى الأفدح، أن الأمراء استناموا إلى التنابذ والتنافر، ويسميهم «أمراء الفرقة الهمل» ويعجب أن لا تنبِّههم هذه اللطمة الضخمة إلى جمع الكلمة ووقوفهم صفا واحدا ضد العدو الكاشر عن أنيابه، وأن يكون كل ما دفعتهم إليه حَفْر الخنادق حول مدنهم وتعلية الأسوار وتوثيق البنيان. وأطارت النكبة أفئدة المسلمين فى الأندلس وتزلزلت بهم الأرض، وتجمعوا فى السنة التالية بقيادة المقتدر بن هود أمير سرقسطة وكأنما أراد أن يغسل عنه عار نكوله عن إغاثة أهل بربشتر، وسرعان ما أُجيل السيف فى النصارى المعتدين واستؤصلوا أجمعين وُردَّتْ بربشتر إلى المسلمين فغسلوها من رِجْس الشرك - كما يقول ابن حيان - وجلوها من صدأ الإفك[1]. وإنما قدمنا كل ذلك لتتضح لنا صرخة ضخمة وجّهها أبو محمد بن عبد البر فى شكل منشور وُزِّع فى كل مدن الأندلس، مما دفع أهل الجهاد فى كل مكان منها إلى حمل سلاحهم واستردادها سريعا هذا الاسترداد المشرف، وقد جعل المنشور على لسان أهل بربشتر وعنوانه - كما يقول ابن بسام -:

«من الثُّغور القاصية، والأطراف النائية، المعتقدين للتوحيد، المعترفين بالوعد والوعيد، المستمسكين بعُرْوَة الدين، المستهلَكين فى حماية المسلمين، المعتصمين بعصمة الإسلام، المتآلفين على الصلاة والصيام، المؤمنين بالتنزيل، المقيمين على سُنَّة

(١) انظر فى تصوير ابن حيان لموقعة بربشتر الذخيرة ٣/١٧٩.

الرسول، محمد نبيّ الرحمة، وشفيع الأمة، إلى مَنْ بالأمصار الجامعة، والأقطار الشاسِعة، بجزيرة الأندلس من وُلاة المؤمنين، وحُماة المسلمين، ورُعاة الدين، من الرؤساء والمرءوسين»

والمنشور كان طويلا مما جعل ابن بسام يقتطف منه فصولا، وقد مضى أبو محمد يصور ما نزل بأهل بربشتر من الأهوال التى تقشعر لها الأبدان وتشيب لها الولدان، ومن قوله فى بعض فصوله مستثيرا مستنفرا بما يوجع القلوبَ سماعُه من انتهاك النساء والدين:

«إنا لله وإنا إليه راجعون - على ما رأت منا العُيون - من انتهاك النِّعم المدَّخرات، وهَتْك سِتْر الحُرَمِ المحجَّبات، والبنات المخدَّرات، ولو رأيتم - معشر المسلمين - إخوانَكم فى الدين، وقد غُلبوا على الأموال والأهلين، واستحكمتْ فيهم السيوف، واستولت عليهم الحتوف، وأثخنتهم الجراح، وعبثت بهم زُرْقُ الرِّماح، وقد كثر الضَّجيج والعَويل والنَّواح... ومصاحف تمزَّق، ومساجد تحرَّق، ولا الأخ يلبِّى أخاه، ولا الابنُ يدعو أباه، ولا الأب يدنى بنيه، (لكل امرئ منهم يومئذ شأنٌ يُغْنيه) ولا المرضعة تَلْوِى (تعطف) على رضيعها، ولا الضجيعةُ ترثى لضجيعها.. وقد سِيقت النساءُ والوِلدان، ما بين عاريةٍ وعُرْيان، ومشيخةُ الرجال مُقَرَّنين فى الحِبال، مصفَّدين فى السلاسل والأغلال.. والجوامع، والصَّوامع، بعد تلاوة القرآن، وحلاوة الأذان، مُطْبَقةً[1] بالشرك والبهتان، مشحونة بالنواقيس والصلبان، عوضا من شِيعَةِ الرحمن، والكفر يضحك ويُنْكِى[2]، والدين ينوح ويُبْكى، فيا ويلاه! ويادُلَّاه! وياكَرْباه! ويا قُرْآناه! ويا محمداه! ولو شهدتم - معشر المسلمين - ذلك لطارت أكبادكم جَزَعا، وتقطَّعت قلوبكم قِطَعا، واستعذبتم طَعْمَ المنايا، لموضع تلك الرَّزايا، ولهجرتْ أسيافكم أَغْمادَها، وجَفَتْ أجفانكم رُقادَها، امتعاضًا لعبَدة الرحمن، وحَفظة القرآن، وضَعَفة النساء والوِلْدان، وانتقامًا من عَبَدة الطُّغْيان، وحَمَلة الصُّلْبان»

والرسالة - بهذا النمط - تشعل الحماسة فى النفوس الخامدة حميةً للدين الحنيف وما حُرِّق من مساجده وصوامعه وما مُزِّق من قرآنه ومصاحفه، ولنساء المسلمين وما انتهك من حرماتهم وما ساموهم به من أسر وسباء، بل من عُرْىٍ وعذاب أليم، ومن بقى من الرجال أُوثِقوا فى السلاسل والأغلال. ويقول أبو محمد: إن

---

(١) مطبقة: مغطاة.

(٢) ينكى: يقهر.

مادَهى بربشتر إنما هو رمز لما أصاب الأندلسيين فى عهد أمراء الطوائف من تقاطع وتنابذ ويدعو إلى التواصل والألفة، حتى يتدارك الأندلسيون ما يوشك أن يصيبهم من هلاك مدمر، يقول متحسرا:

«ولو كان شملنا منتظمًا، وشعبنا ملتئما، وكنا كالجوارح فى الجسَدِ اشتباكا، وكالأنامل فى اليد اشتراكا، لما طاش لنا سَهْم، ولا سَقط لنا نَجْم[1]، ولا ذلَّ لنا حِزْب، ولا فُلَّ لنا غَرْب، ولا رُوِّع لنا سِرْب، ولا كُدِّر لنا شِرْب[2]، ولكُنَّا عليهم ظاهرين، إلى يوم الدين، فالحذرَ الحذرَ! فإنه رأس النظَر، من بركانٍ تطاير منه شَرَرٌ مُلْتهب، وطوفانٍ تساقط منه قَطْرٌ مُرْهب، قلما يُؤْمَنُ من هذا إحراق، ومن ذلك إغراق، فتنبَّهوا قبل أن تُنبَّهوا، وقاتلوهم فى أطرافهم قبل أن يقاتلوكم فى أكْنافكم، وجاهدوهم فى ثغورهم قبل أن يجاهدوكم فى دوركم»

ولم تذهب صرخة أبى محمد أدراج الرياح، فسرعان ما حمل الأندلسيون أسلحتهم كما ذكرنا، وهاجموا العدو فى بربشتر وردوا كيده فى نحره مستأصلين له إلا ما باعوه بيع الرقيق من الأبناء والعيال. وكان حريًّا بأمراء الطوائف بعد تلك الكارثة المروعة أن يأتلفوا ويتحدوا ضد نصارى الشمال، ولكنهم عادوا إلى فرقتهم كما عادوا إلى استخذائهم من دفع الإتاوات السنوية لأولئك النصارى مع تسديدهم الرماح والسيوف إلى صدور إخوانهم من المسلمين إلى أن ضاعت طليطلة، ولولا أن تدارك يوسف بن تاشفين الأندلس لسقطت مدنها فى حجور النصارى واحدة إثر أخرى.

أبو بكر[3] بن القصيرة

هو أبو بكر محمد بن سليمان الكُلاعى الوَلْبى الإشبيلى المعروف بابن القصيرة، نشأ فى إشبيلية، وتفتحت موهبته الأدبية فى عهد المعتضد أمير إشبيلية، وفطن له - كما يقول ابن بسام - ابن زيدون وزيره، فنبه عليه المعتضد آخر دولته، فألحقه بديوانه، وتعرَّف

---

(١) يقال لم يسقط لهم نجم كناية عن غلبتهم وظفرهم الدائم.

(٢) الشرب: مورد الماء.

(٣) انظر فى ترجمة ابن القصيرة ورسائله الذخيرة ٢٣٩/٢ والمغرب ٣٥٠/١ والقلائد ١٠٤ والصلة رقم ١١٣٧ والمطرب ٨١ والمعجب ٢٢٧ والإحاطة ٥١٦/٢ وإعتاب الكتاب ٢٢٢ والوافى ١٢٨/٣ والخريدة ٣٨٣/٣ والذيل والتكملة ٢٢٧/٦ ووثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين فى المجلد السابع من صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد وما بها من رسائل ابن القصيرة مع تحليل د. محمود مكى لها.

حينئذ بالمعتمد وأعجب كل منهما بصاحبه، حتى إذا استولى على صولجان إشبيلية بعد أبيه رفعه إلى مرتبة الوزارة، مع إسناد الكتابة إليه، وله عنه فى الذخيرة غير رسالة، وعهد إليه غير مرة بالسفارة بينه وبين جيرانه من أمراء الطوائف، حتى إذا استولى ألفونس ملك القشتاليين على طليطلة، وشدَّد عليه فيما كان يأخذ من المعتمد من إتاوات سنوية استصرخ - وبالمثل المتوكل أمير بطليوس - يوسف بن تاشفين أمير المرابطين لكى يقدم بجيشه إلى الأندلس نجدة لها ضد ألفونس ومطامعه، وكان أبو بكر بن القصيرة هو الرسول أو السفير الذى حمل رسالته إلى يوسف واستغاثته. ولبَّاه ولبَّى المتوكل وفقهاء الأندلس، فعبر بجنوده المجاز، وأنزل - يعاونه الأندلسيون وأمراؤهم : المعتمد وغيره - بألفونس وقعة الزلاقة المشهورة فى رجب سنة ٤٧٩ وفيها سحق جيش ألفونس سحقا كاد لا يبقى منه ولا يذر. وتطورت الظروف فاستولى ابن تاشفين - نزولا على إرادة الأندلسيين وفقهائهم - على إمارات الطوائف جميعا ماعدا سرقسطة فى الشمال إذ تركها لبنى هود، لما رأى من إحسانهم لحمايتها ودفاعهم عنها ضد النصارى، وأخذ المعتمد معه أسيرا إلى أغمات كما مر بنا فى غير هذا الموضع. وطبيعى أن يبتعد أبو بكر بن القصيرة عن حكام إشبيلية الجدد من المرابطين، ويظل على ذلك نحو ثلاث سنوات، ويفاجأ فى سنة ٤٨٧ باستدعاء يوسف له كى يتولى ديوان الإنشاء عنده بمراكش وكان كاتبه عبد الرحمن بن أسباط قد توفى، ويبدو أنه كان يعجب بابن القصيرة والرسائل التى حملها إليه على لسان المعتمد، وأصبح منذ هذا التاريخ رئيس ديوان الإنشاء ليوسف بن تاشفين حتى وفاته سنة ٥٠٠ وظل قائما على هذا الديوان زمن على ابنه حتى وافاه القدر سنة ٥٠٨ بمراكش.

وتحتفظ الذخيرة - كما ذكرنا آنفا - بكثير من الرسائل التى كتبها على لسان المعتمد بن عباد، ولعل أهمها الرسالة التى فصَّل فيها القول فى هزيمة ألفونس بالزلاَّقة، وكان جيشه قد دُمِّر، وبلغ من كثرة قتلاه أن كان الناس يتخذون من رءوسهم صوامع يؤذِّنون عليها ويشكرون الله على حسن صنيعه، ومن قول ابن القصيرة فى الرسالة المذكورة ببعض فصولها بلسان المعتمد.

«قد عُلم ما كنا - قبلُ - مع عدوِّ الله أَذْ فونش قَصَمه الله - من تَطَأْطُؤنا واستعلائه، وتقامئنا وانْتِخائِه[1]، وأنا لم نجد لدائه دواءً، ولا لبلائه انقضاءً، ولا لمدة الامتحان به

---

(١) تقامؤ: تصاغر وتذلل. انتخاء: تعاظم.

فَناءً، إلى أن سَنَّى[١] الله تعالى من استصراخ أمير المسلمين وناصر الدين، أبي يعقوب يوسف بن تاشفين – أيده الله – ما سَنَّى، وأدْنى من نَأى ِ دياره وشَحَطْ[٢] مزاره ما أدني.. ثم أجاز – على بركة الله وعونه – يَريش[٣] ويَبْرى، وسار قُدُمًا[٤] يَخْلُقُ ويَفْرِى[٥]. واتفق رأينا بعد تشاور على قصد قُورِيَة (بالقرب من ماردة شرقى بَطَلْيوس) – حَرسها الله – وسمع العدو – لعنه الله – بذلك فقصد بمُحْتَشَدِه إليها فى جيوش تملأ الفضاءَ، وتسدّ الهواءَ، وتمنع أن تقع على ما تحت راياته ذُكاء[٦]، قد تحصَّنوا بالحديد من قُرُونهم إلى أقدامهم، واتخذوا من السلاح ما يزيد فى جرأتهم وإقدامهم، ودعاه تعاظمه إلى مواجهة سبيلنا، وحَمَلَهُ نَفْجُه[٧] وتهوُّره على السلوك فى مَدْرَج سيولنا، ودَنَوْنا إليه بمحلاّتنا، وأَظْلَلْنا عليه براياتنا، وتنادَى المسلمون بشعارهم[٨] المنصور، وأقبلوا عليه وعلى من معه فى حالٍ مؤذنةٍ بالظهور والوفور، وتواقف قليلاً الجمعان، وتجاولَ مَلِيًّا[٩] الفريقان، ثم صدق أميُر المسلمين، وناصرُ الدين – أيدَّه الله – الحملةَ، وصدَمَ فى جمعٍ لم يكثر عدد الجملة، فلم يلبث أعداءُ الله أن وَلَّوا الأدبار، واتبعتهم خيلُ المسلمين تقتلهم فى كل غَوْر ونَجدْ[١٠]، وتقتضى أرواحهم على حالين من كالئٍ ونَقْد[١١]، ولم يخلص منهم على أيدى المتبِّعين – آجرهم الله – إلا من سيلتهمه البُعْد، ويأتى على حُشاشِته[١٢] الجَهْد.. ولم يُصَبْ بحمد الله من المسلمين – وفَّرهم الله على هول المقام، وشدة الاقتحام، كثير، ولامات من أعلامهم تحت تلك الجولة إلا عدد يسير، وإن كان أذفونش – لعنه الله – لم يمت تحت السيوف بِدَدا[١٣]، فسيموت لا محالة أسفًا وكَمَدا، ونحمد الله على ما يسَّر من هذا الفتح الجليل وسناَّه، ومنحه من هذا الصُّنْعِ الجميلِ وأولاه».

وليت ابن بسام روى هذه الرسالة كاملة حتى تتراءى وقعة الزلاقة المجيدة بكل تفاصيلها، والمعتمد يعترف فى مقدمتها باستخذائه[١٤] أمام ألفونس وتصاغره وشعوره

---

(١) سنَّى: فتح.
(٢) شحط: بعد.
(٣) يريش ويبرى: يضر وينفع.
(٤) قدما: مسرعا.
(٥) يخلق ويفرى. يقرر الأمر ويمضيه.
(٦) ذكاء: الشمس.
(٧) نفجه: فخره بما ليس عنده.
(٨) شعارهم: الله أكبر.
(٩) مليا: زمنا غير قليل.
(١٠) الغور: المنخفض من الأرض. النجد: المرتفع منها.
(١١) الكالئ: المؤجل. النقد: الحالّ. يقصد القتل السريع والقتل المؤجل مشيرا بذلك إلى أسراهم.
(١٢) الحشاشة: بقية الروح.
(١٣) بددا: قطعا.
(١٤) الاستخذاء: الخضوع والذل.

بالمذلة والهوان مع التزامه بما كان يدفعه له سنويا من إتاوات. ويقول إنه كان دأبه ودأب أمراء الطوائف من حوله الإذعان لنصارى الشمال، بينما كان دأب النصارى التسلط ونهب الحصون والقلاع، بل لقد نهب ألفونس طليطلة الجوهرة الكبرى، والمعتمد وأمثاله من أمراء الطوائف فى غفلة يعمهون. وقيض الله للمسلمين هناك ابن تاشفين، فقلم أظفار ألفونس وردّ كيده فى نحره ونحر أتباعه مذمومين مدحورين على نحو ما يصور ابن القصيرة فى رسالته. واحتفظت الذخيرة برسالة لابن القصيرة على لسان يوسف بن تاشفين وجّه بها إلى أبى عبد الله محمد بن على بن حمدين حين ولاه القضاء بقرطبة سنة ٤٩٠ وله يقول:

«اسْتَهْدِ الله يَهْدِكَ، واستعنْ بالله يُعِنْك، وتولَّ القضاءَ الذى ولّاكه الله بجدٍّ وحَزْم، وجلَدٍ وعَزْم، وأَمْضِ القضايا على ما أمضاها الله تعالى فى كتابه وسنة نَبيه، ولا تُبال برغم راغم، ولا تشفق من ملامة لائم.. وقد عهدنا إلى جماعة المرابطين أن يسلّموا لك فى كل حقٍّ تمضيه، ولا يعترضوا عليك فى قضاء تقضيه، ونحن أولا وكلُّهم آخرا مذ صرتَ قاضيا سامعون منك، غيرَ معترضين فى حق عليك، والعمالُ والرعيةُ كافّةً سواءٌ فى الحق».

وواضح أن ابن تاشفين يجعل القاضى فوقه وفوق الرعية جميعا، ويقول إنه ليس لجماعة المرابطين فى الأندلس من أولى العقد والحل الحق فى أى اعتراض يوجهونه إليه أو إلى قضائه، ويوسف بن تاشفين نفسه أولا ثم المرابطون جميعا مذ صار قاضى الجماعة فى قرطبة قد أصبحوا خاضعين له ولأحكامه. وهو جانب مشرف فى القضاء الإسلامى، نجده فى كل مكان، ونقصد استقلاله وأن مكانة القاضى فوق مكانة الحاكم مهما بلغ من السلطان. وقد نشر الدكتور محمود مكى مجموعة من رسائل كتاب الديوان المرابطى فى عهد على بن يوسف بن تاشفين فى المجلد السابع من صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد بينها تسع رسائل لابن القصيرة من الرسالة الخامسة فى المجموعة إلى الثالثة عشرة، والسابعة فى ترتيب المجموعة أشبه بمنشور وجهه إلى أهل الأندلس بلسان على بن يوسف، وكان فى زيارة لقرطبة، وفيه ينصح الأندلسيين بطاعة الوالى وأن لا يعصوا له أمرا قائلا:

«إنه النائبُ عنا فى تدبيركم، وإقامة أموركم، وسياسة صغيركم وكبيركم، وقد فوّضْنا

إليه ذلك وأفردْناه بالنظر فى دِقّه وجُلّه[١]، وُقلّه وكُثْره[٢].. وما فعل من ذلك كلّه فنحن فعلناه، وما قال فيه فكأننا نحن قلناه، ولا نوقف ما أمْضاه، ولا نُمضْى ما وقعّه وأباه، ولا نرى فى أحد منكم إلا ما يراه، ولا نتولاّه كائنا ما كان إلا أن يتولاّه، ولا نرضى من أحواله ما لا يرضاه، بلساننا يتكلم، وعما فى جَنَاننا[٣] يترجم، وعلى ما يوافقنا يُسْدِى ويُلْحم[٤]».

وفى رأينا أن هذه قسوة فى معاملة الرعية، وواجب الحاكم الأعلى مثل على بن يوسف أمير المرابطين أن يأخذ الرعية بالحلم، وأن يوصى ولاته بمعاملتها بالعدل الذى لا تصلح حياة الناس بدونه وأن يسمعوا إلى شكواهم وأن يفتحوا أبوابهم لكل متظلم أو مظلوم فى الرعية. وتخلو بعض السطور فى رسائل ابن القصيرة من السجع، وهو ما جعل عبد الواحد المراكشى يقول عنه: «كان ابن القصيرة على طريقة قدماء الكتاب من إيثار جزل الألفاظ وصحيح المعانى من غير التفات إلى الأسجاع التى أحدثها متأخرو الكتّاب، اللهم إلا ما جاء فى رسائله من ذلك عفوا من غير استدعاء». وهذا الحكم إنما يصدق فقط على بعض سطور تتخلل أحيانا رسائله المسجوعه.

ابن أبى الخصال[٥]

هو أبو عبد الله محمد بن مسعود الغافقى الشَّقُورى المعروف بابن أبى الخصال، المولود سنة ٤٦٥ بفَرْغليط إحدى قرى شقوره من إقليم جيان غربى مرسية. سكن قرطبة، ودرس على شيوخها، ونهل من حلقاتهم ما جعله متفننا فى العلوم مستبحرا فى الآداب واللغات، عالما بالأخبار ومعانى الحديث والآثار والسير والأشعار. ويضيف ابن بشكوال إلى ذلك أنه «كان مفخرة وقته وجمال جماعته، حسَن العشرة، واسع المبرة، من

(١) دقه: دقيقه. جله: كبيره.
(٢) قله: قليله. كثره: كثيره.
(٣) الجنان: العقل.
(٤) يسدى ويلحم: يصيب ويحكم.
(٥) انظر فى ترجمة ابن أبى الخصال ورسائله الذخيرة ٧٨٦/٣ والمغرب ٦٦/٢ والقلائد ١٧٥ والصلة رقم ١١٨٧ والبغية رقم ٢٨٢ والمطرب ١٨٧ والمعجب ٢٣٧ وفهرست ابن خير ٣٨٦، ٤٢٠ ومعجم الصدفى ١٤٤ والخريدة ٤٤٩/٢ والإحاطة ٣٨٨/٢ وصبح الأعشى ٤١٣/٢، ٥٣/٨، ٨٥، ٨٦، ٨٩، ٩١، ٢٢٢، ٢٢٧، ٢٦٣/١٤ وراجع أربع رسائل ديوانية له فى وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين فى المجلدين السابع والثامن من صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد بتحقيق وتحليل د. محمود مكى. وفى معهد المخطوطات بالقاهرة التابع لجامعة الدول العربية مخطوطة له بعنوان ترسل الفقيه الكاتب ابن أبى الخصال.

أهل الخصال الباهرة والأذهان الثاقبة، فصيح اللسان، حسن البيان، حلو الكلام أحد رجال الكمال، وله تآليف حسان» منها كتاب «سراج الأدب» وكتاب «ظل الغمامة وطوق الحمامة» فى مناقب من خصَّه الرسول عليه الصلاة والسلام من صحابته بالكرامة، وأحلَّه بشهادته الصادقة دار المقامة. وكان كاتبا بليغا وشاعرا محسنا، وله قصيدة طويلة فى نسب الرسول ﷺ سماها «معراج المناقب ومنهاج الحسب الثاقب». وله بجانب ذلك رسائله الديوانية والشخصية البديعة، ويقول صاحب المعجب: «له ديوان رسائل يدور بأيدى أدباء أهل الأندلس قد جعلوه مثالا يحتذونه، ونصبوه إماما يقتفونه» ويقول صاحب المطرب إن نظمه الرائق وترسله الفائق يقع فى خمس مجلدات.

ولم يلتحق بديوان أحد من أمراء الطوائف، وأول مرابطى التحق بديوانه محمد بن الحاج القائد المرابطى والى يوسف بن تاشفين على قرطبة، وكان يسند إليه أحيانا قيادة الجيوش التى تنازل نصارى الشمال، وولاه فى سنة ٤٩٧ على غرناطة، وعزله عنها فى السنة التالية، إذ أبقاه للجيوش المحاربة. وحين تحولت مقاليد الحكم بعد يوسف إلى ابنه على ولاه على فاس سنة ٥٠١ وعلى بلنسية سنة ٥٠٣ وظل ينازل ألفونس ملك أراجون بالقرب من سرقسطة محاميا عنها ومدافعا حتى وفاته سنة ٥٠٨. وإنما ذكرنا ذلك كله عن محمد بن الحاج، لأننا نظن أن ابن أبى الخصال ظل كاتبا له حتى مطالع القرن الخامس الهجرى، وحتى استدعاه على بن يوسف أمير المرابطين للعمل فى ديوانه بمراكش، وسنرى عما قليل أنه كتب عنه رسالة سنة ٥٠٧ ولا نعرف بالضبط متى استدعاه أو متى بدأ العمل فى هذا الديوان. ويقول ابن بسام: إنه كاتبه سنة ٥٠٣ ليرسل له مقتطفات من نثره وشعره يسجلها فى كتاب الذخيرة، ويذكر أنه أرسل له هذه الرسالة وهو مجتاز بإشبيلية فى جملة العسكر، وإذا عرفنا أن على بن يوسف قاد جيشا فى تلك السنة اتجه به إلى طليطلة وفتح عدة مدن وحصون بينها طلبيرة رجحنا أن يكون ابن أبى الخصال رافقه فى جملة هذا العسكر أو هذا الجيش وكان معه ابن حمدين قاضى قرطبة، وربما التحق فعلا بديوانه فى هذه السنة أو قبلها بقليل. وظل يحظى عند على بن يوسف بمنزلة أثيرة، وعينَّ أخاه أبا مروان معه فى الديوان، وما زالا يكتبان عن على، وهو راض عنهما كل الرضا حتى غزا ألفونس المحارب رذمير صاحب أراجون فى الشمال إقليم بلنسية سنة ٥٢٣ ونهضت له منها حشود ضخمة من الأندلسيين ومن المرابطين، والتقى الجمعان عند قلعة قليبرة بمقربة من جزيرة شقر، وكانت الدائرة على المرابطين والأندلسيين، وفقدوا اثنى عشر ألفا بين قتيل وأسير يقول ابن القطان: «وبلغ ذلك على بن يوسف فغاظه، وأمر

بالكتابة إلى جنود لمتونة (المرابطين) فى بلنسية بالخزى، فكتب ابن أبى الخصال عنه إليهم بكل تنكيل وخزى[١]» وأفحش أبو مروان عليهم فى رسالته بقوله فى بعض فصولها: «أى بنى اللئيمة وأعيار الهزيمة، إلام يزيِّفكم الناقد[٢]، ويردكم الفارس الواحد؟ فليت لكم بارتباط الخيول ضأنا لها حالبٌ قاعد ، لقد آن أن نُوسِعَكم عِقابا وأن لا تَلُوثوا[٣] على وجه نِقابا، وأن نعيدكم إلى صحرائكم، ونطهِّر الجزيرة من رُحَضَائكم[٤]». وهى مبالغة فى الإفحاش على جيش المرابطين المجاهد فى الأندلس، مما أحنق على بن يوسف، فأخَّر أبا مروان عن كتابته. ويقول صاحب المعجب: إن على بن يوسف راجع أبا عبد الله بن أبى الخصال فيما كتب أخوه وأن أبا عبد الله استعفاه فأعفاه ورجع إلى قرطبة بعد ما مات أخوه أبو مروان بمراكش» وأخوه إنما توفى سنة ٥٣٩ مما يدل - فى رأينا - على أن على بن يوسف لم يقبل استقالتهما من ديوان الكتابة وأنهما ظلا يعملان فيه حتى وفاة على بن يوسف سنة ٥٣٧ على الأرجح، وربما عملا فيه بعد وفاته إلى أن توفى أبو مروان، فعاد أبو عبد الله إلى قرطبة، ولازم داره بها حتى توفى سنة ٥٤٠.

ولأبى عبد الله رسائل شخصية ومواعظ ووصف نثرى للطبيعة ومقامة، وسنعرض لكل ذلك فى غير هذا الموضع، وحسبنا الآن أن نعرض لرسالتين اخترناهما من رسائله الديوانية كتب أولاهما فى سنة ٥٠٧، وهى موجهة إلى أهل الأندلس للحض على الجهاد وإعلامهم أن أمير المسلمين على بن تاشفين عزم على خوض معارك ضارية مع النصارى الشماليين وفى فاتحتها يقول:

«كتابُنا - أعزَّكم الله - بتَقْواه، وكنَفكم بظلِّ ذُرَاه، ووفَّر حظوظكم من حُسْناه، من حضرة مراكش - حرسَها الله - يوم الاثنين منتصف شوال من سنة سَبْع وخمسمائة بين يدى حركتنا يَمَّن الله فاتحتها وعُقْباها، وقد قرَعْنا الظَّنَابيب[٥]، وأشْرَعْنا الأنابيب[٦]، وضمَّرنا اليَعاسيب[٧]، واستنفرنا البعيد والقريب، مستشعرين إخلاصَ نية، وصدق حميَّة،

---

(١) راجع قسما من نظم الجمان لابن القطان تحقيق د. محمود مكى (طبع الرباط) ص ١١٠ وما بعدها.

(٢) الناقد: الصيرفى الذى يميز النقد الحق من الزائف.

(٣) تلوثوا: تضعوا اللثام شعار لمتونة على وجوهكم.

(٤) رحضاء: عرق الحمى، والكناية واضحة.

(٥) قرع الظنابيب: كناية عن الإسراع للحرب.

(٦) الأنابيب: الرماح.

(٧) اليعاسيب: الخيل.

فى نَصْر دين الإسلام، وَمَنْع جانبه أن يُضام، أو يناله من عدوه اهْتِضام[١]، ونحن وإن كنا قد بالغنا فى الاحتشاد والاستعداد، واستنهضنا من الأجناد، ما يُرْبى على الحَصَى والتَّعْدَاد، فإنا نعتقد اعتقاد يقين، بقول رَبِّ العالمين، فى كتابه المبين ﴿قل ما يَعْبَؤُ بكم رَبِّى لولا دعاؤُكم﴾ أن استنفار الدعاء، واستفتاح أبواب السماء، بخالص الثناء، من أنفع الأشياء، وأنجح الدواء، فيما أعضل[٢] من الأَدْوَاء».

وكانت هذه السنة حقا من السنوات التى أبلى فيها المرابطون بلاء عظيما فى قتال نصارى الشمال سواء نصارى أراجون أو برشلونة أو القشتاليين. وإنه لما يحمد لهم ولعلى بن يوسف أنهم ظلوا لا يغمدون سيوفهم أبدا وظلوا يواجهون أعداءهم منزلين بهم ضربات قاصمة، وكان النصارى أحيانا ينتصرون فى بعض الوقائع، ولكن سرعان ما كان المرابطون يأخذون ثأرهم، ويكيلون لهم الصاع صاعين. وفى أثناء ذلك كتب المعاهدون من النصارى من أهل الذمة – وخاصة فى غرناطة – إلى الملك النصرانى ألفونس بن ردمير ملك أراجون يدعونه للاستيلاء على ما بيد أهل الأندلس من البلدان، فلباهم فى أواخر شعبان سنة ٥١٩ وقاد جيشا كثيفا اخترق البلاد من سرقسطة إلى غرناطة، وهاجم كل ما فى طريقه من بلدان مثل دانية ومرسية ووادى آش وحاصر غرناطة غير أنه اضطر إلى فك الحصار عنها، وكان قد واقعه المرابطون بجوار اليُسانة بالقرب من قرطبة ولم يكتب لهم النصر، ومضى على وجهه مخترقا إقليم البُشَرَّات ومالقة إلى البحر المتوسط، واتجه إلى الشمال عائدا إلى موطنه[٣]. وكان قد ظل فى هذه الحملة نحو سنة يعيث فى الأندلس مما أغضب أهلها أشد الغضب، وخاصة على المعاهدين من أهل الذمة الذين يعايشونهم لا لأنهم كاتبوا ملك أراجون فحسب بل أيضا لأنهم كانوا يشدون أزره أينما توجه ويدلونه على عورات البلاد ويبذلون له كل عون. وكان يزيد فى غضبهم شىء من تقاعس تميم بن يوسف بن تاشفين والى غرناطة وقرطبة فى تلك السنة. وانتدب أبو الوليد بن رشد الفقيه الكبير جد الفيلسوف ابن رشد نفسه للوفود على أمير المرابطين على بن يوسف بمراكش وإطلاعه على صنيع المعاهدين من أهل الذمة واستدعائهم لملك أراجون وعونهم له فى حملته مما نقضوا به العهد الموثق بينهم وبين

---

(١) اهتضام: ظلم.

(٢) أعضل: أعجز. الأدواء: الأمراض.

(٣) انظر فى هذه الحملة الإحاطة (طبعة عنان) ١١٤/١، والحلل الموشية ٧٥ وتاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين لأشباخ ترجمة عنان ص ١٤٦.

المسلمين «وأفتى بتغريبهم عن أوطانهم[١]» ووعده على بن يوسف أن يأخذ بفتواه، وأمر ابن أبى الخصال أن يكتب إلى أهل الأندلس - وخاصة أهل غرناطة وقرطبة - يطمئنهم بأنه سيتخذ من الإجراءات ما يرضيهم، وصدع ابن أبى الخصال بأمره، وكتب إليهم رسالة ضافية جاء فيها:

«وَفَدَ إلينا، وورد علينا، الفقيهُ الأجُل المشاور أبو الوليد بنُ رُشْد، فبسط لدينا شأن تلك الجزيرة - كلأها الله - وجَلَّاه، ووصف من حالها ما أَصْخنا له حتى استوفاه، وجال بميدان البيان أفصح مجال، وعرض الأمور فى معرضها بأبلغ مقال.. ولن نَأْلُوَ[٢] جهدا مَبْذولا، وجِدًّا حَفِيلا، وعَزْما لا نابيا ولا كَلِيلا[٣]، فيما نَدْرَأ ونَدْفَع، ونذودُ عن حَوْزة[٤] الملة ونمنع، ونَدْأَبُ لذلك الدَّأبَ الحَثِيث[٥]، نُتْبع القديم فيه بالحديث، ونَنْصِبُ له النَّصَبَ الذى ليس حَبْلُه السَّحِيلَ[٦] ولا النَّكيثَ[٧]، ولا يشغلنا عنه شاغل وإن أهَمّ، بل نصرف نحو جنابكم الحزم الأتمَّ الأهم، وجهدَ الكفاية مادهَم حادث وألَمّ، فاستَشْعِروا أن أموركم إزاء ناظر اهْتبالنا[٨]، ومن آكد مؤكَّدات أشغالنا، وقد عاين الفقيهُ الأجلُّ المتقدمُ الذكر، حقيقةَ الأمر، وسيبلغكم ذلك عنه فلا تكونوا فى ريب منه، والله تعالى يُعيننا على ما نحن بصدده، ويَمْنَحنا من تأييده ما يُعِزّ الإسلامَ ويقيم من أَوَدِه[٩]، بحوله وطَوْله، وعَدْله وفضله».

وفعلا نفَّذ على بن يوسف فتوى الفقيه ابن رشد، فأمر فى رمضان من سنة ٥٢٠ بإجلاء المعاهدين من النصارى الذين نقضوا العهود الموثقة إلى مكناسة وسَلا وغيرهما من بلدان المغرب، وعزل أخاه تميما عن غرناطة وقرطبة لتقصيره إزاء حملة ابن رذمير. وإذا كان المرابطون قصَّروا - أو أُخذ عليهم شيء من التقصير - فى مواجهة ابن رذمير فإنهم طالما أبلوا فى منازلة النصارى الشماليين وأبلى معهم تميم كما حدث فى موقعة أُقْليش التى انتصروا فيها على جيش ألفونس السادس ملك قشتالة، وفيها كان مصرع ابنه شانجه. وواضح مما اخترناه من كتابات ابن أبى الخصال الديوانية أنه كان كاتبا مجيدا يحسن انتخاب الكلم فى نسق محكم من السجع الرصين.

---

(١) الإحاطة ١/١١٩ - ١٢٠.

(٢) نألوجهدا: نقصر فى جهد.

(٣) كليلا: ضعيفا.

(٤) حوزة الملة: حدودها وجوانبها.

(٥) الحثيث: السريع.

(٦) السحيل: المفتول على قوة واحدة فتلا خفيفا.

(٧) النكيث: المنقوض المشعث، ضد المفتول.

(٨) اهتبالنا: اغتنامنا الفرصة.

(٩) أوده: اعوجاجه.

ابن عَمِيرة المخزومى[1]

هو أبو المطرف أحمد بن عبد الله المخزومى من سلالة خالد بن الوليد، وُلد سنة ٥٨٢ بجزيرة شُقْر بين شاطبة وبَلَنْسِية، ونهرها يحيط بها من جميع الجهات، ولذلك سميت جزيرة، وطالما تغنى أبناؤها - من أمثال ابن خفاجة - بجمال طبيعتها. وعُنى به والده منذ نعومة أظفاره، فأدخله كتابا حفظ فيه القرآن الكريم وبعض الشعر، ثم دفعه إلى حلقات بعض الشيوخ، حتى إذا أيفع وشبَّ أرسل به إلى بلنسية لينهل من حلقات حافظها وفقيهها وقاضيها أبى الربيع الكلاعى، وفيها أخذ يختلف إلى حلقات غيره من العلماء وخاصة حلقة ابن نوح الغافقى شيخ العربية وقواعدها النحوية. ودفعه شغفه بالاستزادة من العلم إلى الرحلة فى طلبه عند بعض العلماء المشهورين لأيامه، فرحل إلى شاطبة ونهل من حلقتى شيخها أبى عمر الشاطبى وقاضيها أبى الخطاب بن واجب، ورحل إلى دانية للأخذ عن ابن حوط الله الأنصارى، ونزل مرسية وأخذ عن شيخها عزيز بن خطاب، وسمع عليه كتاب المستصفى فى علم الأصول للغزالى وبعض كتب الصوفية. وطمحت نفسه مبكرا إلى أن يكون من أصحاب الجاه، وكانت فيه نزعة أدبية هيأته ليكون شاعرا، ولم يلبث أن عمل بديوان أبى عبد الله بن أبى حفص الموحدى حاكم بلنسية حوالى سنة ٦٠٧ وهو فى نحو الخامسة والعشرين من عمره. وظل بهذا الديوان سنوات متعاقبة، ونراه فى سنة ٦١٧ بإشبيلية، ولعله كان يريد العمل بدواوينها، وظل بها فترة اختلف فيها إلى حلقة الشلوبين إمام العربية بالأندلس فى عصره. وعاد إلى بلنسية، وكان قد وليها للموحدين سنة ٦٢٠ أبو زيد بن أبى عبد الله بن أبى حفص فألحقه بديوانه مع صديقه ابن الأبار، حتى إذا كانت سنة ٦٢٦ ثار على أبى زيد زيانُ بن أبى الحملات بن مردنيش واستولى منه على بلنسية، وظل ابن عميرة يعمل فى ديوان زيان حتى أواخر سنة ٦٢٨ وأحسَّ من زيان شيئا من

---

(١) انظر فى ابن عميرة وترجمته ورسائله معجم أصحاب الصدفى ص ١٦٣ وتحفة القادم رقم ٩٢ واختصار القدح المعلى ص ٤٢ والمغرب ٣٦٣/٢ وجذوة الاقتباس لابن القاضى ص ٧٢ وعنوان الدراية للغبرينى ص ١٧٨ والإحاطة ١٧٣/١ ونفح الطيب ٢٧٢/١ وصبح الأعشى ٥٣٤/٦، ٣٧/٧، ٩٤، ٩٨، ١١٠، ١١٦، ١٤٩/٨، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٦، ٣٠١/٩، ٣٠٦/١٠ وراجع كتاب «أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومى: حياته وآثاره» لمحمد بن شريفة (طبع الرباط) وتحتفظ الخزانة العامة فى الرباط بمخطوطتين من رسائله.

الوحشة، فترك بلنسية إلى بلدته جزيرة شُقْر، وكان سلطان ابن هود أمير مُرْسية قد اتسع، فكتب له فى سنة ٦٢٩ وعيَّنه ابن هود قاضيا فى شاطبة، جامعا له بين القضاء والكتابة كما تدل على ذلك بيعة طويلة كتبها باسم ابن هود عن نفسه وعن أهل شاطبة فى الأندلس للمستنصر العباسى مع بيعة الناس فيها أيضا له ولابنه وليا للعهد من بعده. وابن هود فيها يعلن ولاءه وطاعته للخليفة العباسى استكمالا لثورته على الموحدين وما يدَّعون من خلافتهم. وربما ظل يجمع بين عمله فى الكتابة لابن هود وقضاء شاطبة. وتوفى ابن هود سنة ٦٣٥ وخلفه عمه واستولى منه على الحكم عزيز بن خطاب، واتخذ ابن عميرة كاتبا له، وقُتل ابن خطاب. وكان ملك أراجون قد استولى على بلنسية، وقبله بقليل استولى ملك قشتالة على قرطبة، وشعر ابن عميرة أن مستقبل الأندلس مظلم، فرأى الهجرة منها إلى المغرب، وعبر الزقاق، ونزل سبتة عند واليها ابن خلاص فرحب به، ولم يلبث أن لقى الخليفة الموحدى الرشيد فى مدينة الرباط حين زارها، وصحبه معه إلى حاضرة مملكته: «مراكش» وألحقه بدواوينه، ولبث بها ابن عميرة قليلا، إذ عينه الرشيد قاضيا فى سَلاوالرباط. وتوفى الرشيد سنة ٦٤٠ فأقرَّه أخوه السعيد على عمله، ثم نقله إلى مكناسة، ونراه فيها يكتب باسم أهلها بيعة لسلطان تونس أبى زكريا الحفصى، ويبدو أنه إنما أغراه بذلك أنه رأى بوضوح أن دولة الموحدين تحتضر، وتكاد تلفظ أنفاسها الأخيرة. وعاد إلى سبتة يكتب لحاكمها. وفى سنة ٦٤٦ تحَّول إلى أبى زكريا سلطان تونس ودولته الحفصية، ونزل بجاية وأفضال أبى زكريا تتوالى عليه. ولم يلبث أبو زكريا أن توفى سنة ٦٤٧ وخلفه ابنه المستنصر، فاستقدمه إلى تونس، وولاه القضاء فى قسنطينة وغيرها، ثم استخلصه لنفسه مستشارا وأنيسا، وغمره بأفضاله إلى أن توفى سنة ٦٥٨ للهجرة.

وطبيعى أن تكون لابن عميرة رسائل ديوانية كثيرة، إذ كتب لحكام بلنسية من الموحدين وخاصة لأبى زيد الموحدى، وكتب بعده لحكامها: زيان بن مردنيش الثائر عليه وابن هود أمير مرسية وعزيز بن خطاب صاحبها والرشيد الموحدى، ومن أقدم رسائله رسالة كتبها عن أبى زيد الموحدى أمير بلنسية إلى المستنصر الموحدى سنة ٦٢٠ يستأذنه فى وفود أمير نصرانى عليه من أراجون يسمى: «بلاسكو أرطال» كان وصيا على ملكها خايمى ، ولما استبد بالملك اختلف معه ونفاه فلجأ إلى بلنسية، واستُقْبل بالترحيب على أمل كاذب أن يكون فيما بعد عونا لحاكم بلنسية فى حروبه ضد ملك أراجون. وصوَّر ابن عميرة هذا الأمل المخطئ وأمر هذا اللاجئ فى رسالته، وقد احتفظ القلقشندى فى الجزء

السادس من صبح الأعشى بشطر كبير منها، وفيها يقول عنه ابن عميرة:

«كان له فى البلاد الأرَغُونِيَّة زعامة فى شَأْوها[١] بَرَّز، ولغايتها أَحْرَز، وكان قد كفل صاحبَ أراجون فى الزمان المتقدم كفالةً دارَ أمرها عليه، وأُلْقِى زمامُها إليه. ثم إنه حُطَّ من رتبته، وتأكدت المبالغة فى نكبته.. والظاهر من حَنَقه على أهل أراجون وشدة عَداوته لهم، وما تأكَّد من القطيعة بينه وبينهم، أنه إن صادف وَقْتَ فتنةٍ معهم ووجد ما يؤمِّله من إحسان الأمر العالى - أيَّده الله - فينتهى من نكايتهم والإضرار بهم إلى غايةٍ غريبة الآثار، مفضية به إلى درْك الثار، وكثير من زعماء أراجون ورجالها أقاربه وفُرسانه وكلهم - فى حَبْله - حاطب[٢]، ولإنجاده - متى أمكنه - خاطب».

وكأن أبا زيد ومن حوله لم يأخذوا درسا من التجاء ألفونس القشتالى إلى طليطلة حين حاربه أخوه شانجه وانتصر عليه وفرَّ منه إلى دير، ولجأ إلى المأمون أمير طليطلة فرحب به وبالغ فى إكرامه تسعة شهور متعاقبة، عرف فيها مداخل حصن طليطلة العتيد ومخارجه، فلما توفى أخوه وأصبح ملكا على قشتالة لم يكن له هم إلا الاستيلاء على طليطلة، واستولى عليها، وكان ذلك بدء ضياع الأندلس منذ هذا التاريخ، وهو درس كان ينبغى أن لا ينساه أبو زيد، وخطأ أكبر الخطأ أن يفتح حكام بلدة صدورهم وبلدهم لأعدائهم ظانين أنهم يستطيعون أن يحيلوهم أصدقاء أو ما يشبه الأصدقاء، وما أبعده وهما أن يصبح العدو صديقا فما بالك إذا كان العدو محاربا لك، ولكن هكذا قُدِّر لبلنسية أن يحكمها غِرّ ليس عنده بصر بالأمور وأن يجد فى كنفه «بلاسكو» الأَرَجونى عدوه الأمان والضيافة لمدة عامين متعاقبين، ويرجع إلى بلده، ويعود منها بعد قليل مع ملكها بجيش يستولى به على بلنسية بعد تنكيله بأهلها تنكيلا شديدا.

ونقف قليلا عند البيعة للخليفة العباسى المستنصر التى أشرنا إليها والتى كتب فيها ابن عميرة رسالة طويلة بعقد ابن هود على أهل شاطبة الولاء لهذا الخليفة والبيعة لنفسه ولابنه وليا للعهد من بعده، وهو يستهلها بحمد الله والصلاة على رسوله بهذا النمط:

«الحمدُ لله الذى جعل الأرضَ قَرارا، وأرسل السماءَ مِدْرارا، وسخَّر ليلًا ونهارا، وقدَّر آجالا وأَعْمارا، وخلق الخلق أَطْوارا، وجعل لهم إرادةً واختيارا، وأوجد لهم تفكُّرًا

---

(١) شأوها هنا: سلطانها.

(٢) يقال حطب فى حبله إذا أعانه ونصره.

واعتبارًا، وتعاهدهم برحمته صِغارا وكبارا، نحمده حمد من يرجو له وَقارا، ونبرأ ممن عانده استكبارا، وألْحَدَ فى آياته سَفاهة واغترارا، وصلّى الله على سيدنا محمد الشريف نِجارا، السامى فخارا، رفع الله من شريعته للأمة مَنارا، وأطفأ برسالته للشِّرْك نارا، حتى علا الإسلام مقدارًا، وعزَّ جارًا ودارا، وأذعن له الكفر اضطرارًا، واستسلم ذلَّةً وصَغارا، فمضى وقد ملأ البَسِيطة أنوارا، وعمَّها بدعوته أنجادا وأغْوارا، وأوجب لولاة العهد بعده طاعة وائْتمارا. فجزى الله أفضل ما جزى نبيًّا مختارا، ورسولا اجْتَباه اختصاصًا وإيثارا، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين آثارا واختبارا، وعلى أصحابه الكرام مهاجرين وأنصارا، صلاة نواليها إعلانا وإسرارا، ونرجو بها مغفرة ربِّنا إنه كان غفارا»

وواضح أن ابن عميرة التزم فى سجع هذه القطعة التى استهل بها البيعة حرف الراء، وهو جانب يشيع شرقا وغربا حتى لنجد الرسالة يُخْتار لها أحيانا حرف بعينه، وكان الحريرى قد ابتدأ ذلك برسالتين التزم فى إحداهما السين وفى الثانية الشين، فأخذ الحصكفى وبعض الكتاب فى الشرق يحاكيه فى هذا الصنيع، وبالمثل أخذ بعض الكتاب فى الأندلس يحاكونه فيه ببعض رسائلهم الشخصية دلالة منهم على مهارتهم الفنية، وسنعود إلى الحديث عن هذا الجانب فى عرضنا للرسائل الشخصية عند ابن عميرة وغيره من الكتاب. وله فصول وكلمات وعظية على طريقة ابن الجوزى كما ذكر ذلك ابن عبد الملك فى ترجمته له بكتابه «الذيل والتكملة، وله مؤلفات مختلفة منها تعليقات على كتاب المعالم للفخر الرازى وتعقيب على كتاب التبيان فى البلاغة لابن الزملكانى، ومنها كتاب فى تاريخ ثورة المريدين على دولة المرابطين وكتاب عن كائنة ميورقة واستيلاء ملك أراجون عليها. وبالخزانة العامة بالرباط مخطوطتان من رسائله.

لسان[1] الدين بن الخطيب

أكبر كتاب غرناطة والأندلس فى أزمنتها الأخيرة، وهو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد، ولد سنة ٧١٣ للهجرة لأسرة يمنية بلوشة على نهر شنيل بالقرب من غرناطة، وكان أبوه من أهل العلم والأدب، فعيِّن بدواوين غرناطة عند أمرائها بنى

(١) انظر فى ترجمة لسان الدين التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١٥٥ وما بعدها وصبح الأعشى للقلقشندى ٥٣٦/٦ وتاريخ ابن خلدون ٣٣٢/٧ وأزهار الرياض ١٨٦/١ وما بعدها والجزءين الخامس والسادس من نفح الطيب وكتاب الاستقصا للسلاوى (طبع الدار البيضاء) ١٢/٤ وفى مواضع متفرقة وراجع كتابه: أعمال الأعلام:=

الأحمر، وبها نشأ لسان الدين، وعُنى أبوه بتربيته، فبعد حفظه للقرآن الكريم ألحقه بحلقات علماء العربية والدراسات الإسلامية، وطمحت نفسه لمعرفة علوم الأوائل فلزم يحيى بن هذيل أهم علمائها فى زمنه. وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة، وأخذ فى مديح السلطان أبى الحجاج يوسف (٧٣٣ - ٧٥٥) وهو أهم سلاطين بنى الأحمر فى القرن الثامن الهجرى، ويُعَدّ مؤسس قصر الحمراء المشهور بما أضاف إليه من غرفه وأبهائه الفخمة. وأعجب السلطان بأشعار لسان الدين فألحقه بدواوينه، وأخذ يلزم أبا الحسن بن الجياب رئيس ديوان الكتاب وشيخ العدوتين: الأندلس والمغرب فى النثر والنظم وسائر العلوم الأدبية، وعُنى بالأديب الشاب، ومازال يعمل معه حتى توفى سنة ٧٤٩ فولاه السلطان أبو الحجاج رياسة ديوان الكتّاب بعده، وتوفى السلطان سنة ٧٥٥ وخلفه ابنه الغنى بالله، فازدادت حظوته عنده ورفعه إلى مرتبة الوزارة.ونشبت ثورة ضد سلطانه واضطر إلى اللجوء إلى السلطان أبى عنان المرينى بفاس سنة ٧٦٠ وصحبه لسان الدين هناك ولم يلبث أن جال فى بلاد المغرب واستقر بمدينة سَلا زمنا، وعاد سلطانه إلى عرشه بغرناطة سنة ٧٦٣ فاستدعاه وألقى إليه بمقاليد الحكم، ولقّبه بذى الوزارتين: السيف والقلم، وانفرد بالحل والعقد فترة، ثم أخذ يشعر بدسائس كثيرة من حوله، فخشى على نفسه مغبة ذلك، فجمع حقائبه سنة ٧٧٢ وتوجه إلى السلطان عبد العزيز المرينى بفاس فأكرمه. ولم يهدأ خصومه بغرناطة وفى مقدمتهم تلميذه ابن زَمْرَك وقاضى غرناطة أبو الحسن النباهى ودسُّوا عليه عند الغنى بالله أنه يحرض سلطان فاس على غزو الأندلس وضم غرناطة إليه ووصموه بالزندقة لما ذكر فى كتابه: «روضة التعريف» من عقيدة التصوف الفلسفية وما يتصل بها من الحلول وغير الحلول، ورُفع ذلك إلى السلطان عبد العزيز المرينى فأبى تسليمه مبرِّئا له مما وصموه به.. ولم يلبث السلطان أن توفى سنة ٧٧٤ واضطربت الأمور فى فاس، وتولى سلطنتها - بمساعدة الغنى بالله - أبو سالم المرينى سنة ٧٧٦ ولم يلبث أن أودع ابن الخطيب السجن إرضاء للغنى بالله. ولم يكتف تلميذه ابن زمرك بذلك، إذ قدم إلى فاس وعقد محاكمة لأستاذه فى مجلس السلطان

= القسم الثانى (طبع الرباط) ص٢٦١ وما بعدها وكتابنا الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ٣٣٣ وللسان الدين أعمال كثيرة منها الإحاطة فى أخبار غرناطة (طبع دار المعارف) والكتيبة الكامنة فى معاصريه بالمائة الثامنة تحقيق د. إحسان عباس (طبع بيروت) ونفاضة الجراب فى كتاب مشاهدات لسان الدين بن الخطيب فى المغرب والأندلس (طبع الإسكندرية) وكتابه فى التصوف: روضة التعريف بالحب الشريف (طبع بيروت) وديوانه الشعرى: الصيب والجهام (طبع الجزائر).

أبى سالم وعرض عليه بعض كلمات كتبها فى مصنفه «روضة التعريف» تتصل بآراء الصوفية المتفلسفة من مثل الحلول والاتحاد، وأعلن النكير عليه موبخا له، ونُقل إلى السجن، وأخذ القوم يتشاورون فيه وأفتاهم بعض الفقهاء قصار النظر بقتله، ودُسَّ إليه فى السجن مَن قتلوه خنقا، وألقيت جثته على قبره، ويقال إنه أضرمت عليه نار فاحترق شعره واسودت بشرته، ووُورِىَ التراب. وعجب الناس فى فاس وفى غرناطة من هذا التمثيل الشنيع، وعدّوه من هنات ابن زَمْرَك تلميذه العاق.

ولم يكن ابن الخطيب متصوفا فضلا عن أن يكون متصوفا فلسفيا كما حاول ابن زمرك أن ينعته بذلك كذبا عليه وافتراء، إنما كان كاتبا موسوعيا كما تشهد بذلك مصنفاته الكثيرة، وقد كتب فى التصوف كتابه «روضة التعريف» لشيوع التصوف فى زمنه بالأندلس وخاصة بالمغرب، ولو كان متصوفا حقا لهجر الدنيا وعاش فى زاوية – أو ضرب فى الأرض – ناسكا مثل ابن عربى وابن سبعين والششترى. ولا نخليه من ميول إلى الزهد والتصوف كما تدل على ذلك أشعاره ولكن هذا شىء والتصوف الحقيقى شىء آخر، وفيه يقول المقرى: «هو لسان الدين وفخر الإسلام بالأندلس فى عصره الطائر الصيت المثل المضروب فى الكتابة والشعر والمعرفة بالعلوم على اختلاف أنواعها» ويقول ابن خلدون فى وصف براعته الأدبية: «كان آية من آيات الله فى النظم والنثر والمعارف والأدب لا يساجَل مداه، ولا يُهْتَدى فيها بمثل هداه». ومما قيل فيه: «كاتب الأرض إلى يوم العرض». وله – بجانب ديوانه: الصيِّب والجهام – مقامة بناها على المفاخرة بين سلا فى المغرب ومالقة فى الأندلس وثلاث رحلات منها رحلتان فى وصف البلدان وصف فيهما بلدان الأندلس والمغرب هما: «خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف» فى وصف بعض البلدان الأندلسية الشرقية، و «معيار الاختبار فى ذكر أحوال المعاهد والديار» فى وصف بعض البلدان المغربية والأندلسية. وهذه الأعمال منشورة وكذلك رحلته نفاضة الجراب، وسنعرض لكل ذلك فى موضع آخر. ونقف قليلا عند رسائله الديوانية.

وعادة إذا كانت الرسالة الديوانية موجهة إلى أحد السلاطين ممن يلقبون أنفسهم بالخلافة مثل سلاطين تونس أو يكتفون بالسلطنة فقط مثل سلاطين بنى مرين أن تذكر لفظ الخلافة أولا أو يذكر لفظ المقام أو المقر ويطيل لسان الدين فى هذا الوصف، ثم يذكر ألقاب الخليفة أو السلطان المرسل إليه، كما يطيل فى الدعاء له ولدولته ويذكر السلطان

المكتوب عنه، ويتبع ذلك بالتحميد والصلاة على رسول الله والرضا عن صحابته، ويذكر المكان الذى كُتبت فيه الرسالة ثم يأخذ فى بيان المقصود منها ويختمها بالدعاء. ومن خير ما يصور ذلك كله من رسائله الديوانية رسالة له عن سلطانه الغنى بالله إلى سلطان تونس الملقب بالخليفة، جوابا عن كتاب وصل منه مصحوبا بهدية من الخيل والرقيق، ولروعتها البيانية رواها ابن خلدون فى كتابه التعريف والقلقشندى فى صبح الأعشى، وهو يستهلها على هذا النمط:

«الخلافةُ التى ارتفع فى عقائد فَضْلها الأصيلِ القواعدِ الخلافُ، واستقلت مبانى فَخرْها الشائع وعِزِّها الذائع على ما أسَّسه الأسلافُ، وجب لحقِّها الجازم وفَرْضها اللازم الاعتراف، ووسعتْ الآملين لها الجوانبُ الرَّحيبةُ والأكناف، فامتزاجُنا بَعلائها المُنيف وولائها الشريف كما امتزج الماءُ والسُّلاف، وثناؤنا على مجدها الكريم وفضلها العَميم كما تأرَّجت الرياض بالأفْواف[1]، لما زارها الغمام الوكَّاف[2]، ودعاؤنا بطول بقائها واتصال عَلائها يسمو به إلى قَرْع أبواب السموات العلا الاستشراف، وحرصُنا على توفية حقوقها العظيمة وفواضلها العَميمة لا تحصره الحدود ولا تدركُه الأوصاف، وإن عَذَر فى التقصير عن نَيْل ذلك المرام الكبير الحقُّ والإنصاف».

ولعل بلاغة لسان الدين قد اتضحت فى هذه القطعة، إذ ينعت فيها الخلافة التونسية نعوتا بديعة، وبدعها لا يأتى من انتخاب ألفاظها ذات الرونق والحسن فحسب، بل يأتى أيضا من أسجاعها الطويلة التى يتلافى طولها بما يجرى فى تضاعيفها من أسجاع داخلية على نحو ما نرى فى تقابل السجعتين: «فخرها الشائع» و «عزها الذائع» فى السجعة الثانية وبالمثل تقابل السجعتين فى السجعة الطويلة الثالثة إذ يقول: «لحقِّها الجازم، وفَرْضها اللازم». وبنفس النمط تلاقى «المنيف والشريف» فى السجعة الخامسة، و «الكريم والعميم فى السجعة السادسة». ويكثر ذلك فى الرسالة طلبا لاكتمال الجرس حتى تلذ الأسماع لذة موسيقية، وهى لذة تقترن بمحسنات البديع، إذ تتوالى الجناسات فى السجعات الداخلية، كما تتوالى التصاوير، ففضل الخلافة أصيل القواعد، ومبانى فخرها وعزها استقلت وارتفعت، وامتزاج السلطان الغنى بالله وحواشيه بشرفها امتزاج الماء بالسلاف، وثناؤهم عَطِرٌ كشذى الرياض فى الأزهار غِبَّ الغيث المدرار. وأخذ بعد ذلك فى نعت الخليفة نفسه وآبائه الأمجاد، وامتد نعته نحو أربعة عشر سطرا، ثم ذكر الغنى بالله مع

---

(١) الأفواف: الزهر.

(٢) الوكّاف: المدرار.

طائفة من النعوت، ومع سلام كريم كما حملت أحاديثَ الأزهار نسماتُ الأسحار، وأطال فى التحميد والصلاة على رسول الله والدعاء للخلافة، كما أطال فى وصف الرسالة وحاملها والهدية النفيسة من الخيل فرسا فرسا، واستطرد إلى ذكر الخيول والأفراس المشهورة عند العرب، ويعود إلى ذكر رسول الخليفة أو سفيره مطريا مثنيا، ثم يأخذ فى وصف جهاد سلطانه الغنى بالله لنصارى الشمال ومنازلته لهم فى مدن كثيرة، من ذلك منازلته لهم فى جيَّان وكانت قد سقطت فى أيديهم سنة ٦٤٣ للهجرة ويصف تلك المنازلة بقوله:-

«وهذه المدينة هي الأمّ الوَلود، والجنَّة التى فى النار لسكّانها من الكفار الخلود، وكُرْسِيّ الملك، ومجنَّبةُ[١] الوسطى من السِّلْك،غابُ الأسود، وجُحْرُ الحيّات السود.. ولما أكثبنا[٢] جوارها، وكدنا نلتمح، نارها، تحركنا إليها ووِشاحُ الأفق المرقوم[٣] بزُهْر النجوم قد دارَ دائرُه، واللَّيْلُ من خوف الصباحِ على سطحه المستباحِ قد شابت غدَائِرهُ.. ولما فشا سرُّ الصباح، واهتزَّت أعْطافُ الرايات بتحيات مبشراتِ الرياح، أطللنا عليها إطلال الأسود على الفَرائس، والفحول على العرائس.. ودفعوا من أَصْحَر[٤] إليهم من الفرسان، وسبق إلى حَوْمة الميدان، حتى أجحروهم[٥] فى البلد، وسلبوهم لباسَ الجلَد، في موقف يُذْهل الوالد عن الولد، صابت[٦] السهامُ فيه غماما، وطارتْ كأسْراب الحَمام تَهْدِى حِماما[٧]، وأضحت القَنَا قِصَدًا[٨]، بعد أن كانت شهابا رَصَدًا».

والقطعة زاخرة بالجناسات والتصاوير، فجيان أم ولود، وجنة من جنان الأندلس ولساكنيها النار وبئس القرار. وقد دنوا منها فى أخريات الليل ووشاح الأفق المرصع بالنجوم يوشك أن يغيب والليل من خوف الصباح يوشك أن يشيب، ولم يلبث الصباح أن أخذ يذيع أسراره بينما تهتز الأغصان بتحيات الرياح مبشرة لهم بالظفر على الأعداء، وهبطوا عليهم كالأسود الكواسر، ولم يلبثوا أن دخلوا فى جحورهم فرارا من الموت الزؤام وما ينزلون بهم من غمام السهام وصواعق الموت، وتكسرت الرماح التى كانت تحميهم، وخروا صرعى مجدَّلين.

---

(١) مجنبة واسطة السلك: الجوهرة بجانب الجوهرة الوسطى الفريدة فى العقد.
(٢) أكثبنا: قاربنا.
(٣) المرقوم: الموسوم والمنقوش.
(٤) أصحر: برز.
(٥) أجحر: أدخل.
(٦) صاب: انصبَّ.
(٧) الحمام بكسر الحاء: الموت.
(٨) قصد جمع قصدة: قطعة.

ويكثر ابن الخطيب - كعادة أهل الأندلس فى زمنه وقبل زمنه - من الكتابة عن سلطانيه أبى الحجاج وابنه الغنى بالله إلى الرسول ﷺ متوسلين إليه بالشفاعة فى تحقيق أمانيهم الدنيوية فى النصر على الأعداء وأمانيهم الأخروية فى الغفران والرضوان، مع تصوير جهادهما الدائب فى نصرة الإسلام والذب عن حياضه فى الأندلس. ويفيض المقرى بكتابه نفح الطيب فى الحديث عن شيوخه وتلاميذه وأولاده وهو بحق مفخرة من مفاخر الأندلس حُسْنَ أداء وروعةَ بيان.

٢

الرسائل الشخصية

طبيعى أن يعنى الكتاب بهذه الرسائل منذ عنايتهم بالرسائل الديوانية معبرين عن عواطفهم ومشاعرهم من ثناء وشكر وعتاب واستعطاف واعتذار وتهنئة وشفاعة واستمناح وتعزية، وليس بين أيدينا نصوص منها قبل عصر المنصور بن أبى عامر فى أواخر القرن الرابع إذ احتفظ ابن بسام فى الذخيرة بطائفة من الرسائل الديوانية التى صدرت من دواوينه على لسان ابن برد الأكبر وابن دراج شاعره وساق للأخير رسالة شكر لمن أنقذه من ضَنْك حياته، وهو يصف فيها ما كان قد نزل به من الضنك والبؤس بعد أن كان فى ثراء وحال حسنة قائلا[1]:

«كنت قد نشأتُ فى مَعْقل من العَفَا[2] والوَفْر، مُحْدَقا بسورٍ من الأمن والسَّتْر، حتى أرسل إلىَّ سلطان الفقر، رسولا من نُوَب الدهر، يريد استنزالى إليه، وخضوعى بين يديه، فأبيت من ذلك عليه، فغزانى بكتائب من النوائب، تسير تحت أَلْوِيَةِ المصائب، تُبْرِقُ بسيوف الرَّزايا، وتُشْهر أسنَّة المنايا، يرمون عن قِسِيِّ الأوجال، ويضربون طبول الذُّعْر وسوء الحال، بأيدٍ باطشة لا تَكِلّ، وبصائر ثابتة لا تَمَلّ».

والرسالة مبنية على السجع، مبالغة فى التأنق، وقد اختيرت فيها الألفاظ وامتلأت بالتصاوير، مما يؤكد شيوع التنميق فى الرسائل الشخصية منذ أواخر القرن الرابع الهجرى على نحو ما أخذ يحدث فى الرسائل الديوانية عند ابن دراج نفسه وعند ابن برد

---

(١) الذخيرة لابن بسام (تحقيق د. إحسان عباس) ٦٢/١.

(٢) العفا هنا: كثرة الخير وطيب العيش.

الأكبر، ونلتقى بأخرة من العصر الأموى بابن شهيد الكاتب البارع المتوفى سنة ٤٢٦ وقد ترجم له ابن بسام فى ذخيرته، وذكر له طائفة كبيرة من رسائله الشخصية، وهو يطيل فيها طولا شديدا، ونسوق له قطعة من رسالة أطنب فيها ما وسعه الإطناب كتب بها إلى صاحب بلنسية شاكرًا معتذرا عن الإلمام ببابه لتعلقه بقرطبة مع ما أصابها من الفتنة ومن التخريب والهدم والحرق، يقول[١]:

«قد كان أقلَّ حقوق مولاى أن أقفَ ببابه، وأخيِّم بفِنائه، وأُهْدِى إليه الشكر غَضًّا، وأنثر عليه المدح بضًّا[٢]، ولكنى ممنوع، وعن إرادتى مَقْموع، يملكنى سلطان قَدير، وأمير ليس كمثله أمير، شىء غلب صَبْرَ الأتقياء، واستولى على عزم الأنبياء، وهو العشق، باطل يلعب بالحق، ليُبين ضعف البشر، وتلوح قدرةُ مصرِّف القدر، والذى أشكو منه أغربُ الغرائب، وأعجبُ العجائب، بَتٌّ شاغل، وبَرْحٌ[٣] قاتل، وصَبْر يَغيض[٤]، ودمع يَفيض، لعجوزٍ بَخْراء[٥]، سَهِكة دَرْدَاء[٦]، تُدْعَى قرطبة:

عجوزٌ لعَمْرُ الصِّبا فانيه لها فى الحشَا صورةُ الغانِيَهْ

طاب لى الموتُ على هواها، ولذَّ عندى سَقْى دمى لثَراها». وله من رسالة يصور فيها أحد الأبطال المنازلين لجيوش الأعداء من نصارى الشمال[٧]:

«واصل الجهاد، واستأصل الكفر والعِناد، واتخذ ظهر الجواد بَيْتًا، وظلَّ اللِّواء كُمَيْتًا[٨]، واستبدل من نَقْر الكِران[٩] قَرْعَ الطبول، ومن نغم القيان شَجَا الصهيل، ومن وَجْبَة[١٠] المعازف لجَبَ الخيول، يمشى فى الهَجِير[١١]، ويَسْرِى[١٢] فى الزَّمْهَرِير، ويحنُّ إلى الأذان والتكبير، فى خِطَّة إبليس، ومَصْدح النواقيس».

وسنترجم لابن شهيد فى مطلع الحديث عن الرسائل الأدبية، ونمضى إلى عصر أمراء الطوائف ومن أوائل من نلقاه فى هذا العصر ابن برد الأصغر كاتب مَعْن بن صُمادح أمير

---

(١) الذخيرة ٢٠٧/١.
(٢) بضّا: ناضرا.
(٣) برح: عذاب.
(٤) يفيض: يغيب.
(٥) بخراء: رائحة فمها كريهة.
(٦) سهكة: كريهة الرائحة. درداء: ساقطة الأسنان.
(٧) الذخيرة ٢٢٧/١.
(٨) الكميت من الخيل: الأشقر ضاربًا إلى السواد.
(٩) الكران: العود.
(١٠) وجبة: صوت.
(١١) الهجير: القيظ وسط النهار.
(١٢) يسرى: يسير ليلا. الزمهرير: البرد الشديد.

المريَّة، وقد أطال ابن بسام فى ذكر تحميداته، وذكرَ طائفة من رسائله فى العتاب والاستزارة وله رسالة فى ذم صديق، ويقول ابن سعيد فى المغرب إنها من أبدع ما قيل فى ذم مؤاخٍ، ومن قوله فيها:[١]

«خلَّيتُ عنه يَدِى، وخلَّدتُ قِلاه خَلَدِى، بَيْضُ الأنْوُقِ[٢] من رِفْده أمكن، وصَفَا المُشَقَّر[٣] من خَدِّه أَلْيَن، نَزْر النوال، رَثَّ المقال، أحاديث وَعْده لا تعود بنفع، ولا هى من غَرَبٍ ولا نَبْع[٤]، على وجهه من التعبيسِ قُفْلٌ ضاع مِفْتاحه، وليلٌ مات صباحه، غنىٌّ من الجهل، مفلسٌ من العقل، تتضاءل النعم لديه، وتقبح محاسنُ الإحسان إليه، غِرْبال حديث إذا وَعَى سِرًّا قَطر منه، كَبِدُ الزمان عليه قاسية، ونِعَمُ الله له ناسية، قصيرُ عمرِ الوفاء للإخوان، عَوْنٌ عليهم مع الزمان، مربٌّ لأطفال الإحَن، مُحْيٍ لأموات الدِّمَن[٥]، رقدتُ ملء عينى فى فَرْش القِلَى[٦] له وشربت زُلالَ[٧] ماءِ العَزاء عنه»

ولابن برد رسالة وجَّه بها إلى أبى الوليد بن جهور أمير قرطبة (٤٣٥ - ٤٦١ هـ) جعل موضوعها مجلسا للرياحين وأنوار البساتين أخذت فيه تتفاوض وتتحاور فى أيها أجمل فى صورته وأعبق فى رائحته ثم قام من بينهم خطيب، ففضل الورد على سائر الأزهار لحمرته معللا لذلك بأن الحمرة لون الدم والدم صديق الروح. وكان بالمجلس من رؤساء الأزهار والرياحين النرجس الأصفر والبهار والبنفسج والخيرىّ، فأدوا للورد شهادتهم بتقدمه، ونسوق منها شهادة النرجس إذ يقول[٨]:

«والذى مهَّد لى حِجْرَ الثَّرَى، وأَرْضَعنى ثَدْىَ الحَيَا[٩]، لقد جئت بالشهادة أوضح من لَبَّةِ[١٠] الصباح، وأسطع من لسان المصباح، ولقد كنت أُسِرُّ من التعبُّد له والشغف به، والأسف على تعاقب الموت دون لقائه. ما أنحلَ جسمى، ومكَّن سَقمى، وإذ قد أمكن البَوْحُ بالشكوى، فقد خفَّ ثِقْلُ البَلْوَى»

وتتوالى شهادة البنفسج والبهار[١١] والخيرىّ، ثم تعقد الأزهار العزم على كتابة عقد

---

(١) الذخيرة ٥٠٤/١ والمغرب ٨٩/١.
(٢) واضح أن بيض الأنوق مثل لبيان الاستحالة.
(٣) المشقر: حصن فى البحرين اشتهر صفاه أو صخره بشدة الصلابة، ويريد أن صديقه صفيق.
(٤) الغرب والنبع: شجر تتخذ منه السهام.
(٥) الدمن: جمع دمنة: الحقد
(٦) القلى: الكراهية.
(٧) الماء الزلال: العذب الصافى السلس.
(٨) الذخيرة ١٢٧/٢.
(٩) الحيا: المطر.
(١٠) اللبة: موضع القلادة من العنق.
(١١) زهر البهار أصفر ويشبه زهر النرجس.

بذلك ويكتبون رقعة بتحالف الرياحين جميعا على أنها أعطت للورد قيادها وملّكته أمرها، واعترفت بأنه أميرها المقدم لخصاله والمؤمَّر لسوابقه، وهى لذلك تلتزم له بالسمع والطاعة والرق والعبودية. وربما كنى بالورد عن أمله فى أن يكون وزيرا لابن جهور مفضلا له على كل من حوله. وقد طارت شهرة هذه الرسالة وحاكاها غير كاتب، وممن حاكوها معاصر ابن برد حبيب صاحب كتاب فصل الربيع وسنترجم له عما قليل، أما ابن برد فسنترجم له بين أصحاب الرسائل الأدبية.

ويكتظ كتاب الذخيرة لابن بسام بالرسائل الشخصية يدبِّجها كتاب الدواوين والوزراء والشعراء وينمقونها صورا مختلفة من التنميق، وممن روى له كثيرا من رسائله الشخصية أبو محمد بن عبد البر الذى ترجمنا له بين كتاب الرسائل الديوانية، وله رسائل كثيرة فى الشفاعات والوسائل والمودة وفى التهنئة والتعزية، من ذلك تعزيته لأب فى فتى له استشهد فى قتال أعداء الدين الحنيف، وفيها يقول [١]:

«كتبتُ عن قلب يقشعرُّ، ونَفْس بين ضلوعها لا تستقرّ، لخبر الرُّزْء الهاجم، والنبأ الشنيع الكالِم.. فيا لها حسرةً ما أنكاها[٢] للنفوس، وجمرةً ما أذْكاها[٣] فى القلوب. ورَوْعَةً ما أفتّها للأعْضاد، ولوعةً ما أحرَّها على الأكباد:

وما نحن إلا مثلُهم غيرَ أننا أقمنا قليلًا بعدهم وتقدَّمـوا

ولقد خرج من بيته مجاهدا، وعن حِمَى الدين ذَائدا، فوقع أجره على الله.. وأنت الطَّوْدُ الموفى[٤] على كل هَضْبة، المعلَّى على كل فَرْحة وكَرْبة. واللّهَ - يا سيدى - فى نفسك العزيزة أن يكون فيها كامنُ رزْءٍ[٥] يَقْدح، أو أن يُوهِنَ منها باطن أسًى يَفْدَح»

وكان يعاصر أبا محمد ابنُ حيان مؤرخ الأندلس الكبير المتوفى سنة ٤٦٩ وقد ترجم له ابن بسام ترجمة ضافية، وسنترجم له فى غير هذا الموضع، وروى ابن بسام له رسائل شخصية بديعة، وفى إحداها يقول مهنئا بعض العمال بخلاصه من نكبته[٦]:

«كتابى عن نفسٍ قد أشرق وجْهُ صباحها، وهبَّت رياحُ ارتياحها، بما طلع علينا من

---

(١) الذخيرة ٣/٢١٩.
(٢) ما أنكاها: ما أنكأها أى ما أشد جرحها وألمها.
(٣) ما أذكاها: ما أحرّها.
(٤) الموفى: المشرف.
(٥) رزء: مصيبة.
(٦) الذخيرة ١/٥٨٤.

البشائر السارَّة بخلاصك، وجميل انفكاكك، على حين بلغتْ قلوبُ الأوِدَّاء الحناجرَ، وكادت مواردُ الحزن لا تكون لها مصادر، فإن الأيام عمَّت فيك، بإساءتها إليك، كلَّ مُنْتَسِبٍ إلى فضل، مُتَّسِم باسم نُبْل، وإن كانت قد أصابتْ فيك سَوادَ ناظرها الذى تُضيء به وتتجمَّل، وسَخَتْ منك بحَلْيِ جيدها الذى يحقُّ به أن تبخل.. وقد صادفتْ منك الإبْرِيزَ[١] الذى لا يزيده السَّبْك إلا تمحيصا، والمبرِّز الذى لا يُعْقبه تحوُّل الأحوالُ نكوصا، تتلقى الخطوب بصَدْرٍ وَساعٍ،[٢] وصَبْر منفسح الباع، وتَسْبُر[٣] الدهر بمِسْباره، وتعرف من مكنونه حقيقةَ إيراده وإصْداره».

ونلتقى بابن الدباغ كاتب المقتدر بن هود أمير سرقسطة، وسنخصه بكلمة، وكان يكتب للمقتدر أيضا أبو عمر[٤] الباجى المتوفى سنة ٤٧٥ وروى له ابن بسام رسالة على لسان زهر البَهار وجَّه بها إلى المقتدر بن هود مزدلفا إليه آملا أن تكون له الحظوة الكبرى بين كتابه ووزرائه كما للبهار بين نواوير الربيع وفيها يقول[٥].

«أطال الله بقاء المقتدر مولاى وسيدى ومُعْلِى حالى ومقيم أوَدِى[٦]، وأعاذنى من خَيْبة العناء، وعَصَمنى معه من إخفاق الرَّجاء، ولا أشمتَ بى عدوا من الرياض يناصبنى[٧]، وحاسدا من النواوير يراقبنى، وقد علم الوَرْدُ موقع إمارتى، وغَنِيَ بلطيفِ إيمائى عن عبارتى.. وقد أتيت فى أوانى، وحضرت وغاب أقرانى، ولم أُخْلِ من خدمتك رتبتى ومكانى.. فهل لمولاى أن يُحْسن إلىّ صَنيعا، ويكرم النَّوْرَ جميعا، ويُدْنينى فأَرْقَى إلى أختى الثُّرَيَّا سريعا، فى مجلس قد أخلصتْه سحائبه، وأَفْرغتِ الحسن عليه والطيب ضَرائبه[٨]، وَجْهُكَ بَدْره، وغُرَّتك فَجْره، وأخلاقك زَهْره، وثناؤك دُرُّه وعِطْرُه»

والباجى يجعل البهار فوق الورد وجميع الأزهار مصورا بلسانه مطامحه فى التقدم عند المقتدر فى مجالس تدبيره وأنسه على جميع كتابه ووزرائه. ولمواطنه كاتب المقتدر حَسْداى[٩] – وكان يهوديا وأسلم وحسن إسلامه – رسالة مماثلة كتب بها إلى المقتدر على

---

(١) الإبريز: الذهب الخالص.
(٢) وساع: متسع.
(٣) تسبر: تختبر. مسبار: آلة الاختبار.
(٤) انظر ترجمة الباجى فى القلائد ١٠٢ والذخيرة ١٨٦/٢ والخريدة ٣١٣/٢ والمغرب ٤٠٥/١.
(٥) الذخيرة: ١٩٤/٢.
(٦) أودى: اعوجاجى.
(٧) يناصبنى: يفادينى.
(٨) ضرائبه: طبائعه وسجاياه.
(٩) راجع ترجمته فى القلائد ١٨٣ والذخيرة ٤٥٧/٣ والخريدة ٤٨/٢ والمغرب ٤٤١/٢.

لسان النرجس[١]

ومن شعراء العصر الذين عنى ابن بسام برواية طائفة من رسائلهم الشخصية البديعة ابن الحداد الذى مضت ترجمته بين أفذاذ الشعراء فى العصر، وتنم رسائله عن أنه كان مثقفا ثقافة واسعة بالآداب العربية ومايطوى فيها من أعلام وأمثال وأشعار، وبعلوم الأوائل ومايطوى فيها من فلسفة وغير فلسفة، ومن طريف رسائله فى الشكر والإخاء[٢]:

«يا سيدى الذى هو قَسِيمُ ذاتى إن تحققت الذَّوات والنَّحائز[٣]، وشقيقُ نفسى إن تبيَّنت الخلائق والغرائز، ومن أبقاه الله بقاءَ الفَرْقَدَيْن[٤] فى تدبير السَّعْدَيْن. بيننا من التحام المِقة[٥]، واستحكام الثِّقة، ما أَرْبَأُ[٦] به عن تضمين الصَّحائف، ولو قُدَّتْ من السَّوالف[٧]، وأنزِّهه عن اشتمال المِداد، ولو كان من دم الفؤاد، فصفاؤنا شمسىّ النَّقاء، ووفاؤنا فَلكىّ البقاء، ولا تُضَمَّن الطروس، إلا ما لحقه الدروس. وكتابى هذا إثْر إتحافك لى بكتابين كالنَّيِّرَيْنِ، فإن كان القمر ويُوح[٨]، لإنارة اللُّوح، فهذان، لجلاء الأذهان».

ومن الكتاب المبدعين أبو عبد الرحمن بن طاهر، وسنخصه بكلمة، وكان يعاصره أبو الحسين[٩] سراج بن عبد الملك بن سراج اللغوى الفقيه الكاتب المتوفى سنة ٥٠٨ وله رسالة طريفة بناها على الدعابة فى الشفاعة لشخص يسمى بالزريزير مستغلا اتفاق اسمه مع اسم طائر الزُّرْزور على هذا النمط[١٠]:

«يَصِلُ بالكتاب - وصلَ الله عُلُوَّك، وكَبَتَ عدوَّك - شَخْصٌ من الطيور يُعْرَفُ بالزُّرَيْزير أقام لدينا أيام التَّحْسِير[١١]، وزمانَ التبلغ بالشَّكير[١٢]، فلما وافى رِيشُهُ، ونبتْ بأفراخه عُشُوشُه، أَزْمَع عنا قُطوعا[١٣]، وعلى ذلك الأفق اللَّدْن تدلِّيًا ووُقوعا، رجاء أن

---

(١) الذخيرة ٣/٤٧٠.
(٢) الذخيرة ١/٧٠٤.
(٣) النحائز: الطبائع.
(٤) الفرقدان: نجمان قريبان من القطب.
(٥) المقة: المحبة.
(٦) أربأ به: أنزهه.
(٧) السوالف جمع سالفة: جانب العنق.
(٨) النيران: الشمس والقمر يوح: الشمس. اللوح: الهواء بين السماء والأرض.
(٩) انظر ترجمته فى الذخيرة ١/٨٢١ والمغرب ١/١١٦ والصلة ٢٢٢ والمطرب ١٢٣ والخريدة ٢/٤٨٤ ومعجم الأدباء ١١/١٨١.
(١٠) الذخيرة ٢/٣٤٧.
(١١) التحسير: سقوط الريش العتيق.
(١٢) الشكير: صغار الريش. التبلغ: الاكتفاء.
(١٣) قطوعا: طيرانا.

يَلْقَى فى تلك البساتين مَعْمَرًا[١] وعلى تلك الغصون حَبًّا وثمرا، وأنت بجميل تأتِّيك، وكرم معاليكِ، تصنع له هنالك وُكُونا[٢]، وتستمع من نغم شكره على ذلك أغاريدَ ولُحونا، دون أن يلتقط فى فنائك حَبَّة، أو يَسْترط[٣] من مائك نُغْبَة[٤]».

وطارت الرسالة فى الأندلس وحاول غير أديب محاكاتها لِمَا فيها من دعابة مستملحة، إذ صور سراج ما كان فيه هذا الشخص من ضيق جعله يلتمس منه الشفاعة لصاحبه بالزرزور حين ينحسر عنه ريشه العتيق ولا يبقى له إلا الريش القصير، حتى إذا كثر ريشه صمم على القطوع أو الرحيل آملا أن ينزل على أفق هذا الجواد ويجد عنده منزلا وحبًّا وثمرا ووكونا أو عشوشا يأوى إليها متغنيا بالثناء عليه. وينصحه أن لا يجد فى فنائه حبَّة يلتقطها ولا جَرْعة ماء تبلّ ريقه. وممن حاول محاكاة سراج بن عبد الملك فى هذه الدعابة الطريفة أبو بكر عبد[٥] العزيز بن القَبْطورْنة كاتب على بن يوسف بن تاشفين المتوفى حوالى سنة ٥٢٠ للهجرة، ومن قوله فى رسالته [٦]:

«يصل بكتابى - وصل الله سعودك - من الطير نَطَّاق، من غير ذوات الأَطْواق[٧].. مهَّدته العَذَارى الحجُور، وألْحَفَتْه الشعور، وربَّته بين التَّرائب والنُّحور، وعَلَّلته بالرُّضاب[٨]، وسقته بأفواهها العِذاب، أقام عندنا زمانا، لا يتألف إلا رَنْدا[٩] أو بَانا، يتدرَّج فى البساتين، يتطلب العِنَب المُنْتَقَى والتِّين، فذكرت له يوما والحديث ذو شُجون، أرضَك المَيْثاء[١٠] ذات الشجر والعيون، فصفَّق جَناحا، واهتزَّ ارتياحا، وسألنى إلى مَجْدك كتابا فأَنْلتُه ما ابتغى، وقلت: سلمتَ أخا البَبَّغا، وبُلِّغْتَ المَدَى، وجُنِّبْتَ من حَزَّةِ المُدَى[١١] وأخذ الكتاب بِمنقار، وصفَّق بريش الجناحين سُرورا وطار، وأنت بسيادتك تَبْسُطُ له فى بساتينك، وتَفْرِشُ له من وردك وياسمينك»

وكان يعاصر ابن القبطورنة أبا القاسم بن الجد، وسنخصه بكلمة، وعاصرهما ابن عبدون الشاعر الفذ الذى ترجمنا له بين شعراء الرثاء، وقد عمل فى دواوين المتوكل

---

(١) معمرا: منزلا.
(٢) وكونا جمع وكن: عش الطائر.
(٣) يسترط: يبتلع.
(٤) نغبة: جرعة.
(٥) راجع ترجمته فى الذخيرة ٧٥٣/٢ والمغرب ٣٦٧/١ والتكملة رقم ١٧٤٣ والقلائد ١٤٨.
(٦) الذخيرة ٧٥٨/٢.
(٧) ذوات الأطواق: الحمام.
(٨) الرضاب: الريق المرشوف والعسل.
(٩) الرند: شجر طيب الرائحة. البان: شجر يشبّه به الحسان فى الطول واللين.
(١٠) الميثاء: اللينة الطيبة.
(١١) المدى، جمع مدية: السكين.

ببطليوس ثم فى دواوين المرابطين، وله رسائل يخطب فيها ودّ أبى القاسم بن الجد، وفى إحداها يقول[١]: .

«إن تعذَّر لِقاء، فقد انتشر ثَناء، امتلأت الأرضُ منه والسماء، ووَصْفٌ عزَّ الأوصافَ وغَلبها، وهزَّ الأعْطاف وجَذَبها، وذِكْرٌ ملأ الآذان حُليًّا، والآنافَ رَيًّا[٢]، والأفواه أُرْيًا، ونُبلٌ جَلَتْ مطالعهُ دياجيَ الأوهام، ورَوَتْ مواقعهُ صَوادِيَ[٣] الأوهام.. ولله دهرٌ أطلعك أفقه، ووقتٌ وَسِعَك طَلَقُه[٤]، ما أكرمَ طبيعته، وأضخم دَسِيعَته[٥]، وأعبقَ فى الآناف شَمِيمَه، وأرقَّ على الأنفاس نَسِيمه.. وأنا أخطب إلى عِمادى - أدام الله عزَّته - مودَّتَه عقيلةً[٦]، وأجعل رَحِمى[٧]: الأدبَ والنسب وسيلة، وأبذل من تحلية حَمدى وشكرى مَهْرًا، وأبْنى لها بين سَحْرى ونَحرْى[٨] قَصْرا.. والله - جَلَّ وعلا - يُعيننى على فَرْضه أوْديه، وقَرْضِه أقْضيه».

وللأعمى التطيلى الشاعر معاصره رسالة عتاب بديعة لمن خدمه الزمان وأقبل عليه السلطان، وله يقول مترفعا عن بره وعونه: «إنى أبيت ظمآن، ولا أبيت خَزْيان، وأحتمل الحرمان، ولا أحتمل الهوان[٩]». وكان يعاصره ويعاصر ابن الجد ابنُ خفاجة شاعر الطبيعة المبدع الذى مرت ترجمته، وكما كان يبدع فى وصفها شعرا كان يبدع فى وصفها نثرا، وله من رسالة يصف نزهة مع بعض رفاقه غِبَّ مطر[١٠]:

«لما أكبَّ الغَمامُ إكْبابا، لم أجدْ معه إغْبابا[١١]، واتصل المطر اتصالا، لم أُلْفِ معه انفصالا، أذن الله تعالى للصَّحْو أن يُطْلِعَ صفْحته، وينشر صَحيفته، فقَشَعتِ الريحُ السحاب، كما طوى السجلُّ الكتاب، وطفقت السماءُ تخلع جِلْبابها، والشمس تحطُّ نِقابَها، وتطلَّعت الدنيا تبتهج كأنها عروس تَحَلَّتْ، وقد تَجلَّت، ذهبتُ فى لُمَّة من الإخوان نستبق إلى الراحة رَكْضَا، ونَطْوِي للتفرُّج أَرْضَا، وننشر أرضا، وتردَّدْنا بتلك الأباطح نتهادى[١٢] تهادىَ أغْصانها، ونتضاحك تضاحك أقْحَوانِها، وللنسيم، أثناء ذلك

---

(١) الذخيرة ٢/٦٧٠.
(٢) ريا: شذى.
(٣) صوادى: عطاش.
(٤) طلقه: شوطه.
(٥) دسيعته: طبيعته وشيمه.
(٦) العقيلة: السيدة الكريمة.
(٧) رحم: قرابة.
(٨) السحر: الرئة. النحر: أعلى الصدر.
(٩) الذخيرة ٢/٧٢٩.
(١٠) الذخيرة ٣/٥٤٣.
(١١) إغبابا: انقطاعا.
(١٢) نتهادى: نتمايل.

المنظر الوَسِيم، تراسلُ مَشْي، على بساط وَشْي، وأَجَلْنا النظر فى نهر صافى لجُينْ[١] الماء، كأنه مجرَّةُ السماء، مؤتلقِ جَوْهَرِ الحبَاب[٢]، كأنه من ثغور الأحباب. وحضرَنا مُسْمِعٌ[٣] يجرى مع النفوس لَطافة فهو يعلم غرضها وهواها، ويغنى لها مُقْتَرَحَها ومُنَاها:

يحرِّك - حين يَشْدُو - ساكناتٍ ويَبْتَعِثُ الطبائـعَ للسُّكونِ»

ولابن خفاجة - بجانب ذلك - رسائل فى التهادى وفى العتاب وفى الشفاعة، وفى التهانى وفى التعازى، وهى مبثوثة بترجمته فى الذخيرة، وله يتفجع على شهيد بإحدى رسائله[٤]:

«قَمَرُ فَضْلٍ سار إلى سِراره[٥]، ووُسْطَى عِقْدٍ أخذ فى انتثاره، وصَباح جَذَل[٦] أسرع فى انطوائه، ومصباح أمل عُجِّل بانطفائه، فقبحًا لدنيا قَصَفَتْه أنضر ما كان غُصْنا، وكَسَفَتْه أقْمر[٧] ما كان حسنا. وصار مفقودًا، كأنْ لم يكن مشهودا، ومَنْشُودا[٨] كأن لم يكن مَوْجودا. وقد وجدتُ لذلك وَجْدًا لا يسعه الصَّدْرُ، ولا يقاومه الصَّبْرُ، وأوارًا[٩] لا تَطْوِيه أحْناءُ الضلوع، ولا تُطْفئه أحْسَاءُ[١٠] الدموع. وكأنَّ كل ذلك لما انقضى، فمضى، خيال ألمَّ ثم تولَّى، وغمامٌ أظَلَّ ثم تَجَلَّى».

ومن معاصرى ابن خفاجة أبو عبد الله بن أبى الخصال أهم الكتاب فى دواوين المرابطين بأخرة من أيامهم، وتحتفظ المجلدات الثامن والتاسع والرابع عشر من صبح الأعشى بطائفة من رسائله الشخصية بين شكر وتهنئة بقدوم وتعاز فى وزير وبنت وأخ وزوجة وشفاعة ووصف لغيث بعد جدب وما أعقبه من تغنى الطيور فرحا بجمال الطبيعة وازديانها بروائع الأزهار من نرجس وغير نرجس، واحتفظ له ابن بسام بطائفة أخرى من رسائله فى ذخيرته، من بينها رسالتان وجَّه بهما إلى ابن بسام ردًّا على رسالة كان أرسلها إليه فى طلب بعض شعره ونثره ليضمنه الذخيرة، وهو فى أولاهما يعتذر عن تلبية طلبه فى تواضع جم إذ ليس له من الشعر والنثر - كما يقول - إلا ما يعد من سَقَط المتاع. ويبدو أن ابن بسام ألح عليه فى الطلب فاضطر أن يلبيه بقليل من شعره قائلا إنه

---

(١) اللجين: الفضة.
(٢) الحباب: الفقاقيع تلمع فوق سطح الماء.
(٣) مسمع: مغن.
(٤) الذخيرة ٣/٥٥٧.
(٥) السرار: آخر ليلة فى الشهر.
(٦) جذل: سرور.
(٧) أقمر: أضوأ.
(٨) منشودا: مطلوبا.
(٩) الأوار: حر النار.
(١٠) أحساء هنا: ينابيع.

يربأ بقدر الذخيرة عن مثل هذه النتف الأخيرة، ويعتذر بأنه يخط ما خطه من هذا الشعر فى ليلة قاسية البرد، ويمضى فى تصويرها قائلا[١]:

«إنى خططتُ والنوم مُغازل، والقُرُّ مُنازل، والرِّيح تلعب بالسِّراج، وتصول عليه صَوْلة الحجّاج[٢]، فطَوْرًا تسدِّده سِنانا، وتارة تُحَرِّكه لِسانا، وآونةً تطويه حَبابَة[٣]، وأخرى تنشره ذُؤابَة، وتقيمه إبرة لَهَبٍ، وتعطفه بُرَة ذَهَبٍ، أو حُمَة[٤] عَقْرب، وتقوِّسُه حاجبَ فتاة، ذات غمزات، وتستلُّ روحه من ذُباله، وتعيده إلى حاله، وربما نصبتْه أُذُن جواد أو مسَخَتْه حَدَق[٥] جَراد.. فلا حظَّ منه للعَيْن، ولا هداية فى الطَّرْسِ لليدَيْن، والليلُ زنجىُّ[٦] الأدِيم تِبْرِىّ[٧] النجوم، قد جَلَّلَنا سَاجُه[٨]، وأغرقَتْنا أمواجه، ولو نظرتْ فيه الزرقاء[٩] لاكتحلتْ، أو خُضبت به الشَّبيبة لما نَصَلتْ[١٠]، والكلبُ قد صافح خَيْشومُه ذنبَهُ، وأنكر البيتَ وطُنُبَه،[١١] والتوى التواء الحُباب[١٢]، واستدار استدارة الحَباب، وجَلَده الجليد، وضَرَبه الضَّريب[١٣]، وصعَّد أنفاسه الصَّعِيد،[١٤] فحِماه مباح، ولا هريرَ ولا نُباح، والنار كالصديق أو كالرَّحِيق[١٥]، كلاهما عنقاءُ مُغْرِب[١٦]، أو نجمٌ مغرِب».

والرسالة وصف شعرى بديع لهذه الليلة من ليالى الشتاء الباردة بردا شديدا فى الأندلس والرياح تقصف، والليل داج معتم، والسراج تقبضه الريح وتبسطه، وقد يضيىء ويستعرض، وقد يتضاءل حتى يصبح إبرة أوبُرَة، وقد يستطيل حتى كأنه سنان أو لسان، وقد يتقوس حتى كأنه حاجب أو يتلوَّى كأنه عقرب. ويستمر ابن أبى الخصال فى وصف الليلة الباردة وما أضفى عليها من أخيلته الرائعة. وليستتم صورة بردها الشديد وصف كلبا مقرورا مدَّ عليه الثلج رواقه، حتى لم يعد يبصر طنب بيته والتف ذنبه على خيشومه

---

(١) الذخيرة ٣/٧٩٢.

(٢) يريد الحجاج الثقفى وفتكاته بأعدائه.

(٣) حبابة: فقاعة الماء.

(٤) البُرَة: الحلقة توضع فى أنف البعير، وبها شبَّه الكاتب لسان الشمعة. حمة العقرب: إبرته.

(٥) أذن جواد أى مستعرضا مثلها. حدق جراد أى ضئيلا كنقطة مداد.

(٦) زنجى الأديم: أسود الجلد.

(٧) تبرى: ذهبى.

(٨) جللنا: غطانا. الساج: شجر خشبه شديد السواد.

(٩) زرقاء اليمامة: اشتهرت بحدة نظرها.

(١٠) نصلت: بهتت.

(١١) الطنب: الحبال تشد بها الخيمة والخباء.

(١٢) الحباب بالضم: الأفعى. وبالفتح: فقاقيع الماء.

(١٣) الضريب: الثلج.

(١٤) الصعيد: وجه الأرض.

(١٥) الرحيق: الصافى من الخمر والشراب.

(١٦) عنقاء مغرب: طائر خرافى.

أوخرطومه، وتقرفص وتكوَّم كالأفعوان، وكاد يتجمد، فحَشْوُ الجو من فوقه إبر من الثلج اللاسع، وأرضه قوارير من الجليد اللاذع، وجفَّ ريقه فى حلقه فلا هرير ولا نباح، ولا نار لمصطل، فالرياح العاصفة لها بالمرصاد حتى لكأنها الطائر الخرافى المسمى عنقاء مغرب.

ونمضى فى عصر الموحدين، ونلتقى فيه بصفوان بن إدريس المتوفى سنة ٥٩٨ المار ذكره بين شعراء الغزل والمدائح النبوية، وله من رسالة يهنئ بها أبا القاسم بن بقى حين تولّى خطة القضاة سنة ٥٩٢ وفيها يقول[١]:

«حُسْنُ الأيام وجمالُها، ومآل الآمال وثِمالُها[٢]، وبَصَرُ المعارف وسَمْعها، وواحدُ الفضائل وجمعها، أبو القاسم بن بقى بن مخلد، بُورِكَ فى والدٍ وما ولد:

نسبٌ كأن عليه من شمس الضُّحىَ نورًا ومن فَلَق الصَّباحِ عَمُودا

.. نفع الحقُّ به عِللَه، ونقَع غُلَلَه[٣].. عِمادى الأكرم، ومَلاذى الذى أنفخ من حَدِّه فى ضَرَم[٤]، وأحلّ من الاختصاص به محلٍ الحرَم، تخيرَّتُ عُلاه ومن أخْصَبَ تخيرَّ وما كنت إلا كالغريب ارتاد الجِوار، والمحلى انتقى المِعْصَم حين صاغ السِّوار.. والله - تعالى - يديم مدةَ قاضى الجماعة الأسْرَى[٥]، وكَلِمُ حَمدِه أسْيَرُ من الأمثال وأسْرَى[٦]، ونِعمُ الله سبحانه عليه تَتْرَى، وما يريه من نعمة إلا هى أكبر من الأخرى». والتورية واضحة بين الأسرى وأسرى، وهى تكثر فى نثر الأندلس وشعرها منذ هذا التاريخ.

ولسهل بن مالك - بأخرة من عصر الموحدين - رسائل شخصية بديعة، وسنخصه بكلمة، ولأبى عبد الله بن الجنان المترجم له بين شعراء المدائح النبوية من رسالة يعزى بها أبناء سهل حين توفى استهلها بقصيدة أو بمرثية طويلة وفيها يقول[٧]:

«يا له حادثًا، جمع قديمًا من الكُروب وحادثا، ومُصابا، جرَّع أوْصَابا، وأضحى كلٌّ به مُصابا، لا جرم أنى شربت من كأسه مُسْتفظَعَها، وشَرِقْتُ[٨] بها وبدمعى الذى ارفضَّ[٩] معها، فغالتْ خَلَدى، وغالبتْ جَلَدى، حتى غبتُ عنى، ولم أدر بآلامى التى تُعنى.

---

(١) بقية السفر الرابع من كتاب الذيل والتكملة تحقيق د. إحسان عباس ص ١٤١.
(٢) ثمالها: ملجأها.
(٣) نقع غلله: شفاه.
(٤) ضرم: وقود النار.
(٥) الأسرى: الأشرف.
(٦) أسرى: أسير ليلا.
(٧) بقية السفر الرابع المار آنفا ص ١١٥.
(٨) شرقت: غصصت.
(٩) ارفض: تفرق وتبدد.

وبكيتُ حتى خشيت البكاء أنْ يُعْشِينِى[١]، وغُشيت[٢] إذ غَشِيَنى[٣] من ذلك اليَمُّ[٤] ما غَشِيَنى، «وظَلِلْتُ لَقىً[٥] أينما شاء التَّرَحُ يلقينى، فتارة يُفْنينى، وتارة يُبْقِينى.. ويا ليت شعرى إذ أفادوا الماء طهارةً زائدة بغسل جلاله، هل حنَّطوه بغير ثنائه أو كفَّنوه فى غير خِلاله، ويا ليت شعرى إذ استقلَّ به نَعْشُه الأشرف، تُرَفْرِف عليه الملائكةُ ويظلُّه الرَّفْرَف، هل رأوا قبله حَمْلَ الأطْواد[٦]، على الأعواد، وسير الكواكب فى مثل تلك المواكب، ولِمَ آثروا على نفوسهم، ورضوا الأرض مغربا لأنوار شموسهم؟ هلا حفروا له بين أحناء الضلوع، وجعلوا الصَّفِيح ضَرِيحَ الحب والولوع.. وهب الله لكم فى مُصابكم صبرا على قَدْره، وسكب دِيَم مغفرته على مَثْوَى فقيدكم وقبره».

وأخذ الكتَّاب فى الأندلس منذ القرن السابع الهجرى على لسان أبى المطرف بن عميرة الذى ترجمنا له بين كتاب الدواوين وغيره يتصنعون فى كتاباتهم بإلماعات وإشارات إلى الأمثال وإلى مسائل العلوم ومصطلحاتها على نحو ما نقرأ من رسالة لأبى المطرف حين أعلمه صديق نبأ استيلاء الروم على بلنسية، فقال متحسرا[٧]:

«بالله أىَّ نَحْوٍ نَنْحو، أو مَسْطور نُثْبت أو نَمْحو، وقد حُذف الأصل والزائد، وذَهبت الصِّلَة والعائد.. وذهبت علامةُ الرفع، وفُقِدت نون الجمع، والمعتلّ أعْدَى الصحيح، والمثلَّث أرْدَى الفصيح.. ومالت قواعدُ الملَّة، وصِرْنا جمع القِلَّة، وظهرتْ علامةُ الخَفْض، وجاء بَدَلُ الكل من البَعْض».

وواضح أنه استغل مصطلحات النحو استغلالا واسعا فى التورية عما أراد من تصوير بؤس الأندلسيين إزاء ما يسقط من بلدانهم فى حجر نصارى الإسبان، وأضاف إلى التوريات بمصطلحات النحو توريات ببعض كتب الأندلسيين، وأقصد كتابى الصلة والعائد وهما من كتب التراجم ومن مصطلحات النحو أيضا وأشار معهما إلى تغلب المسيحى على العربى بكلمتى المثلث والفصيح موريا بهما عن كتابين لغويين هما مثلث قطرب وفصيح ثعلب، ومعروف أن من أنواع البدل عند النحاة بدل الكل من البعض. وبجانب هذه الإشارات والإلماعات إلى مصطلحات العلوم وكتبها التى يحاكون بها تملحا

---

(١) يعشينى: يعمينى البكاء.
(٢) غشيت: أغمى على.
(٣) غشينى: غطانى وحوانى..
(٤) اليم: البحر يريد بحر الحزن.
(٥) لقى: مطروحا مهملا.
(٦) الأطواد: الجبال.
(٧) الإحاطة ١/١٧٣.

أبا العلاء المعرى فى نثره وشعره على نحو ما أوضحنا ذلك عنه فى كتابينا عن الفن ومذاهبه فى الشعر والنثر العربيين. وأخذت تشيع فى الرسائل مع المحسنات البديعية - وخاصة التورية - عقد يصعِّب بها الكتَّاب الممرات إلى صنع الرسائل، على نحو ما صنع المشارقة من ذلك منذ الحريرى صاحب المقامات، إذ كان يلتزم فى بعضها أن تكون كلماتها غير منقوطة أو تكون إحدى الكلمات منقوطة وتاليتها غير منقوطة، وكثر مثل ذلك عند المشارقة كما كثر أن يُلْتَزم حرف بعينه فى كلمات الرسالة أو كلمات العهد على نحو ما صنع ابن الجنَّان إذ التزم فى عهد أن يكون السجع فيه جميعه حاء مع إردافها بالألف مثل صلاحا، فلاحا[١]. والتزم فى رسالة له العينَ فى جميع ألفاظها، ويقول ابن عبد الملك المراكشى إنها «شاعت فى الأندلس، وتنوقلت شرقا وغربا» وراجعه أبو الحسين الرُّعَيْنى برسالة مماثلة، وردَّ عليه ابن الجنَّان أيضا برسالة على غرارها، مما دفع أبا المطرف بن عميرة أن يكتب إلى الرعينى برسالة نونية ملتزما النون فى جميع كلماتها[٢]. ومن الحق أن كتاب الأندلس كانوا من البراعة فى الكتابة بحيث كانت رسائلهم تسع هذا التصنع وما يشاكله دون أن يجور على إبداعاتهم الأدبية وحيويتها النافذة بما كانت تتوهج به دائما من سجع ومحسنات وتصاوير رائعة مع العناية دائما بجمال الجرس وحسن الأداء. وظل ذلك ماثلا فى كتابات الكتَّاب بغرناطة طوال إمارتها من أواسط القرن السابع الهجرى إلى أن خرج منها العرب بأخرة من القرن التاسع، ويزخر كتاب الإحاطة بكثير من الرسائل الشخصية للكتاب الغرناطيين وفى مقدمتهم ابن الخطيب مؤلفه، وقد ختمه برسالتين راسل بهما ابن خلدون صديقه، واحتفظ ابن خلدون له بطائفة من رسائله إليه فى كتابه «التعريف» وفى إحداها يرحب بمقدمه إلى غرناطة قائلا[٣]:

«لو خُيِّرْتُ أيها الحبيبُ الذى زيارتُه الأمنيَّةَ السنيَّة والعارفةَ الوارفة[٤]، واللطيفة المُطِيفة، بين رَجْع الشباب يقطرُ ماء، ويَرِفُّ نَماء، ويغازل عيونَ الكواكب فضلا عن الكواعب إشارةً وإيماء.. وبين قدومك لما اخترتَ الشباب وإن شاقنى زمنُه وأجرتْ سحابَ دمعى دِمَنُه[٥]، فالحمد لله الذى رَقَى جنون اغترابى، وملَّكنى أزمَّة آرابى»

وكانت بينهما مودة وثيقة، وآن أن نترجم لبعض كتاب الرسائل الشخصية المبدعين: حبيب وابن الدباغ وأبى عبد الرحمن بن طاهر وأبى القاسم بن الجد وسهل بن مالك.

---

(١) الإحاطة ٢/٣٥٢ - ٣٥٣.

(٢) انظر فى هذه الرسائل المراكشى (تحقيق د. إحسان عباس) ٥/٣٢٧ وما بعدها.

(٣) التعريف بابن خلدون ص ٨٢ وما بعدها.

(٤) العارفة: العطية. الوارفة: الواسعة المبهجة.

(٥) الدمن: آثار الديار، والاستعارة واضحة.

حبيب[١]

هو أبو الوليد إسماعيل بن محمد الملقب بحبيب، من أهل إشبيلية، كانت له ولأبيه قدم فى الرياسة عند المعتضد أميرها، ولقبه الضبى بالوزير الكاتب، وقال فيه ابن بسام: «كان سديد سهم المقال، بعيد شأوِ الرويَّة والارتجال.. ولو تحاماه صرف الدهر، وامتد به قليلا طَلَقُ[٢] العمر، لسدَّ طريق الصباح، وغبَّر فى وجوه الرياح، إذ توفى ابن اثنتين وعشرين سنة» وانفرد ابن سعيد بقوله إن المعتضد قتله، والراجح أنه توفى شابا معتبطًا بغير علة قريبا من سنة ٤٤٠ للهجرة، وكان - كما يقول ابن الأبار - آية فى الذكاء والفهم والبلاغة وتجويد الشعر على حداثة سنه. وله كتاب البديع فى وصف الربيع جمع فيه أشعار أهل الأندلس خاصة فى الربيع ومشاهده وأزهاره ورياحينه، قال فى فاتحته:

«فَصْلُ الربيع آرَجُ وأَبْهجُ، وآنَسُ، وأَنْفس، وأَبْدع، وأَرْفع، من أن أَحُدَّ حُسْنَ ذاته، وأعدَّ بديع صفاته.. وهو مع صفاته الرائقة، وسِماته الشَّائقة، وآلائه الفائقة، لم يُعْنَ بتأليفه أحد، ولا انفرد بتصنيفه منفرد».

وقد جمع حبيب فى كتابه أروع ما للأندلسيين فى وصف الربيع سواء ما نظموه فيه خاصة وما أودعوه مقدمات مدائحهم، وأضاف إلى ذلك بعض ما كتبوا فيه رسائلهم من وصف الأزهار، وأشاد برسالة ابن برد إلى أبى الوليد بن جهور وما بثه من حوار فيها بين خمسة نواوير هى الورد والنرجس الأصفر والبنفسج والبهَار والخِيرىّ النام واعتراف النواوير الأخيرة بفضل الورد وكتابتها عهدا أو وثيقة بذلك على نحو ما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع. وأردف حبيب رسالة ابن برد برسالته إلى المعتضد حاكاه فيها مفضلا البهار على الورد مع وصفه لسبعة من نواوير الربيع، وهو يستهل رسالته بإنكاره لتفضيل ابن برد الورد عليها فى رسالته، يقول:

«أولُ من رأى ذلك الكتاب (رسالة ابن برد فى تفضيل الورد) وعاين الخطاب، نواويرُ فصل الربيع التى هى جِيرةُ الوَرْد فى الوطن، وصَحابتُه فى الزمن، ولما قرأته

---

(١) انظر فى ترجمة حبيب الذخيرة ١٢٤/٢ والجذوة ١٥٢ والبغية رقم ٥٣٤ والتكملة (البقية الجديدة) ص ٢١٩ والمغرب ٢٥٠/١. وراجع كتابه: «البديع فى وصف الربيع بتحقيق هنرى بيريس طبع الرباط سنة ١٩٤٠. وطبع فى السعودية بتحقيق د. عبد الله عسيلان.

(٢) طلق: شوط.

أنكرتْ ما فيه، وبَنَتْ على هَدَّم مبانيه، ونَقْض معانيه، وعرَّفت الورد بما عليه، فيما نُسِب إليه.. وكتبت إلى الأُقْحُوانِ والخِيرِيِّ الأصفر كتابا قالت فيه: لا ندرى لأى شىء أَوْجبت الأزهار تَقْديمه، بما غَيْرُهُ أَشْكَلُ له وأحقُّ به وهو نَوْرُ البَهار، البادى فَضْلُه بُدُوَّ النهار، والذى لم يزل عند علماء الشعراء، وحكماء البلغاء، مشبَّها بالعيون التى لا يَحُول نظرها، ولا يَحُور حَوَرُها، وأفضل تشبيه للورد، بنضرة الخَدّ، عند من تشيَّع فيه، وأشرفُ الحواسِّ العَيْنُ، إذ هى على كل منوَّلٍ عَوْن، وليس الخدُّ حاسَّةً، فكيف تبلغه رئاسة:

أين الخدودُ من العيونِ نَفاسَةً ورِئاسةً لولا القياسُ الفاسِدُ»

واستمر حبيب فى هذه الرسالة طويلا، وختمها بمبايعة الأزهار للبَهار بتفضيله على الورد. وله من رسالة إلى أبيه:

«لما خُلق الرَّبيعُ من أخلاقك الغُرِّ، وسَرقَ زَهْرَه من شِيَمك الزُّهْر، حَسُنَ فى كل عين منظرُه، وطاب فى كل سمع خَبَرُه، وتاقت النفوسُ إلى الراحة فيه، ومالتْ إلى الإشراف على بعض ما يَحْتويه من النَّوْر الذى كسَا الأرضَ حُلَلا، لا يرى الناظر فى أثنائها خللا، فكأنها نجومٌ نُشِرتْ على الثَّرَى، وقد مُلئت مِسْكًا وعَنْبرا، إن تنسَّمتهَا فأرِجَة، أو توسَّمتها فبَهِجَة، تروق العيونَ أجناسُها، وتُحْيى النفوسَ أنفاسُها.. فأوجدْ لى سبيلا إلى إعمال بصرى فيها، لأجلوَ بَصِيرتى بمحاسن نواحيها، فالنفوس تَصْدَأُ كما يَصْدَأُ الحديد، ومَنْ أَجَمَّها[1] فهو السَّديد الرشيد».

وواضح فى الرسالة لطف الابن لأبيه، مع حسن تأتِّيه وجمال وصفه للربيع وشغفه بمشاهد نواويره البديعة. وله من رسالة إلى بعض إخوانه يستدعيه للمتعة معه والأنس به فى منظر فاتن من مناظر الربيع، يقول:

«قد علم سيدى أن بمرآه يكمل جَذَلِى، ويدنو أَمَلِى، وقد حللتُ محلًّا عُنِىَ الجوّ بتحسينه، وانفرد الربيع بتحْصِينه، فكساه حُلَلًا من الأَنْوار، بها يَنْجلى صَدَأُ البصائر والأبصار، فمن مَكْمومٍ[2] يَعْبَقُ مِسْكُه، ولا يمنعه مَسْكه، ومن بادٍ يروق مُجْتَلاه، ويفوق مُجْتَباه، فى مرآه ورَيَّاه، فتفضَّلْ بالخفوف[3] نحوى لنجدِّد من الأنس مَغَانىَ[4] درستْ،

---

(١) أجمها: أراحها.
(٢) مكموم: أى زهر مستور فى كمِّه.
(٣) الخفوف: الإسراع.
(٤) مغانى: منازل. درست: عفت وذهب أثرها.

ونفكّ من السرور معانى أَشْكَلَتْ وأَلْبَسَتْ،[١] ونشكرَ للربيع، ما أرانا من البديع»

والرسالة كسابقتها جمالَ صياغة وحسنَ أداء ، وهى تصور - مثلها - تعلقه بالطبيعة فى أعيادها وأعراسها أيام الربيع، مما جعله يصنف فيه كتابه «البديع» متنقلا بين مشاهده وأزهاره ونواويره وما صاغ فيها هو وشعراء موطنه من أوصاف رائعة.

ابن[٢] الدباغ

هو أبو المطرف عبد الرحمن بن فاخر المعروف بابن الدباغ الوزير الكاتب، نشأ بسَرَقُسْطة، وعمل بدواوينها وقرَّبه المقتدر بن هود أميرها (٤٣٨ - ٤٧٥ هـ) حتى أصبح من وزرائه، وأحسَّ منه جفوة، وخشى أن يسطو به ويبطش، فخرج عنه، ونزل بالمعتمد بن عباد فى إشبيلية، فأجزل قِراه، وخصَّه بحظ من دنياه، وجعله مكان سرِّه ونجواه. وسفر بينه وبين المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس حين كان ببابُرة. وحدثت مشادة بينه وبين ابن عمار قرينه فى وزارة المعتمد، وبلغه أنه قُدح فيه بمجلس المعتمد، وخشى مغبّة ذلك، فلحق بالمتوكل أمير بطليوس فرحب به، ويبدو أنه لم يكن موطَّأ الكنف فى العشرة، إذ لم يلبث أن فسد ما بينه وبين وزير المتوكل أبى عبدالله بن أيمن، واشتعلت بينهما نار ملأ الأفق شعاعها، وأخذ بأعنان السماء - كما يقول ابن بسام - ارتفاعها، فكرَّ راجعا إلى سرقسطة، وبعد فترة قليلة قتل ببستان من بساتينها.

ويبدو أن ابن الدباغ كان شديد الضجر بالناس كثير الظنون بهم أو قل سيئ الظنون، فنبا به مقامه عند المقتدر بن هود ثم عند المعتمد والمتوكل بن الأفطس، وربما دفعه إلى ذلك تشاؤم شديد جُبلت عليه نفسه. وهو من كتاب عصر أمراء الطوائف النابهين، وفيه يقول ابن بسام: «فيما انتخبته من نظمه ونثره ما يشهد بفضله، ويدل على نبله». ومضى ابن بسام يعرض طرائف من رسائله امتدت إلى نحو ستين صحيفة، جميعها غُرر ودُرر، وأكثرها فى ذم الزمان ومعاصريه وتعذر آماله فيه، من ذلك قوله فى بعض رسائله:

«كتابى وعندى من الدهر ما يهدُّ أَيْسَرُهُ الرَّوَاسِىَ، ويفتِّت الحجرَ القاسىَ.. ومن أقلِّها قَلْبٌ محاسنى مساوىَ، وأوليائى أعادىَ، وقَصْدى بالبِغْضَةِ من جهة المِقَةِ[٣]،

(١) أشكلت وألبست: اشتبهت وانبهمت.

(٢) انظر فى ترجمة ابن الدباغ الذخيرة ٢٥١/٣ (قسم شعراء المغرب والأندلس - طبع الدار التونسية) ٣٨٧/٣ والقلائد ص ١٠٦ والمغرب ٤٤٠/٢ والخريدة

(٣) المقة: المحبة.

واعتمادى بالخيانة من حيث الثقة.. وقد غُيِّر علىَّ حتى شرابى، وأوحشنى حتى ثيابى، فها أنا أتهم عِيانى، وأَسْتَرِيبُ من بَيانى، وأجنى الإساءة من غَرْسِ إحسانى.. وما أصنع؟ وقد أبى القضاء إلا أن أقضى عمرى فى بوس ولا أنفك من نحوس.. لست أشكو إلا زمانى وقُعُودَه بجَدِّى[١]، وقبيحَ آثارِه عندى، يخصُّنى بمزية حِرْمان، ويتوخَّانى بِفَضْلَة عُدْوان، ويجعلنى نَصْبَ سَعْيه، وغرضَ رَمْيه، ومكان أذَايَته وبَغْيه.. ما أجد إلا من يَثْلِبُ، ولا أمرُّ إلا بمن يتجهَّم ويقطِّبُ.. وسبحان من جَعل الدنيا دارَ كرْبٍ ومِحْنة، لكل ذى لُبٍّ وفطنة، ومقام تنعُّم وترف، لكل ذى خِسَّةٍ ونَطَف[٢].. وما أظن أن لدُجَى حالى انْبلاجا، ولا لكَرْبَةِ نفسى انفراجا، ولا إخال غَمَرات الهمِّ تَنْجلى، ولا مُدَدَ النحوس تَنْقضى، ومَنْ كانت له من الدنيا حُظْوَة يصطفيها، ومكانة يستقر فيها، فليس لى منها إلا أن أرى كيف تنقسم رُتَبُها وتتناوَبُ، وتُتنازَع نِعَمُها وتتجاذَبُ، وتُغْتَنَمُ فوائدُها وتتناهَبُ، حتى كأنى جئت على العدد زائدا، ولم أكن عند القسمة شاهدا، وما أقول هذا قول ساخط، ولا أيأس من رحمة الله يأس قانط، ولكن ربما استراح العليلُ فى أنَّة، واستغاث المتوجع إلى رَنَّة[٣]، وخفَّف عن المصدور نَفْث[٤]، ونفَّس من وَجْد المكروب بَثّ[٥]».

[illegible] يطيل فى مثل ذلك صادرا عن قريحة أدبية خصبة، وكأنما سيول الكلام العذب تفد [illegible] كل صوب، وهو يختار أسل[illegible] الألفاظ وأحلاها فى الجريان على الألسنة ومصافحة الأسماع والقلوب، مما يصور براعة أدبية حقيقية، إذ يمتع دائما بألفاظه [illegible] الألسنة والآذان والأذهان. وله من تهنئة:

«قد كنتُ – أعزَّك الله – متمنيا لهذه الأيام، كما يُتَمنَّى فى المَحْل[٦] صَوْبُ الغمام، ومنتظِرًا لظهورك فيها، كانتظار النفس أَعْذَبَ أمانيها، ولما أطلعتْ طلائعَها السعودُ، واستمرَّ بك الارتقاءُ والصعودُ، قلت لنفسى بُشْراكِ، أَسْعَفَك الدهرُ بمناكِ، وسرَّك فى بعض أعِزَّتكِ وأرضاكِ، وأُذْنِى فى الإصْغاء، إلى ما يَطْرأ من الأنباء، وكلما قيل فَرَع[٧] من الجاه ذروة، واستجدَّ من العِزِّ كُسْوة، سَرَتِ العِزَّة فى خَلَدِى[٨]، وطالت[٩] على النُوَب يدى»

---

(١) جدى: حظى.

(٢) نطف: عيب.

(٣) رنة: صيحة.

(٤) نفثة المصدور: ما يخفف به عن صدره المريض.

(٥) البث: ما يبثه المكروب والمحزون تخفيفا عنه.

(٦) المحل: الجدب.

(٧) فرع: علا.

(٨) الخلد: البال والفكر.

(٩) طالت: غلبت وتفوقت.

وبهذا البيان الخلاب لانزال نقرأ فى رسائل ابن الدباغ معجبين، ونأسى لمصيره، وكان حريا بأحد الثلاثة: المقتدر بن هود والمعتمد بن عباد والمتوكل بن الأفطس أن يرفق به ويعرف له فضله ومنزلته الأدبية الرفيعة، فيُقيله من أوضار تشاؤمه وعثرات بؤسه بما يُسْدل عليه من صفو الحياة ورخاء العيش مما يبدِّل قنوطه من معاصريه رجاء ويأسه منهم أملا وخوفه ثقة واطمئنانا، غير أن أحدا منهم لم يحاول إنقاذه من محنته، بل جميعهم تركوه يتجرع غُصَصَ الضَّيْم والحرمان فى غير شفقة ولا رأفة.

أبو[1] عبد الرحمن بن طاهر

هو أبو عبد الرحمن محمد بن أحمد بن طاهر، من بيت ثراء وشرف وفضل بمدينة مرسية فى شرقى الأندلس، وهو بيت كان ينتمى إلى قبيلة قيس بن عيلان فى الجزيرة، وكان يعتز بقيسيته وعروبته. ولما انتثرت الأندلس وتوزعت بلدانها بأيدى أمراء الطوائف دعا أبوه أحمد بن طاهر لنفسه فى بلدته مرسية، فاجتمع أهلها على طاعته، وازدهر إقليم أهلها بجميل سيرته. وكان قد رُزق بابنه أبى عبد الرحمن محمد حوالى سنة ٤٢٠ للهجرة، وشبَّ فأعان أباه فى حكمه إلى أن توفى سنة ٤٥٥ فخلفه على مرسية، وانتهج سيرته، فاستقام له حكم أهلها، وكأنهم لم يفقدوا أباه. وكان من أهل العلم والأدب البارع إذ عنى أبوه بتربيته، وكان يتقدم أمراء الطوائف فى بلاغة الكتابة، وكانت رسائله متداولة لما تتميز به من حسن الأداء، ولابن بسام تأليف خصها به سماه «سلك الجواهر من ترسل ابن طاهر» وترجم له فى الذخيرة ترجمة ضافية.

وكان ابن طاهر جوادا ممدَّحا، ينتجعه الشعراء والأدباء فيجزل لهم العطاء، وانتجعه ابن عمار الذى مرت ترجمته بين الشعراء أيام خموله، فرحَّب به وأكرمه، وجزاه على إكرامه وترحيبه جزاء سنمَّار، إذ عرف فى مقامه بضيافته ضعف جنده وعورات بلده، فلما تطورت به الظروف، وأصبح وزيرا ومستشارا للمعتمد بن عباد أمير إشبيلية زيَّن له الاستيلاء من يد ابن طاهر على مرسية، وما زال يُغْريه بفتحها وأن ذلك لن يكلفه مئونة كبيرة حتى استجاب وأعدَّ له جيشا جرارا لفتحها، وفى طريقه إليها اتخذ قائدا لعسكره عبد الرحمن بن رشيق، ولم يلبث أن انتزعها من يد ابن طاهر سنة ٤٧١ وزجَّ به فى سجن

---

(١) انظر فى ترجمة أبى عبد الرحمن بن طاهر الذخيرة ٢٤/٣ - ١٠٣ والقلائد: ٥٨ والمغرب ٢٤٧/٢ وبغية الملتمس رقم ٢٣ والمعجب ١٨٠ والحلة السيراء ١١٦/٢ والذيل والتكملة للمراكشى ٥٩٠/٥ والخريدة ٣٦٣/٣ وأعمال الأعلام لابن الخطيب ٢٣٢.

بحصن قريب من مرسية يسمى «مُنْتْ أقوط» وسوَّلت له نفسه أن يخلع ولاءه للمعتمد ويستقل بمرسية، فسلَّط عليه قائده عبدالرحمن بن رشيق، فاستخلصها منه. وتوسط لديه أبو بكر بن عبد العزيز الوزير ببلنسية، كي يرد إلى ابن طاهر حريته، فردَّها عليه. وعاش ابن طاهر بقية حياته ببلنسية مبجَّلا معزَّزا، وشهد محنة المسلمين بها سنة ٤٨٧ على يد الفارس الإسباني المغامر السيد الكنبيطور، ووقع - بعد بلاء مبرور في حربه - بأسره، وافتدى وأطلق سراحه، ولم يبرح بلنسية إلى أن استردها المرابطون سنة ٤٩٥. ومدَّ له في البقاء إلى أن توفي ببلنسية سنة ٥٠٨ للهجرة.

وهذه الحياة الطويلة التي امتدت بابن طاهر إلى نحو تسعين عاما أمضى منها فترة معاونا لأبيه في حكم مرسية وفترة ثانية في حكمها وفترة ثالثة قصيرة معتقلا ثم فترة طويلة ببلنسية معززا موقّرا. وهذه الحياة المديدة أتاحت له أن تتكاثر المكاتبات بينه وبين أمراء الطوائف، يخطبون وداده، وهو تارة يثني ويشكر، وتارة يعاتب أو يشفع أو يعزي أو يهنِّئ، وقد اهتزَّ هزة عنيفة لأوائل حكمه مرسية حين نكل النورمانديون بأهل بربشتر في الشمال الشرقي لسرقسطة سنة ٤٥٦ وأنزلوا بهم مذبحة - كما مرَّ بنا - تقشعر لهولها الأبدان وسبوا منهم خمسة آلاف من النساء والعذارى وباعوهم في الأسواق بيع الإماء، وما إن علم بذلك حتى ضاقت به الأرض بما رحُبت، وأخذ يكتب لأقرانه كي يكيلوا للعدو الغاشم الصاع صاعين، ومن قوله في وصف هذا الحادث المروِّع:

«خطب أطار الألباب، وطأطأ الرقاب، وقطع الآمالَ والهمم، وأسلم من الذلَّة والقلَّة إلى ما قَصَم، فما شئت من دمع مسفوحٍ مُراقٍ، ونَفْسٍ مترددةٍ بين لَهاةٍ وتَراق[١]، وأسًى قد قرع حُصَيَّات القلوب فرضَّها[٢]، وعدل عن المضاجع بالجنوب فأقضَّها[٣]». ويقول من رسالة أخرى مستنفرا للجهاد:

«لِيَنْدُبِ الإسلامِ نادب، وليَبْكِ له شاهدٌ وغائب، فقد طُفِئَ مصباحُه، ووُطِئَ ساحُه، وقُصَّ جَناحُه، وهِيضَ[٤] عَضُدُهُ، وغِيضَ ثَمَدُهُ[٥]، إلى الله نَفْزَعُ، وإليه نَضْرَعُ، في طارق الخطب ومُنْتابه، ولا حول ولاَ قوة إلا به، فهو كاشفُ الكروب، وناصرُ المحروب».

---

(١) التراقي: جمع ترقوة: أعلى الصدر. اللهاة: أقصى سقف الحلق.

(٢) رضها: دقها.

(٣) أقضها: جعلها لا تريح النائم بجنبه فيها.

(٤) هيض: تحطم.

(٥) غيض ثمده: جفَّ ماؤه القليل.

وحين رُدَّت إليه حريته وأُطلق من معتقله بفضل وساطة أبى بكر بن عبد العزيز الوزير ببلنسية واستجاب إلى رغبته فى المقام عنده كتب وهو فى طريقه إليه رسالة يقول فى فصل منها:

«كتابى وقد طَفَلَ[١] العَشِيُّ، وسالَ بنا إليك المَطِيُّ[٢]، ولها من ذكرك حادٍ، ومن لُقْياك هادٍ، وسنوافيك المساء، ونَغْتفر للزمان ما قد أساء، ونَرِدُ ساحةَ الأمن، ونشكر عظيمَ ذلك المَنّ، فهذه النفس أنت مُقِيلها[٣]، وفى بَرْدِ ظِلِّك يكون مَقيلها[٤]، فللّه مجدُك وما تأتيه، لازلتَ للوفاء تُحْييه وتَحْويه»

وكانت فى ابن طاهر دعابة لم تفارقه حتى فى أيام محنته بالاعتقال، وله فى ذلك - كما يقول ابن بسام - عدة نوادر أحر من الجمر وأدمغ من الصخر، ويروى منها أن ابن أخت لعبد الرحمن بن رشيق كان ذا لحية طويلة، وطلعة ثقيلة، وقف عليه يوما فى اعتقاله، فجعل يتفجع له ويتوجع، ويتملّق معه ويتصنّع، فقال له ابن طاهر: خلاصى بيدك إن شئت، فإنك لو أخرجتنى فى لحيتك لتخلصت ولم يرنى أحد. وكتب إليه رجل يتزهد، وأطال الوعظ وردَّد، وهو يعرف أنه على الضِّدِّ من وعظه، فأجابه:

«ورد كتابك فوعظ وذكَّر، ونصح فبَصَّر، ونبَّه من سِنَةِ الغفلة، واغترار المُهْلة، وحذَّر من يوم النَّدامة، وبَعْثِ يوم القيامة، فيرحمك الله من هادٍ، وخائف مَعادٍ، ومبتغى إرشاد، وداعٍ إلى صلاح وسَداد، لقد حرَّكت أَنْفُسًا قاسِية، وهززتَ جَنْدَلَةً راسِية، ومِعْولُك دونها نابٍ، لا يؤثر فيها بِظُفْرٍ ولا ناب»

ودائما يسيل الكلام على لسان ابن طاهر فى خفة ورشاقة وعذوبة، وفى الذخيرة من ذلك بدائع وروائع يقول ابن بسام بعقبها: «أبو عبد الرحمن أكثر إحسانا، وقد وهب الطروس من ألفاظه ما يفضح العقود الدُّرِّيَّة، وتُعَسْعِس[٥] معه الليالى البَدْرية».

---

(١) طفل العشىّ: مال للغروب العشى وهو آخر النهار.

(٢) المطى: الإبل.

(٣) مُقيلها: منجّيها أى عما كانت فيه من اعتقال.

(٤) مقيلها: مكان راحتها.

(٥) تعسعس: تظلم.

أبو[١] القاسم بن الجد

هو أبو القاسم محمد بن عبد الله بن الجد الفهرى، من أسرة بنى الجد، من بيوتات لبْلة غربى إشبيلية وإشبيلية نفسها، وفى كتاب المغرب ترجمات لغير فقيه وأديب من هذه الأسرة، وقد أكبَّ فى نشأته على كتب الفقه والحديث والأدب، وأخذ اسمه يلمع بين أقرانه فى إشبيلية، فاختاره المعتمد بن عباد أميرها وزيرا لابنه الراضى حين ولاّه مدينة الجزيرة الخضراء فى أقصى الجنوب، وظل معه حين ولاّه مدينة رُنْدة غربى مالقة إلى أن استنزله منها المرابطون سنة ٤٨٤ وفتكوا به. وعاد أبو القاسم إلى بلدته: لَبْلة فولّوه خطّةَ الشورى ومقاليد الفتوى، وهو مع ذلك يساجل إخوانه ويراسلهم ويخطب مودتهم، وخاصة أبا بكر بن القصيرة رئيس الديوان بمراكش منذ سنة ٤٨٧ ليوسف بن تاشفين ثم لابنه على. ويبدو أن ابن القصيرة استدعاه ليعمل معه فى هذا الديوان، ولا نعرف تاريخ هذا الاستدعاء، وأكبر الظن أنه استدعاه منذ عهد يوسف بن تاشفين حتى إذا توفى ابن القصيرة سنة ٥٠٨ أسندت إلى ابن الجد رياسة الديوان بمراكش إلى أن توفى سنة ٥١٥ للهجرة.

وقد استهل ابن بسام ترجمته بقوله: «قريع[٢] وقتنا، وواحد عصرنا، ممن اسْتَمْرى[٣] أخلاف النظم والنثر، فَدرَّت له بالبيان أو بالسحر.. ورُوَيْدك حتى ترى الصبح كيف يُسْفر، وثَبَج[٤] البحر كيف يزخر. وهو على نباهة الذكر، وعلو القدر، وشرف المحل من فهر[٥]». وتلا ابن بسام ذلك بطائفة من رسائله، ونقرأ من بينها رسالة كتب بها إلى صديقه رئيس دواوين المرابطين:ابن القصيرة، وقد تصادف أن كان على مسافة قريبة منه، ولم يتفق لهما لقاء، وفيها يقول:

«لم أزل - أعزك الله - أستنزل قربك براحة الوهم، من ساحة النجم، وأنصب لك شرك المنى، فى خُلَس الكَرَى. وما ظنك بى وقد نزلت على مسافة يوم، وطالما نفر عن

---

(١) انظر فى ترجمة أبى القاسم بن الجد الذخيرة ٢٨٥/٢، ٣٤٧ والصلة ص ٥١٦ والمطرب ص ١٩٠ والمعجب ص ٢٣٧ والقلائد ١٠٩ والذيل والتكملة للمراكشى ٣٢٦/٦ والمغرب ٣٤١/١ والخريدة ٣٩٣/٣ وإحكام صنعة الكلام لابن عبدالغفور الكلاعى ص ١٨٥.

(٢) قريع: سيد.

(٣) استمرى أخْلاف النظم: احتلب ضَرْعه.

(٤) ثبج البحر: وسطه.

(٥) فهر: قبيلة قرشية.

خيالى نوم، ودنوت حتى هممت بالسلام، وقد كان من خُدَع الأحلام.. وما كان على الأيام لو غفلت قليلا، حتى أشفى بلقائك غليلا.. ولئن أقعدتنى بعوائقها عن لقاء حر، وقضاءِ برٍّ فما تحيَّفتْ (تنقصت) ودادى، ولا ارتشفت مدادى، ولا غاضت (نقصت) كلامى، ولا أَحْفَتْ (استأصلت) أقلامى، وفى الكتاب بُلْغَة الوطر، وُيْسَتدلّ على العين بالأثر.. وإن فرغتَ للمراجعة ولو بحرف، أو لمحة طرف، وصلتَ صديقا، وبَلَلْتَ ريقا، وأسديتَ يدا، وشفيت صدًى (عطشا)، لا زالت أياديك بيضا، وجاهك عريضا، ولياليك أسحارا، ومساعيك أنوارا».

ويبدو أنه كتب لابن القصيرة هذه الرسالة حين كان يتولى ديوان الإنشاء بمراكش للمرابطين، وقد تولاه منذ سنة ٤٨٧ كما أسلفنا حتى وفاته سنة ٥٠٨ ونراه فيها يشير - من طرف خفى - إلى تمنيه أن يستدعيه صديقه للعمل معه فى ذلك الديوان، ولاتخفى سطور الرسالة مراده وأنه يأمل لو ردَّ عليه بكتاب يحقق له أمنيته. وقد صاغ الرسالة صياغة بديعة، مع لطف الأخيلة ودقة المعانى ومع حسن الأداء. ولانلبث أن نقرأ له رسالة فى وصف مطر بعد جدب شديد، وفيها يقول:

«لما استرابتْ حِياضُ الوِهاد، بعهود العِهاد[١]، وتأهَّبَتْ رِياضُ النِّجاد، لبرود الجِداد، واكْتَحَلَتْ أَجْفانُ الأزهار، بإِثْمِدِ[٢] النَّقْعِ المثار، وتعطَّلت الأنوار، من حُلِيِّ الدِّيمة المِدْرار، أرسل الله تعالى بين يَدَىْ رحمته رِيحًا بليلةَ الجناح، سريعة الإلقاح، فنَظَمتْ عقودَ السَّحاب، نَظْمَ السِّخاب[٣]، ولم تلبث أن انهتك رُواقُها[٤]، وانْبَتَك[٥] وَشِيكا نطاقُها، وانبرت مدامعُها تبكى بأجفان المشتاق، غداةَ الفِراق، فاستغربت[٦] الرياضُ ضحكا ببكائها، واهتزَّت رُفاتُ[٧] النَّباتِ طرَبًا لتغريد مُكَّائها[٨]، فيا بَرْدَ موقعها على القلوب والأكباد، ويا خلوص رِيِّها إلى غُلَل النفوس الصَّوَاد[٩]، كأنما استعارت أنفاسَ الأحباب، أو ترشَّفت رُضَابًا[١٠] من الثَّنايا العِذاب، أو تحمَّلت ماءَ الوصال، أو

---

(١) العهاد: المطر.
(٢) إثمد: كحل. النقع: الغبار.
(٣) السخاب: القلادة من الأزهار.
(٤) الرواق: مقدم البيت
(٥) انبتك: انقطع
(٦) استغرب فى الضحك: بالغ فيه
(٧) رفات: حطام
(٨) المكاء: طائر له تغريد حسن
(٩) ريها: شربها حتى الامتلاء. الغلل: جمع غلة: شدة العطش الصوادى. العطشى.
(١٠) الرضاب: الريق المرشوف.

سَرَتْ على أَنْداءِ الأسحار ورَيْحان الآصال. فالحمد لله على ذلك ما انْسَكَبَ قَطْرٌ، وانْصَدَعَ فجر، وتوقَّد قَبَس، وتردَّد نَفَس».

ولعل صوت ابن الجد اتضح، فهو صوت يفيض بألحان عذبة يأخذ بعضها بتلابيب بعض لما تتميز به من عذوبة ورشاقة، وهو صوت يتخايل أو يتجسد فى تصاوير متتابعة، فيمتع النفس بنغماته وأخيلته البديعة. وله من رسالة يخطب فيها وداد أديب وأخوّته:

«إن كانت المداخلة بيننا لم يُفْتَحْ لها باب، ولا علقت بها أسباب، ولا رُمِيَ لنا فى محصَّبها[١] جِمار، ولا عَطف بنا نحو كعبتها اعتبار، فقد جمعتنا فى معرَّف[٢] المعرفة معارف، وضمَّتنا من معالم العلم معاهد ومآلف، ووشجَت[٣] بيننا من أواصر الأدب أنساب، وضُربتْ علينا فى مدارج الطلب قِباب، ولا غرو من تدانى القلوب على تنائى الديار، وائتلاف النفوس مع اختلاف النجار[٤]، فربما أَلِف تشاكل الشيم والأخلاق، بين مستوطن الشام وساكن العراق. على أنى لا أدعى رتبتك فى فنون العلم والآداب، ومن يُضاهى محل الفَرْقد[٥]، بمنبت الغَرْقد، لكنى وإن لم أُعَدّ فى رعيلك، فعندى من بضائع الكلم ما ينفق فى سوقك، بقيتَ حلية للدهر فائقة، وغُرَّة فى وجد الزمن رائقة».

وعذوبة الكلم وحلاوة الصوت وسلاسة الجرس ونعومته، كل ذلك تغرق الآذان فى أنغامه مع ما يسوق من أطياف وخيالات رائعة. وكان فيه ميل إلى الدعابة، مما جعله يعارض أبا الحسين بن سِراج فى رقعته التى مرت بنا والتى شفع فيها عند بعض ذوى الجاه والثراء لرجل يسمى الزريزير مستعيرا له بعض الصفات المتصلة بالطيور كالريش والعش والشَّكير والتحسير، وعلى غِرار رقعة ابن سراج يقول فى رقعته:

«لئن سُمِّى بالزُّرَيْزِير، لقد صُغِّر للتَّكْبِير، ولما طار ببلاد الغَرْب ووَقَع، وزَقَا فى أكنافها وصَقَع[٦]، وعاين ما اتفق فيها هذا العام من عدم الزيتون، فى تلك البطون، والمتون، ولم يجد بها قَرارا، أَزْمَعَ عنها فِرارا. واستخفّه هائجُ التذكار، نحو تلك الأَوْكار،

---

(١) المحصب: موضع رمى الجمار بمنى.

(٢) المعرف: الموقف بعرفات، والاستعارة واضحة.

(٣) وشجت: تشابكت.

(٤) النجار: الأصل والحسب.

(٥) الفرقد: النجم القطبى: الغرقد شجر قصير فروعه شائكة.

(٦) زقا: صاح. صقع: ذهب فى كل وجه.

حيث يكتسى ريشُه حريرا، ويحتشى جَوْفُه بَرِيرا[١]، ويحتسى قَراحا نَمِيرًا[٢]، فخذه إليك، نازلا لديك، ماثلا بين يديك، يترنم بالثناء، ترنم الذُّباب فى الروضة الغَنَّاء. ولن يَعْدَمَ فى جنابك حَبًّا نَثِيرا، وخِصْبًا كثيرا، وعُشًّا وَثِيرا[٣]».

والدعابة لطيفة والصياغة بديعة، ويقول ابن بسام فى ختام ترجمته له إن كلامه أبهى من النجوم وأبهر، وأَسْرَى من النسيم وأسير» لما يُشيع به من صياغة تأخذ بمجامع القلوب

سهل[٤] بن مالك

هو سهل بن محمد بن سهل بن مالك الأزدى، من أسرة علمية غرناطية ذات جاه وثراء، وفيه يقول ابن عبد الملك المراكشى: «كان من أعيان مصره وأفاضل عصره تفننا فى العلوم وبراعة فى المنثور والمنظوم، محدِّثا مجودا للقرآن متقدما فى العربية، وافر النصيب من الفقه وأصوله، كاتبا مجيد النظم فى معرب الكلام وهزله ظريف الدعابة مليح التندير» ويقول ابن سعيد فى القدح المعلى: «لو لم تأت غرناطة إلا بهذا الجليل المقدار، لكان حسبها فى العلم والجود والرياسة وجميع أنواع الافتخار، وبرع فى العلوم الحديثة والقديمة وبلغ بين نظرائه مبلغ الكمال»، وصنَّف فى العربية كتابا مفيدا رتب الكلام فيه على أبواب كتاب سيبويه، وله تعليقات نافعة على كتاب المستصفى فى الأصول للغزالى.

ولما ثار محمد بن يوسف بن هود الملقب بالمتوكل بمدينة مرسية سنة ٦٢٥ وملك قرطبة وإشبيلية وغرناطة بلغه أن سهل بن مالك يتندر به وبرجاله، وكان مطبوعا على النادرة ظريفا خفيف الروح، ولكن ابن هود لم يحتمله فغرَّبه عن غرناطة بلدته إلى مدينة مرسية، وظل بها حتى توفى ابن هود سنة ٦٣٥ وصارت غرناطة إلى الغالب بالله محمد بن يوسف بن الأحمر مؤسس دولة بنى نصر أو بنى الأحمر فى غرناطة فعاد إليها، وظل فى جاه بها وبلوغ أمنية حتى توفى سنة ٦٣٩ للهجرة عن سنٍّ عالية ورثاه تلميذه ابن الجنَّان رثاء حارا.

وكان سهل شاعرا كما كان ناثرا، ونثره يبذّ شعره ويدل على عمق فكره واصطباغه

---

(١) البرير: ثمر الأراك.

(٢) يحتسى: يتجرع. قراحا نميرا: ماء صافيا زاكيا.

(٣) وثيرا: وطيئا.

(٤) انظر فى ترجمة سهل بن مالك=التكملة لتلميذه ابن الأبارص ٧١٢ واختصار القدح المعلى لابن سعيد ص ٦٠ وزاد المسافر رقم ٢٣ وابن فرحون والذيل والتكملة للمراكشى (بقية السفر الرابع) ص ١٠١ والإحاطة ٢٧٧/٤.

بأصباغ الفلسفة. وكان من تلاميذ ابن رشد، وعنه أخذ العلوم القديمة، وكان شديد الشغف به والإعجاب بفلسفته وفكره، فلما توفى سنة ٥٩٥ أظلمت الدنيا فى عينيه وكأنما طُعن فى كبده فأمسك بالقلم وكتب إلى بنيه يعزيهم - وقد حَزَّ فى نفسه الجزع وعَضَّها الوجع - تعزية ملتاع أَضْرَمت اللوعةُ نارًا فى فؤاده، وفيها يقول:

«لا أقول كفى ولا أستشعر صَبْرًا، وقد أُسْكن نورُ العِلْمِ قبرًا، بل أُغْرِقُ الأجفان بمائها، وأستوهب الأشجان غَمْرَة[١] غَمَّائها، وأتهالك تهالكَ المجنون، وأستجير من الحياة برَيْب المَنُون، وأنافرُ السلوَّ منافرة اليقين لوساوس الظنون. وهو الخطبُ الذى نَفَى الهُجُودَ[٢]، وألزم أَعْيُنَ الثَّقَلَيْن أن تجود، وبه أَعْظَم الدهرُ المصابَ، وفيه أخطأ سَهْمُ المنية حين أصاب، والدهر يَسْترجع ما وهبَ، كان الصُّفْرَ[٣] أو الذَّهَبَ، ولا غرو أن دَهَمَ[٤] الرُّزْءُ، يؤود[٥] الفلكَ الدائر منه الجُزْءُ.. وإنا لله لفظةً أوليها، وأُتْبعها زَفْرةً تليها، ولقد بحثت الأيام عن حَتْفها بِظِلْفها، وسَعَتْ على قدمها إلى رَغْم أَنْفها، حين أَتلفت الواحد يزن مائةَ أَلْفِها، فَمَنْ لبثِّ الوَصْلِ ولرَعْى الوسائل[٦]؟ وإلى من يُلْجَأ فى مُشْكلات المسائل؟ ومن المجيب إذا لم يكن المسئول بأعلم من السائل؟ اللهم صَبِّرنا على فَقْد الأُنس بالعلم، وأدِلْنا[٧] من خُفوف الوله بوقارِ الحِلْم، وأَخْلِفْه فى بنيه وعامة أهليه بِشَبِيه، ما أوليتَه فى جِوارك المقدَّس وتُوليه»

والتعزية طويلة، وجميعها - على هذا النحو - توجُّع وتفجع لهذا الرزء الفادح الذى نزل بالأندلس لفقد فيلسوفها العظيم منقطع القرين: ابن رشد. وكتب صديق لسهل يعزيه عن محنته بنفيه إلى مُرْسية وغربته، فردَّ عليه برسالة يقول فيها:

«أنا أستوهبُ لك أيها الشيخُ الأخُ الجليلُ عافيةً لا تَعْفُو[٨] بأَلْسُنِ الحُسَّاد، ولا تَقْفُو[٩] موادَّها أَعْيُنُ السعاة البغاة الذين ما لهم مَقْعَدٌ إلا بالمرصاد، وأُثْنِى على كرم طباعك بوصول رسالتك التى طلعتْ على ليلى البَهيم[١٠] صَباحا، وأدارتْ علىَّ من التسلِّى والتعزِّى أَقْداحا.. ويعلم الله أيها العَلَمُ علما وفهما، أنى لولا مخاطبتك ومِثالُك[١١]

---

(١) غمرة غمائها: شدة شدائدها.
(٢) الهجود: النوم.
(٣) الصفر: النحاس.
(٤) دهم: فجأ. الرزء: المصيبة.
(٥) يؤود: يثقل ويجهد.
(٦) الوسائل: الصلات.
(٧) أدلنا: انصرنا.
(٨) تعفو: تنطمس.
(٩) تقفو هنا: تحيط بها.
(١٠) البهيم: المظلم.
(١١) مثالك: يريد مثال مخاطبه وشخصه.

لمتُ أَسَفًا وغَمًّا، ولستُ - عافاك الله - بذى سِجْنٍ ولا قيود، ولكن معاشرة من لا يشاكَل عَقَبَةٌ كَؤُود[1]، ولعلها ذنوبٌ تمحَّصُ، وسَبْكٌ يُصَفَّى به الإنسان ويُسْتَخْلَصُ، وقد شكونا لو أن الشكاة تُسْمَعُ، ودَعَوْنا لو أنَّ الدعاءَ - عند من لا يَقْبله يَنْفع».

وسهل يومئ فى أول رسالته إلى ما صنعه به أهل الحسد والعداوة مما انتهى به إلى النفى عن بلده، ويعبر عن ألمه وحزنه لهذا النفى مع الثناء على صديقه والشكر على رسالته التى أثلجت صدره وفتحت له من التسلى والتعزى أبوابا كانت مغلقة، فخففت من أسفه وغمه. ويقول المراكشى عنه إنه كان كريم النفس فاضل الطبع نزيه الهمة حصيف الرأى وجيها مبرورا معظما عند الخاصة والعامة.

٣

الرسائل الأدبية

مما تميَّز به النثر الأندلسى كثرة الرسائل الأدبية فيه، وكانت تسعف الكتَّاب فى ذلك ملكات أدبية خصبة، وهى تلاحظ بوضوح فى كثير من رسائلهم الشخصية إذ نرى الكاتب يتحول برسالته فى المودة والإخاء أو فى العتاب أو فى الرثاء إلى الاتساع والامتداد بها صفحات تلو صفحات. وكان من آثار كثرة الحروب عندهم مع نصارى الشمال كثرة الرسائل الطويلة التى تتخذ الجهاد والاستنفار للحرب وتصوير معاركها العنيفة موضوعات لها، وفى كتاب الذخيرة لابن بسام رسائل كثيرة فى كل ذلك، وخاصة مع موقعتى بَرْبَشْتر سنة٤٥٦ والزلاقة سنة٤٧٩. وتكثر عندهم الرسائل الشخصية التى تتخذ الطبيعة موضوعا لها، وألمنا فيما أسلفنا برسائل بارعة على لسان الأزهار عند ابن برد وحبيب وأبى عمر الباجى، ومرَّ بنا أن لابن الجد رسالة بارعة فى وصف مطر بعد قحط شديد، وأن لابن أبى الخصال رسالة فى وصف ليلة شديدة البرد نوَّه بها السابقون، ولابن خفاجة أكثر من رسالة فى وصف الطبيعة، وبالمثل لكتاب غرناطة وفى مقدمتهم ابن الخطيب رسائل متعددة فى وصف الطبيعة. وكان للأندلسيين ميل واضح إلى الدعابة والفكاهة، وهما يتضحان فى كثير من رسائلهم الشخصية، على نحو ما يلقانا عند محمد بن مسعود القرطبى فى أوائل القرن الخامس الهجرى وكان شاعرا يتصعلك فى شعره على

---

(١) كؤود: صعبة.

طريقة الأدباتية أصحاب الكُدْية ممن يصفون فى أشعارهم بؤسهم وحرمانهم وما يسود حياتهم من ضنك وفقر وإقلال طلبا للنوال، وكان له ابن رحل إلى غربى الأندلس وعرف أنه عاش هناك للمجون والشراب فكتب إليه رسالة طويلة حاكى فيها الجاحظ مستمدا من رسالته التربيع والتدوير وما فيها من هزل، وقد ذكر منها ابن بسام فصولا فى ترجمته له[١]. ولأحمد بن عباس وزير زهير صاحب المرية المقتول معه سنة ٤٢٩ رسالة هزلية بديعة فى وصف رسول بكتاب أرسله إليه أبو المغيرة بن حزم، ورد على رسالته أبو المغيرة مستوحيا شيئا من هزله[٢]، وسنلم لابن شهيد برسالته: التوابع والزوابع وما فيها من سخرية وأيضا بالرسالة الهزلية لابن زيدون. ويذكر ابن بسام لابن طاهر الذى ألممنا به طائفة من رسائله فى الدعابة والهزل، ومرت بنا رسالة أبى الحسين سراج بن عبد الملك فى الشفاعة التى بناها على الدعابة لشخص يسمى الزريزير مستغلا فى وصفه طائر الزرزور، وكأنه هو نفس هذا الطائر، وطارت شهرة الرسالة - كما أسلفنا - فى الأندلس وحاكاها كثيرون من أعلام الكتابة بغرض الفكاهة والدعابة. وهو جانب واسع فى الرسائل الشخصية الأندلسية مثل وصف الطبيعة والجهاد والحرب. وحرىّ بكل جانب من هذه الجوانب أن تُجْمَع رسائله مع مقدمة تحليلية توضح روعته الأدبية، وحسبنا الآن أن نلم ببعض رسائل أدبية اشتهرت للأندلسيين.

رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد

ابن شهيد[٣] هو أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن عبد الملك بن شهيد الأشجعى القرطبى، فهو من أصل عربى، كان جده الأعلى عبد الملك بن شهيد وزيرا للأمير محمد (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ) ووزر ابنه أحمد لعبد الرحمن الناصر ولقبه بذى الوزارتين ومر بنا فى الفصل الأول ذكر هدية نفيسة له إلى الناصر تدل على أنه كان من أكثر أهل قرطبة ثراء، وولد له فى سنة ٣٢٣ ابنه عبد الملك وأصبح فيما بعد وزيرا للمنصور بن أبى عامر، وولاه على الولايات الشرقية: بلنسية ومرسية مدة تسع سنوات، وعاد مضيفا منها إلى ثرائه

---

(١) الذخيرة ٥٤٩/١.

(٢) الذخيرة ٦٤٥/١ وما بعدها.

(٣) انظر فى ترجمة ابن شهيد اليتيمة ٣٥/٢ والجذوة ١٢٤ والمطمح ١٦ والذخيرة ١٩١/١ - ٣٣٦، ٤٣٧ والبغية رقم ٤٣٧ والخريدة ٥٥٥/٢ ومعجم الأدباء ٢١٨/٢ وابن خلكان ١١٦/١ والوافى للصفدى ١٤٤/٧. ونشر شعره يعقوب زكى بالقاهرة وشارل بلا فى بيروت وللأخير محاضرات عنه بجامعة عمان.

الموروث عن أبيه ثراء واسعا، واصطفاه المنصور بن أبى عامر لنفسه مستشارا وجليسا. ونقل سكناه إلى جواره. وكان قد رُزق بابنه أحمد سنة ٣٨٢ فنشأ فى نعيم نشأة مترفة وضاعف ترفها رعاية ابن أبى عامر وحظياته له، فكان لا يزال يغدو ويروح إلى قصوره مختلطا بأحفاده. وعنى أبوه بتربيته. ومنذ نعومة أظفاره كان عنده نهم للأدب والمعارف، يقول فى فواتح رسالة: التوابع والزوابع: «كنت أيام كُتّاب الهجاء أحن إلى الأدباء وأصبو إلى تأليف الكلام. فابتعت الدواوين وجلست إلى الأساتيذ، فنبض لى عِرْق الفهم، ودرّ لى شِرْيان العلم.. فطعنتُ ثغرة البيان دِراكا، وأعلقت رِجْلَ طيره أشْراكا، فانثالت لى العجائب وانهالت علىّ الرغائب». ويضيف إلى ذلك فى إحدى رسائله أنه درس ضروب العلم المختلفة من أدب وخبر وفقه وطب وكيمياء وحكمة. وبينما هو غارق فى النعيم وفى تثقيف نفسه إذ النكبة تحل بأسرة ابن أبى عامر سنة ٣٩٩ وكان قد توفى منذ سبع سنوات. وولى الحجابة المظفر ابنه فسعدت الأندلس والرعية به، غير أن القدر لم يمهله، فتوفى سنة ٣٩٩ وخلفه أخوه الناصر عبد الرحمن وكان نحسا على نفسه وانهمك فى الشرب والزندقة والطعن فى الدين الحنيف، فقتل سريعا. وانفتح باب الفتنة التى قضت على الدولة الأموية ودُمِّرت فيها قرطبة وأُحرقت المدينتان المحدثتان بجوارها: الزهراء والزاهرة، وسُفكت الدماء بقرطبة وظلت تنزف طويلا. وترك ذلك آثارا عميقة فى نفس ابن شهيد فقد اندكّت صروح آماله ومطامحه، وداخله أسى عميق لما نزل بمدينته وبأسرة بنى أبى عامر، ولما رأى فى أثناء ذلك من انتهاك القيم واختلال الموازين، فأكبَّ على كئوس الخمر واللذات يغرق فيها همومه محاولا أن ينساها أو يتسلى عنها، وأنَّى له، إذ كانت تتجدد كل يوم، فكيف يحتمل الحياة إنه ليس أمامه إلا أن يسرف على نفسه فى الخمر وما يتصل بها من اللذات، لعلها تخفف عنه محنته وما يُطْبق عليه من أحزان. وتصاعد من أصابه الصمم مبكرا، فتضاعف حزنه وهمه، وتضاعف إقباله على الخمر والمجون حتى يقول ابن حيان: «غلبت عليه البطالة فلم يحفل فى آثارها بضياع دين ولا مروءة حتى سقط شرفه ولم يُقْصِر عن ارتكاب قبيحة» ويقول ابن بسام: «كان بقرطبة فى رقته ورعته وظرفه خليعها المنهمك فى بطالته وأحطّ الناس فى هوى نفسه وأهتكهم لعرضه وأجرأهم على خالقه». وكان الشعر قد انثال على لسانه مبكرا، كما أخذت تظهر مخايل نبوغه الأدبى، وسرعان ما أصبحت داره منتدى لأترابه من الشباب القرطبيين المتأدبين أمثال ابن حزم وابن عمه أبى المغيرة عبد الوهاب وابن برد الأصغر وأبى عامر بن المظفر بن أبى عامر وابن عمه المؤتمن عبد العزيز. ويقدم غير مدحة

للخليفة المستعين الأموى (٤٠٠ - ٤٠٧ هـ) ويشكو له ممن يتهمونه بسرقة الشعر كذبا وبهتانا. وفتك بالمستعين قائده على بن حمود الحسنى واستولى على صولجان الخلافة وانعقدت صلة بين ابن شهيد وكاتبه أبى جعفر اللمائى، وفتك بابن حمود غلمانه سنة ٤٠٨ وخلفه أخوه القاسم وخلعه ابن أخيه يحيى بن على بن حمود سنة ٤١٢ وكان قد اتخذ وزيرين أبا عبد الله بن الفرضى وابن فتح جعفر بن محمد وأفسدا العلاقة بينه وبين ابن شهيد مما جعله يزجّ به فى غياهب السجن فترة ظل فيها يستعطفه حتى رد إليه حريته.

وكان ابن شهيد يختلف إلى مجالس أبى العباس بن ذكوان المتوفى سنة ٤١٣ وفيها انعقدت صلة بينه وبين ابنه أبى بكر وكان مثله رقاعة وخلاعة، وتعرف على ابن الحناط الكفيف الذى كانت ترعاه أسرة بنى ذكوان، واصطدم به، وربما كان من أسباب ذلك أنه كان يوالى بنى حمود ويقدم إليهم مدائحه بينما كان ابن شهيد يوالى بنى أمية، وأيضا ربما رجع ذلك إلى المنافسة الأدبية، فنشبت بينهما مناقضات نظما ونثرا استمرت طويلا. ولم يكن يؤذيه شىء مثل اتهامه بالسرقة فى شعره ونثره، وبلغه أن أبا بكر محمد بن القاسم إشكمياط (فى كتاب المغرب: إشكنهاط) يتهمه بالسرقة فى نثره، فكتب إليه محنقا رسالة عنيفة، قال فيها: «لأقطعن حبالك هاجرا، ولأتركن ليلك ساهرا». ويصبح صديقه الأمير عبد الرحمن بن هشام الأموى خليفة فى سنة ٤١٤ ويتلقب بالمستظهر، ويتخذه مع صاحبه ابن حزم وزيرين، وأحسّ ابن شهيد أن الدنيا تبتسم له بعد طول العبوس، غير أن ابتسامتها سرعان ما غاضت بعد سبعة وأربعين يوما، إذ خلف المستكفى الأموى المستظهرَ، وعادت الهموم تطبق عليه. وكان يحيى بن على بن حمود قد انسحب إلى مالقة، ففكر ابن شهيد أن يهاجر إليها كما تدل على ذلك قصيدة فى ديوانه، ونظن أنه زار حينئذ مجاهدا أحد فتيان العامريين الصقالبة وكان قد أسس له إمارة فى دانية بشرقى الأندلس سنة ٤١٢ غير أنه ازورَّ عنه فيما يبدو لاختلاف مسلكهما فى الحياة، إذ لم يكن مجاهد يأخذ نفسه بشىء من اللهو، بل على العكس كان منصرفا إلى الجد والعناية بالعلماء والقراء. وعاد ابن شهيد إلى قرطبة ولم يلبث يحيى بن على بن حمود أن قدم إليها بجنوده من مالقة واستولى على أزمة الأمور بها سنة ٤١٦ وقدَّم إليه ابن شهيد بعض مدائحه غير أن وزيريه ابن فتح وابن الفرضى ظلا يغلقان أبوابه فى وجهه. واستدار العام، فانصرفت قرطبة عن ابن حمود وبايعت لأموى هو الخليفة المعتدّ وظل بعيدا عنها يتنقل فى الثغور نحو ثلاث سنوات. وكان صديق ابن شهيد المؤتمن العامرى أصبح أميرا على بلنسية منذ

سنة ٤١٧ فتراسلا مرارا، وألحَّ عليه المؤتمن أن يترك قرطبة إلى بلنسية، فاعتذر إليه بشعر رقيق يصور فيه شغفه بقرطبة مع ما أصابها من المحن والخطوب والدمار وتفجَّع لها وتوجع فى أسى مرير. ويقرِّبه الخليفة المعتدّ ويتخذه جليسا وسرعان ما يتقوض حكمه وتتقوض معه الدولة الأموية سنة ٤٢٢ ويستولى على مقاليد الأمور بها أبو الحزم جهور. وفى سنة ٤٢٥ يزور أمير المرية زهير الصقلبى - من فتيان بنى عامر - قرطبة ومعه وزيره وكاتبه أبو جعفر أحمد بن عباس وكان فيه عجب شديد، فاصطدم به ابن شهيد وهجاه هجاء مقذعا. ويصاب فى أواخر هذه السنة بفالج ويقاسى منه لمدة سبعة أشهر أهوالا ثقالا حتى ليفكر فى الانتحار كما ذكر فى بعض شعره، ويلبى داعى ربه فى جمادى الأولى سنة ٤٢٦، وصلّى عليه - وأقام مراسم دفنه - أمير قرطبة أبو الحزم جهور، ويَكْثرُ البكاء والعويل على قبره وتُنْشَد مراث متعددة لصديقه ابن برد الأصغر وغيره.

وهذه حياة ابن شهيد، وهى حياة امتلأت بغيوم الهموم مع ما امتاز به من تفوق فى الأدب نثرا وشعرا،وفيه يقول ابن حيان مؤرخ الأندلس: «إذا تأملته ، وكيف يجرّ فى البلاغة رسَنه، قلت عبد الحميد فى أوانه، والجاحظ فى زمانه.. وله رسائل كثيرة فى أنواع التعريض والأهزال قصار وطوال برَّز فيها شَأْوه، وأبقاها فى الناس خالدة بعده» وقال عنه الفتح بن خاقان فى المطمح: «عالم بأقسام البلاغة ومعانيها، حائز قصب السبق فيها، لا يشبهه أحد من أهل زمانه، ولا ينسِّق ما نسَّق من درِّ البيان وجُمانه» وقال فيه ابن بسام: «نادرة الفلك الدوَّار، وأعجوبة الليل والنهار، إن هزل فسجع الحمام، أو جَدَّ فزئير الأسد الضرغام، نظمٌ كما اتسق الدر على النحور، ونثرٌ كما خُلط المسك بالكافور». وقد سقطت من يد الزمن أعماله ولولا ما احتفظ به ابن بسام وأصحاب الكتب الأدبية من أشعاره لضاع هذا الكنز النفيس من منظوماته، وأيضا لولا ما احتفظ به ابن بسام من رسائله وخاصة من رسالته التوابع والزوابع لفقد النثر الأندلسى درًّا بديعة من لآلئه وروائعه.

وابن بسام لم يحتفظ برسالة التوابع والزوابع جميعها، إنما احتفظ ببعض فصولها، وما جاء فى صدرها من مخاطبة ابن شُهيد لصديق له هو أبو بكر بن حزم، وتصادف أن كان لأبى محمد بن حزم أخ يتفق مع هذا المخاطب فى اسمه توفى سنة ٤٠١ فظن بعض الباحثين أنه هو المخاطب، ورتبوا على ذلك أن ابن شهيد ألف رسالته وهو شاب، ولو أنهم رجعوا إلى الحميدى فى الجذوة لوجدوه ينص على أنه شخص آخر، إذ يقول: «يحيى بن حزم أبو بكر شيخ من شيوخ الأدب.. وهو الذى خاطبه أبو عامر بن شهيد

برسالة التوابع والزوابع التى سماها شجرة الفكاهة، وهو من بيت آخر غير بيت الفقيه أبى محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم». وإذا أضفنا إلى ذلك أن ابن شهيد أنشد فى الرسالة قطعة من رثائه لوزير الخليفة المستظهر حسان بن مالك المتوفى - كما جاء فى كتاب الصلة - سنة ٤١٦ تعين أن تكون الرسالة كتبت فى هذه السنة على الأقل أو بعدها فى إحدى السنوات التالية القريبة. وبذلك يسقط كل ما ذهب إليه الباحثون من أن الرسالة أُلِّفت قبل هذا التاريخ.

والتابع فى الرسالة الجِنِّىُّ والزوبعة الشيطان، وابن شهيد يذكر فى صدرها لصديقه أبى بكر بن حزم أنه أُرْتِجَ عليه ذات يوم فى شعر كان ينظمه، فتراءى له تابعه من الجِنِّ على فرس أدْهم، فأجازه، واستحلفه من هو فقال: زهير بن نُمَيْر من قبيلة أشجع فى الجن،وكأن فى الجن قبيلة تقابل قبيلة ابن شهيد: أشجع فى الإنس، وتحادثا حينا، ثم علَّمه أبياتا إذا أراد استحضاره، وأوثب الفرس جدار الحائط وغاب عنه، فكان كلما أُرْتِجَ عليه أنشد الأبيات المذكورة فمثل تَوًّا. ولما تأكدت صحبته له عرض عليه أن يلقى معه توابع الشعراء والكتاب وزوابعهم فاستأذن له شيخه الجنى، وأذن له، فأركبه معه على متن جواده، وسار بهما كالطائر يقطع الجوَّ فالجوَّ والدَّوَّ (الفلاة) فالدَّوّ حتى لمح ابن شهيد أرضا لا كأرض الإنس متفرِّعة الشجر عطرة الزهر، وقال له تابعه تلك أرض الجن، وطلب منه ابن شهيد أن يلقى صاحب امرئ القيس «وأمال التابع عِنان الجواد إلى واد من الأودية به دَوْحٌ تتكسر أشجاره وترنِّم أطياره، وصاح تابعه على تابع امرئ القيس قائلا: «ياعُتَيْبة بن نوفل، بسقط اللِّوَى فَحوْمَل (وهما موضعان بمعلقة امرئ القيس) يوم دَارة جُلْجُل (أيضا فى المعلقة) إلا ماعرضتَ علينا وجهك، وأنشدتنا من شعرك، وسمعتَ من الإنسىّ وعرَّفتنا كيف إجازتك له؟ فظهر لهما فارسٌ على فرس شقراء كأنها تلتهب، فقال: حياك الله يا زهير وحَيَّا صاحبك أهذا فَتاهم؟ قال زهير هو هذا. وأى جَمْرة (يشيد بابن شهيد) يا عُتَيْبة، فقال لابن شهيد: أنشدْ، فقال: السيد أولى بالإنشاد، فتطامح (ارتفع) طَرْفه، واهتزَّ عِطْفه، وقبض عِنانَ الشَّقْراء (فرسه) وضربها بالسوط، فسمت تَحْضِر (تثب) طُولاً عنا، وكَرَّ فاستقبلنا بالصَّعْدة (القناة) هازًّالها، ثم رَكَزها، وأنشده إحدى قصائد امرئ القيس حتى أكملها، ثم قال لابن شهيد: أنشدْ، فهمَّ إزاء روعة قصيدة امرئ القيس بالحيْصَة (النكول) ثم اشتدتْ قُوَى نفسه وأنشده قصيدة يعارض بها قصيدته، فلما انتهى منها تأمله تابع امرئ القيس مُعْجَبًا به، ثم قال له: اذهبْ فقد أُجَزْتُكَ وغاب عن بصره. وسأله تابعه زهير: من تريد بعده، فطلب

لقاء صاحب طرفة، فقطع معه وادى عتيبة، وركضا جوادهما حتى انتهيا إلى غَيْضة. ويصف ابن شهيد الغَيْضَةَ وأشجارها ولقاءه فيها بعنتر بن العجلان تابع طرفة، ويحاوره وينشده عنتر قصيدة لطرفة ويعارضها بقصيدة بديعة، ويصيح عَنْتر معجَبا بقصيدته، ويجيزه، ويَغيب عنه. ويلتقى ابن شهيد مع صاحبه بتابع قيس بن الخطيم شاعر يَثْرب ويتحاوران ويتناشدان الشعر ويجيزه. ويترك توابع شعراء الجاهلية إلى شعراء العصر العباسى. ويلتقى بصاحب أبى تَمّام، وينشده ابن شهيد أشعارا مختلفة له منها مرثيته للوزير حسان بن مالك. ويلتقى بتابع البحترى، ويتناشدان الشعر ويجيزه.

ويسأل ابن شهيد صاحبه أن يلقاه بصاحب أبى نواس وينقل لنا صورة من منازل خمره وسكره، إذ بوادى الجن منازل مماثلة لمنازل أبى نواس فى دُنْيا الإنس، فهذا دَيْر حَنَّة الذى كان كثيرا ما يختلف إليه، ويَشُقُّ سَمْعَ ابن شُهَيد قَرْعُ النواقيس، ويجتاب مع تابعه أديارًا وكنائس وحانات حتى ينتهيا إلى دَير عظيم تعبَق روائحه وتفوح نوافِحُه، ويقف صاحبه زهير ببابه ويصيح سلام على أهل دَيْر حَنَّة، ويسأله ابن شهيد هل صِرْنا بذاتِ الأُكَيْرَاح (ساحة يخرج إليها الرهبان فى أعيادهم وطالما تغنى بها أبو نواس) ويجيبه: نعم، وتقبل نحوهما الرهابين وفى أوساطهم الزَّنانير المشدودة وقد قبضوا على العكاكيز، بيض الحواجب واللِّحَى، وقالوا لصاحبه ما بُغْيَتُك؟ فقال حُسَيْنُ الدَّنان تابع أبى نواس، فقالوا إنه فى شرب الخمر، منذ أيام عشرة، ونزلوا بابن شهيد وتابعه إلى بيت اصطفَّتْ دنانُه وحولها غزلانه، وفى فُرْجَته شيخٌ طويل الوجه واللحية افترش أَضْغَاثَ (أخلاطَ) زهر، واتَّكأ على زِقّ خمر، وبيده طاسُ خمر كبير، فصاح به زهير: حيَّاك الله أبا الإحسان، فأجاب بجواب لا يُعْقَلُ لغلبة الخمر عليه، فقال زهير لابن شهيد: اقْرَعْ أُذُنَ نَشْوته. بإحدى خمرياتك فإنه ربما تنبَّه لبعض ذلك، فصاح ابن شهيد ينشده إحدى خمرياته، فصاح تابع أبى نواس وسأله أأشجعى كأنه لا يحسن مثل هذه الخمرية إلا ابن شهيد الأشجعى، وأجابه ابن شهيد: أنا ذاك، فاستدعى ماء قَرَاحًا، فشرب منه وغسل وجهه، فأفاق واعتذر إليه مِنْ حاله، وأنشده قصيدة أبى نواس:

يا دَيْر حَنَّةَ مِنْ ذات الأُكَيْرَاحِ مَنْ يَصْحُ عنك فإنى لستُ بالصَّاحِى

وكاد ابن شهيد يخرج من جلده طَرَبًا، وسأله تابع أبى نواس أن ينشده من شعره، وقام حسين يرقصُ ببعض شعر ابن شهيد ويردده، وقال له: هذا والله شىء لم نُلْهَمْه نحن وقبَّل بين عينيه وأجازه. وسأل زهير ابن شهيد مَنْ تريد بعد ذلك؟ فقال له: تابع

أبى الطيب المتنبى، ولقيه فارسا على فرس بيضاء كأنه قضيبٌ على كَثيب، وبيده قناة قد أسندها إلى عنقه وعلى رأسه عمامة حمراء قد أرخى لها عَذَبَةً صفراء، فحيَّاه زهير، فأحسن الردَّ ناظرا من مُقْلة شَوْساءَ مضمومة أجفانها استعلاءً قد مُلئت تِيهًا وعُجْبًا، واستنشد ابنَ شهيد فأنشده بعض أشعاره، ولما انتهى قال لزهير إن امتد به شَوْط العُمر فلا بد أن يَنْفُثَ بدرر، وما أراه إلا سيُخْتَضر (يموت شابا) بين قريحة كالجَمْر وهمَّة تضع أخْمَصه (باطن قدمه) على مفرق البدر، ويجيزه.وكأنما كان تابع المتنبى يقرأ فى صفحة القدر، إذ تنبأ له أن يحطم الموت غصنه اليافع بعد سنوات معدودة، وحطمه.

وسأل ابن شهيد زهيرا بعد لقائه بالمتنبى أن يلقاه بتوابع الكتَّاب - ويسميهم الخطباء - وركضا الجواد طاعنين فى مطلع الشمس، ومالا إلى توابعهم بمرَجْ دَهْمان وإذا بنادٍ عظيم جَمعهم، والكلُّ منهم ناظر إلى شيخ أصْلَع جاحظ العين اليمنى على رأسه قَلَنْسُوَةٌ بيضاء طويلة، فسأل ابن شهيد زهيرا عنه فقال: عتبة بن أرقم صاحب الجاحظ وكنيته أبو عتيبة، فقال ابن شهيد: بأبى هو ليس رغبتى سواه وغير صاحب عبدالحميد الكاتب فقال له إنه ذلك الشيخ الذى إلى جَنْبه. وعرَّف عتبة بابن شهيد، فقال له: إنك حائك للكلام مجيد، لولا أنك مُغْرى بالسجع، فكلامك نظم لا نثر، فاعتذر له قائلا إنه يعرف فضل الازدواج والمماثلة (خاصَّة أسلوب الجاحظ وعبدالحميد الكاتب) غير أنه عدم ببلده فُرْسان الكلام. ويسوق حَمْلة عنيفة على كُتَّاب زمنه مستخدما أسلوبهما من الازدواج والمماثلة، ويقرأ لهما رسالة طويلة مسجوعة في الحَلْواء، يصف فيها طائفة منها، من مثل الخبيص والزلابية، ويستحسنانها قائلَيْن إن لسَجْعِهِ موضعا من القلب ومكانا من النفس، مع حلاوة اللفظ وملاحة السياق. ويذكران له أنه بلغهما أن من أبناء جنسه من يطعن على أدبه، وسألاه مَنْ أشدهما فى الطَّعْن والإجْحاف بحقك، فيذكر لهما ثلاثة هم أبو محمد وأبو بكر وأبو القاسم، ولا نعرف شخصية أبى محمد، إذ تكنَّى بهذه الكنية لزمنه غيرُ واحد، وأما أبو بكر فأكبر الظن أنه إما أبوبكربن حزم، الذى ذكر فى مطلع الرسالة أنه يتهمه بأن شيطانًا يجرى على لسانه مايخرج عن قدرة الإنس، وإما أبوبكرمحمدبن قاسم المعروف بإشكمياط الذى مر بنا فى حياته أنه اتهمه بسرقة فقر نثره الحسان من سابقيه، وأما أبوالقاسم فذكر ابن شهيد بعد سطور قليلة أنه أبوالقاسم الإفْليلى، ويهتف صاحبا الجاحظ وعبد الحميد بتابعه أنفِ الناقة بن مَعْمر، وينهض لهما جِنِّىٌّ أشْمطَ (دبَّ الشيب فى شعره) رَبْعة وارمُ الأنف (متكبر شامخ بنفسه) يتظالَعُ (يتعارج) فى مشيته كاسرًا لطرفه، وزاويًا لأنفه.

وكان الإفليلى قد تصدَّر فى قرطبة، يقرئ علم الأدب ويختلف الطلاب إليه، وكان مع علمه باللغة والنحو يتكلم فى معانى الشعر والبلاغة والنقد، واستكتبه المستكفى فى خلافته ثم أعفاه لخلو كلامه من حُسْن البيان والبلاغة. ويتهم تابعُه أنفُ الناقة ابنَ شهيدٍ بنقصِ اطلاعه، ويطلب إليه أن يناظره على كتاب سيبويه وشرح ابن درستويه، فيسخر ابن شهيد منه ويقول الإفليلى بلسان أنف الناقة إنه أبو البيان، فيهزأ به قائلا إنه لا يحسنه. ويطلب إليه أنف الناقة مثالا، فيصف له بُرْغوثا وثَعْلباً وصفا رائعا. ويلتفت إليه تابع بديع الزمان زُبْدة الحقب فيطلب إليه أن يصف جارية ويعجب بوصفه، ويذكر له زبدة الحقب وصف البديع للماء ويقول له إنه من العُقْم أو المعجز، فيعارضه ابن شهيد بوصف رائع للماء، ويمتلىء زبدة الحقب غيظا، فيضرب الأرض برجله، فتنفرج عن هُوَّةٍ يغيب فيها. ويشتدّ غيظُ أنف الناقة تابع الإفليلى، فيطلب إليه أن ينشد بعض أشعاره، وينشد أشعارا بديعة متحدِّيا له، وتَصيح فتيان الجن إعجابا واستحسانا، وتعلو أنف الناقة الكآبة، ويحاول فتى من الجن أن يصلح بينهما، فيأبى ابن شهيد لما يتتبع الإفليلى فى دروسه لزلَّة قد تمر به فى شعره أو نثره، فيهتف بها بين تلاميذه ويجعل وقوفه عليها مفخرة من مفاخره. فيقول له الفتى الجنىّ إن الشيوخ قد تزلُّ أحلامهم فى النُّدْرة، ويقول ابن شهيد: بل إنها المرة بعد المرة. وما يلبث صاحبا الجاحظ وعبد الحميد الكاتب أن يشهدا له بأنه شاعر وناثر، وينفضُّ الجمع، والكل ممتلىء إعجابا به. ويقول ابن بسام إنه امتد بعد ذلك بابن شهيد الكلام فى باب التوابع والزوابع، ومدَّ فيه أطناب (أسباب) الإطناب والإسهاب، ولذلك وقف دون الغاية، وقطع قبل النهاية. وكنا نتمنى أن لا يقطع ابن بسام وأن لا يقف، بل كنا نتمنى أن يورد التوابع والزوابع بحذافيرها، لأنها طرفة رائعة من طرف النثر الأندلسى، وهى طرفة بديعة النسق فى الصياغة والرونق فى العبارة دون سجع ولا ما يشبه السجع إلا ما جاء عفوًا.

وأضاف ابن شهيد فى الرسالة إلى هذا الباب الخاص بلقائه لتوابع الكتاب والشعراء بابا تذاكر فيه مع زهير تابعه ما تعاورتْه الشعراء من المعانى ومَنْ أحسن منهم الأخذ للمعنى ومن قصَّر فيه، ويعرض لبعض المعانى ومن تداولوها، ويتمثل له جنىٌّ يسمى فاتك بن الصَّقْعب ويتحاور معه ويجرى على لسانه بعض أبيات من سينية غزلية له، ويسأله فاتك هل جاذبت أحدا فيجيبه نعم أبا الطيب المتنبى، وينشده من ذلك بعض أشعاره فيصيح فاتك صيحة منكرة من صياح الجن إعجابا واستحسانا. وكان بقربه جنى ضخم هو فرعون بن الجون، أخذ يتحداه بأشعار رائعة للمتنبى، فأنشده ابن شهيد بعض أشعاره

البديعة وبَهرتْه، فأخذ يسأله عن أشعار لأبيه وأخيه وعمه وجده وجَدِّ أبيه، وابن شهيد يذكر له قائله منهم، حينئذ أقسم أن لايعرض له أبدا، وشهد له بعراقته فى الكلام، وكأنما ألقمه حجرا بشعره وشعر آبائه فتضاءل وغاب عن بصره.

ويُتْبع ابن بسام ذلك بفصل أخير من فصول الرسالة أو قل بمشهد نرى فيه ابن شهيد مع تابعه زهير بأرض الجن يستعرضان أندية أهل الآداب، وإذا هما يشرفان على أتان من حُمر الجن وبعض بغالهم وتعرَّضت لابن شهيد الأتان تحكِّمه فى شِعْرين لحمار وبَغْل من عشاقهم اختلفت التوابع من الجن فيهما، وتقدمت إليه بَغْلَةٌ شَهْباء عليها جُلُّها (غطاؤها الصائن لها) وبُرْقعها، وأنشدته الشِّعْرَيْنِ ففضَّل شعر البَغْل وقال: كان أنف الناقة أجدر منى بالحكم، وقالت له البغلة: أما تعرفنى؟ فقال لها: لو كانت بك علامة، فأماطتْ لثامها، فإذا هى بغلة أبى عيسى والخالُ على خدِّها، فتباكيا طويلا، وأخذا فى ذكر أيامهما، وسألته: ما فعل الأحبَّة بعدها؟ أهم لايزالون على العهد؟ فقال: شاخ الفتيان، وتنكرت الخلَّان، ومن إخوانك من بلغ الإمارة، وانتهى إلى الوزارة، وحالوا عن العَهْد، ونَسُوُ أيام الوُدّ. وكانت بقربهم إوزّة بيضاء شهلاء فى مثل جثمان النعامة، ويسأل ابن شهيد زهير عنها، فيقول له إنها تابعة شيخ من مشيختكم تسمى العاقلة وتكنى أم خفيف، ويتحاور معها مثنيا عليها، فمرة تَسْبَحُ ومرة تطير، ومرة تَنْغمس فى الماء ومرة تَخْرج منه، ثم سكنت وأقامت عنقها وعرَّضت صدرها ورفرفت بمجْدافيها (بجناحيها) واستقبلته مع صاحبه جاثيةً (قائمة على مؤخرتها) كصدر المركب، ثم سألته ماذا يُحْسن؟ فقال لها من الشعر أو النثر، فقالت له إنما أريد النحو والغريب تريد أن تتهمه بأنه لايحسنهما، ويطيل الحوار معها واصفا لها بالحمق وأنها فى حاجة إلى عقل التجربة إذ عدمت العقل الطبيعى، ويسألها أيهما أفضل: الأدب أم العقل؟ وتجيبه العقل، فيقول لها إذا ظفرت منه بحظ فناظرى حينئذ فى الأدب. وكأن الإوزَّة بذلك تأخذ صفة الإفليلى بشهادة تحديها لابن شهيد بإحسان النحو والغريب اللذين كان الإفليلى يشتهر بهما. وبذلك نفهم كلمة ابن بسام عن الرسالة لابن شهيد وتكرار ذكر الإفليلى فيها بأنه هو الذى به ابن شهيد عرَّض، وجعله الغرض، وكأنما أنشأها من أجل الرد على ما وسمه به فى بعض دروسه من زلات وعثرات، مما جعله يعرض فى الباب الأول من الرسالة روائع شعره ونثره على توابع الشعراء والكتاب النابهين مقارَنة إلى قصائد أصحابهم، وإذا هم يبهرون بشعره ونثره دائما ويجيزونه، محاولا بذلك أن يسقط نقد الإفليلى له. ثم أخذ يعرض جانبا من

تداول المعانى بين الشعراء ومن قدرته على نقد الشعر وتذوقه ليبرهن على أنه يبذ الإفليلى فى انتقاد الشعر وتذوقه والوقوف على المعانى التى يشترك فيها الشعراء ويتداولونها، وكان تابع الكاتب والشاعر فى الشطر الأول من الرسالة يتمثل له بشرا سويا، وتشكّل له فى الشطر الثانى على صورة بعض الحيوانات والطير مستمدا فى ذلك كله من قصص الجن عند العرب.

وقرن كثير من الباحثين[1] هذه الرسالة لابن شهيد إلى رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى، ومنهم من ذهب إلى تأثر أبى العلاء بابن شهيد، ومنهم من ذهب إلى أن ابن شهيد هو الذى تأثر بأبى العلاء، وكلا الرأيين يجانبه الصواب، وحقا الرسالتان رحلتان فيما وراء الواقع، لكنهما بعد ذلك تتباينان فى موضوعيهما، فرحلة أبى العلاء تدور على عقيدة إسلامية هى عقيدة المعاد وما يتصل به من أهوال الحشر والصراط ونعيم الجنة وعذاب النار ولقاء بعض من غُفر لهم من الشعراء واللغويين فى الفردوس ورؤية إبليس وبشار وأضرابه من الزنادقة فى الجحيم. أما رحلة التوابع والزوابع لابن شهيد - كما مرّت بنا - فتدور على ما شاع على ألسنة العرب فى عصرهم الجاهلى الوثنى من تصور شياطين للشعراء يلهمونهم أشعارهم. وواضح من موضوع الرحلتين أنهما لا يلتقيان أى التقاء وأن من الخطأ كل الخطأ أن يحاول باحث تبين أثر لإحداهما فى الأخرى. وذكرنا من قديم فى كتابنا «الفن ومذاهبه فى النثر العربى» ثم فى كتابنا «المقامة» أن الذى أوحى إلى ابن شهيد برحلته فى أرض الجن ووديانها إنما هو بديع الزمان وما قرأه فى مقامته الإبليسية عن لقاء عيسى بن هشام لإبليس فى واد من وديان الجن وتحاورهما وإنشاد إبليس له أشعارا جاهلية، ثم عرض عليه أن ينشده من شعره، فأنشده إبليس قصيدة لجرير، وعجب عيسى من انتحاله قصيدة جرير، ولم يلبث إبليس أن قال له: «ما أحد من الشعراء إلا ومعه معين منا، وأنا أمليت على جرير هذه القصيدة، وغاب عنه، وكأنما ابتلعته الأرض. وفى نفس رسالة التوابع والزوابع ما يؤكد الصلة بين ابن شهيد وبديع الزمان فى مقاماته، إذ نرى ابن شهيد يعرض على تابعى الجاحظ وعبد الحميد الكاتب رسالة طويلة فى ألوان من الحلواء أراد بها محاكاة بديع الزمان فى مقامته المضيرية. وما يلبث ابن شهيد أن يذكر أنه لقى تابع بديع الزمان المسمى زبدة الحقب، ويقترح

---

(١) راجع بلاغة العرب فى الأندلس للدكتور أحمد ضيف (طبع القاهرة) ص ٤٨ والأدب الأندلسى للدكتور هيكل ص ٣٨١.

عليه وصف جارية ويصفها، ويعجب زبدة الحقب بوصفه، ويسأله ابن شهيد أن يسمعه وصفه للماء، ويقول له إنه وصف معجز، ويعارضه ابن شهيد بوصف رائع للماء يبهره. وفى ذلك كله ما يقطع بأن المقامة الإبليسية لبديع الزمان هى التى ألهمت ابن شهيد رسالة التوابع والزوابع وأوحت بها إليه. ويتردد فى كتابى الجذوة للحميدى والمغرب لابن سعيد اسم كتاب لابن شهيد سماه حانوت عطار ويبدو من نقولهما عنه أنه ترجم فيه لأدباء الأندلس فى عصره وقبل عصره ترجمات قصيرة ذكر فيها بعض أخبارهم وما استطرفه من أشعارهم مع بعض نظرات نقدية.

رسائل ابن بُرْد[1] الأصغر

ابن بُرْد الأصغر هو أبو حفص أحمد حفيد أبى حفص أحمد بن بُرْد الأكبر الذى ولى ديوان الإنشاء للمنصور بن أبى عامر، وكتب بعده لابنيه المظفر والناصر. ثم كتب لسليمان المستعين الأموى وللأمراء الحموديين، ويترجم له ابن بسام فى الذخيرة، ويشيد ببيانه وبلاغته قائلا إنه «أسمع الصُّمَّ بيانا، واستنزل العُصْمَ إبداعا واستحسانا» ويتلو ذلك بطائفة بديعة من رسائله. وحين رُزق ابنه محمد بولده أحمد توسم فيه النجابة منذ نعومة أظفاره، فعُنى بتربيته وتخريجه فى الأدب نثره وشعره، وفى ذلك يقول الحفيد ابن برد الأصغر، كما روى ابن بسام عن كتاب له سماه «سر الأدب وسبك الذهب»: «وكان جدى أحمد بن برد – رحمه الله – بطول ممارسته لهذه الصناعة قد اقتعد سَنامها، ورفع أعلامها، وأصبح إمامها، وإنى وافقت أول معالجتى لها آخر أيامه خلا أنه قد كان أقبسنى مصابيح من وصاياه فيها، ووَطّأ لى مراكب من دلائله إليها، وضرب لى صُوًى (أعلاما) من هداياته نحوها أفاد الله بها نفعا». ويقول ابن بسام إن بنى برد ينتمون إلى بنى شهيد بالولاء، ولعلنا بذلك نفهم ما كان ينعقد من صلة وثيقة بين ابن برد الأصغر وابن شهيد، ويتضح ذلك فى جوانب من أخبار ابن شهيد، وحين توفى بكاه – كما أسلفنا – بكاء حارا. وليس بين أيدينا أخبار عن نشأة ابن برد الأصغر إلا الخبر السالف عن عناية جده به ورعايته له. ونرى ابن بسام يذكر أنه حين اتخذ المستظهر الأموى فى سنة ٤١٤ ابن

(١) انظر فى ترجمة ابن برد الأصغر الجذوة للحميدى: ١٠٧ والمطمح: ٢٤ والبغية رقم ٣٥٤ والمغرب ٨٦/١ ومعجم الأدباء ١٠٦/٢ والذخيرة ٤٨٦/١ – ٥٣٥ وأخبارًا متفرقة عنه فى ٣٥٨/١، ٧٧١، ٧٨٧ وراجع رسالته فى تفضيل الورد على سائر الأزهار فى ١٢٧/٢ وراجع ٨١٩/٣.

شهيد وزيرا كتب له ابن برد ولم يوضح ابن بسام هل هو ابن برد الأصغر أو هو جده ابن برد الأكبر، وبالمثل يقول إن أبا القاسم الإفليلى كتب للخليفة المستكفى بعد ابن برد فى نفس السنة ولا يذكر هو الأصغر أو الأكبر، وأكبر الظن أنه الأصغر، وكأنه كتب للمستظهر فى الأشهر التى تولاها ثم كتب فترة للمستكفى بعده ولم يلبث أن أعفاه. وقد ظل ابن برد الأكبر حيا حتى توفى بسرقسطة عن ثمانين عاما سنة ٤١٨ ويبدو أنه رحل إلى تلك البلدة فى الشمال لما سمع من كرم منذر التجيبى أميرها وهبته لقصاده أموالا عظيمة. ويقول ابن برد الأصغر إن صروف الأيام باكرته بعد مصابه فى جده ويبدو أن الدنيا ظلت لا تبتسم له فترة غير قليلة كما يبدو أن أبواب دواوين قرطبة ظلت مغلقة دونه فى عهد جهور حين أصبح حاكمها المتصرف فى شئونها منذ سنة ٤٢٢ ولعل سبب ذلك عمله فى دواوين الخليفتين الأمويين: المستظهر والمستكفى. ومن المؤكد أنه ظل بقرطبة حتى وفاة ابن شهيد سنة ٤٢٦ ويقول المؤرخون أنه رحل منها إلى مجاهد الصقلبى أمير دانية (٤١٢ - ٤٣٤ هـ) وسنراه يوجه إليه أولى رسائله الأدبية الخاصة بالسيف والقلم وربما حنَّ إلى قرطبة ورفاقه فيها وعاد إليها، وقد يدل على ذلك أن نجد ابن زيدون حين سجنه جهور سنة ٤٣٢ يوجه إليه قصيدة كى يشفع له عند جهور أو عند ابنه أبى الوليد. وربما كان بقرطبة حين خلف أبو الوليد أباه سنة ٤٣٥ ومرَّت بنا رسالته البديعة إليه بتفصيل الورد على سائر الأزهار، ولعله كان يرمز إليه بالورد وأنه يفضل جميع أمراء الطوائف. وكان المظنون أن يظل بقرطبة، غير أننا نراه يؤثر المقام بالمريَّة عند أميرها معن بن صُمادح (٤٣٢ - ٤٤٣ هـ) الذى عرف له فضله، فاتخذه وزيرا له، وإليه قدم ابن برد كتابه: «سر الأدب وسبك الذهب» وافتتح ابن بسام ترجمة ابن برد بصدر هذا الكتاب وقد نوه فيه برعاية جده له وتخريجه كما مرَّ بنا، وأثنى ثناء غامرا على معن بن صمادح ورعايته للعلوم وفنون الآداب، وما أسبغ عليه من شرف المرتبة الرفيعة. وضمَّن الكتاب رسائلة السلطانية والإخوانية وطرَّز أبوابه بأبيات من الأشعار المحتوية على الحكم الجارية بجرى الأمثال. ومن المؤكد أنه قضى الشطر الأخير من حياته فى ظل هذا الأمير، ويقول الحميدى فى الجذوة إنه رآه فى المرية مرارا بعد الأربعين وأربعمائة، ولا ندرى هل لحق عصر المعتصم بن معن بن صمادح (٤٤٣ - ٤٨٤ هـ) أو أن القدر لم يمهله حتى عصره، أو حتى إذا كان أمهله فإنما أمهله إلى فترة قصيرة، ويشيد به ابن بسام قائلا:

«كان أبو حفص بن برد الأصغر فى وقته فلك البلاغة الدائر، ومثلها السائر، نفَث

فيها بسحره، وأقام من أَوَدِها (اعوجاجها) بناصع نظمه، وبارع نثره». وأتبع ذلك بفصول من تحميداته ورسائله الديوانية والشخصية وطائفة من أشعاره فى النسيب وغيره، وألحق أديب بترجمته فى الذخيرة من قديم ثلاثا من رسائله الأدبية فى: السيف والقلم، والنخلة، وأُهُب الشاء، وقدم لها بقوله إنها من بدائعه العُقْم (التى لا مثيل لها) المستنزلة للعُصْم (النوادر) ويقول إن ابن بسام لم يتجاف عنها غضا منها، ولكن ربما أعجله القدر أو لم يسمح له بها الزمن، وحرىّ أن نلمَّ بها فى إجمال.

(أ) رسالة السيف والقلم

كتب ابن برد بهذه الرسالة إلى الموفق أبى الجيش مجاهد أمير دانية مناظرا بين السيف والقلم متقدما مناظرتهما بالثناء عليهما معًا فهما مثل جوادين سبقا فى حلبة أو غصنين نُسِّقا فى تُرْبة، بل هما مثل نَجْمين أنارا فى أفق، وسَهْمين صارا على نَسق، غير أنهما جرَّرا أذيال الخيلاء تفاخرا، وادعى كل واحد منهما أن له الفوز على صاحبه وامتد بينهما الجدال والخصام، فقاما يتباريان فى المقال، ويتساجلان فى الخصال. وبدأ القلم فقال:

﴿نَ. والقَلمِ وما يَسْطرون﴾ فجلَّ من مُقْسم وعزَّ مَنْ قَسَم، لقد أخذتُ الفضلَ بِرُمَّته، وقُدْتُ الفخر بأزمَّته. فقال السيف: عُدْنا من ذكر الطبيعة إلى ذكر الشريعة، ومن وصف الخصلة إلى وصف الملة، لا أُسِرّ ولكن أُعلِنُ، قيمةُ كل امرىءٍ ما يُحْسِنُ، إنَّ عاتقا حَمَل نِجادى (حمائل سيفى) لسعيد، وإن عَضُدًا بات وسادى لسديد، أفصح والبطل قد خَرِسَ، وأبتسم والأجل قد عَبَسَ. فقال القلم: الحق أَبْلَجُ (مضىء) والباطل لَجْلَج (أعرج) أَجْلِبُ الغِنى من ضُروعه، وأَجْتَنِى النَّدى (الجود) من فروعه، وهل أنا إلا قُطْب تدور عليه الدول، وجوادٌ شَأْوُهُ (شَوْطه) يدرك الأمل، شفيع كل ملك إلى مطالبه، ووسيلته إلى مكاسبه فقال السيف: يالله! استنَّت الفِصال (أولاد النوق) حتى القَرْعَى[1]، وربَّ صَلَفٍ تحت الرَّاعِدة.[2] لقد تحاول امتدادا بباعٍ قصيرة، وانتفاضا بجَناح كسيرة، أمُسْتعرب (دخيل فى العرب) والفِلْسُ ثمنك، وكل بقعة وطنك؟ إن الملوك لتبادر إلى دَرْكِى، ولتتحاسد فى ملكى، ولتتوارثنى على النسب، والتغالى فىَّ على الحسب، فتُكَلِّلُنى (فتتوجنى) المرجان، وتُنْعِلنى العِقيان[3]، وتلحفنى بحمائل

---

(١) مثل يضرب لمن يفعل ما ليس له بأهل والاستنان هنا: العدو. وهو يشير إلى أن الفصال إذا عَدَتْ حاكتها أخواتها المصابة بالقرع.

(٢) مثل يضرب للبخيل. والراعدة: السحابة. والصلف: قلة المطر أى أنها مَنُوعٌ مع كثرة ما تحمل من المطر.

(٣) العقيان: الذهب. تنعله هنا: تكسو غمده.

كخمائل. فقال القلم: أستعيذ بالله من خطل أرعيتَ فيه سَوامَك (إبلك) وزَلل افتتحت به كلامك، إن ازدراءك بتمكن وجدانى، وبَخْس أثمانى، لنقصٌ فى طباعك، وقِصَرٌ فى باعك، ألا وإن الذهب معدنه فى العَفر (التراب) وهو أنفس الجواهر، والنار مكمنها فى الحجر، وهى إحدى العناصر، وإن الماء - وهو الحياة - أكثر المعايش وجِدْانا، وأقلّها أثمانا، وقلما تُلْقَى الأعلاق النفيسة إلا فى الأمكنة الخسيسة. فقال السيف: جَعْجَعَةَ رَحًى لا يتبعها طِحْن (دقيق) وجَلْجَلة رَعْد لا يليها مُزْنٌ، وجه لئيم، وجسم سقيم، ودموع سِجام، كأنهن سُخام (فحم) فهُبَّ من نومك، وأَفْطِرْ من صومك، إنى لو انتُضيت (سُللت) والشمسُ كاسفة لم ينظر وقت تجلِّيها[1]، أو السِّنون مجدبة أَيْقَنِ بالحَيَا (بالغيث) راعيها. أَكْرَعُ (أشرب) يوم الوَغَى فى لَبَّة البطل (أعلى صدره) فأعود كالخدِّ كُسِىَ صِبْغَ الخجل».

ولما كثر تعارضهما، وطال تناظرهما، ولم يَنْثِن أحدهما كهاما (كليلا) بادرا إلى السلم يعقدان لواءه، قائلَيْن إن من القبيح أن تتشتت أهواؤنا وتتفرَّق آراؤنا وقد جمعنا الله فى المألف الكريم، وقال القلم إن مما نُبرم به عَقْدنا، وننظم عِقْدنا إن حالت حال، وكان للدَّهْر انتقال، أن نَخُطَّ كتابا مُصيبا، يكون لنا مَنابا وعلينا رَقيبا، فقد يدبُّ الدهر بعَقاربه، بين المرء وأقاربه، واختار القلم أن يكون العَقْد شعرا، لأنه شَدْوُ الحادى، وزادُ الرائح والغادى. وسجله فى قطعة شعرية بديعة. وواضح ما امتاز به ابن برد الأصغر فى تلك المناظرة بين السيف والقلم من قدرة على صوغ الأدلة والبراهين فى لسانى الخصمين المتناظرين، إذ ما زال يؤلف لكل منهما حججا يُدْلى بها مع نقضه لحجج منافسه. وطبيعى أن لا ننقل تلك المناظرة بحذافيرها، فقد اجتزأناها مكتفين بما نقلناه منها للدلالة على قدرة ابن برد فى توليد الأفكار والبراهين وفى صوغ الكلام وحوكه حياكة تموج بالعذوبة، إذ كان يعرف كيف يصطفى ألفاظه وكيف يلائم بينها ملاءمات موسيقية بديعة.

(ب) رسالة النخلة

هى رسالة عتاب لصديق سبق أن عاتبه فى العام الفارط على كتمانه لرُطَب نخلة، وهى تُعَد بالأندلس إحدى الغرائب وفريدة العجائب، ويقول إنه سأله من جَناها قليلا، فقال له لو علمت أن لكم به هذا الكلف لأمسكته عليكم، ولكنه فى العام المقبل إن شاء

(١) يشير إلى كثرة الغبار فى الحرب حين تسلّ السيوف وتكر الخيل.

الله يكون غلَّتكم وعتادا نفيسا لكم وذُخْرا حبيسا عليكم، ويمضى ابن بُرْد قائلا له: «رسمنا تلك العِدَة فى سويداوات قلوبنا، ووكلنا بها حَفَظة خواطرنا، أما أنت فهِلْتَ عليها التراب، وأسلمتَها إلى يد البِلَى، حتى إذا أخذت النخلة زُخْرُفَها وازَّيَّنَتْ زينتها، وبلغت غايتها، وأشبع القمر صِبْغَها، وأحكمتِ الشمس نُضْجَها، جنيتها على حين نامَ السُّمَّار، وغفلت الجارةُ والجار، وأُبْتَ بها إيابة الأسد بفريسته.. ولما رأينا طلائع الرُّطب فى الأسواق، والجنِىَّ من بواكير النخيل على الأطباق، هزَّتْ جوانحنا ذكرى العِدَة، وقلقل أحشاءَنا حذرُ الخيبة، فركضنا الدوابَّ إلى حُرْمتك[1]، وجعلنا نسرع طمعا فى لقائك»

ويذكر ابن بُرْد لصاحبه أنهم حين وصلوا إلى مَحِلَّته لقيهم فتى ظريف، فسألهم عن مقصدهم، فقالوا له: إن جارك وصديقنا وعدنا منذ عام أن يسهم لنا فى جَنَى نخلة لديه، لم تتشقق تربة هَجَر المشهورة على الخليج العربى بتمرها عن مثلها، ولا آوت قمارىُّ (حَمام) البصرة إلى نظيرها، فجاءوها ليأكلوا منها ويعلموا أن قد صَدقهم ويكونوا عليها من الشاهدين. ويقول ابن بُرْد:

«قال الفتى يالإخوانى فى الخيبة أنا ساكنٌ فى المحلة التى مَنْبِتُ هذه النخلة فى ساحتها وقد صَرَمَها (قطعها) منذ خمسة عشر يوما، وقد كنت قبل صَرْمها أمنحها نظر العاشق إلى المعشوق، فإذا رَأَتِ الطيرُ وهى على سَعَفها ما أواصلُ إليها من لحظاتى، وأتابع عليها من زَفَراتى، رمتْنى بأفراد من رُطبها أَحْلَى من شفاه العَذارى، وأنا اليوم أبكى رَبْعًا خاليا».

ويتجه ابن برد بالحديث إلى صاحبه قائلا: ما هذه الخيانةُ للعهد، ويسأله شيئا مما ادخره منها لأعياده واعدًا له أن يناصبوا عنه أعداءه برا وبحرا وأن لا يعصوا له أمرا. ويصف له شيئا من كلام العرب فى النخل وبدء نَباته والبلح وتلوُّن حالاته وبعض منظومهم فيه لعله يذيب من جموده ويولِّد عَقيم جوده، ويورد عليه ما أُثر من قول الرسول ﷺ: «نعمت العمة لكم النَّخْلة» ويقول: «ليس من حقِّه أن يستبدَّ بخيرها ويمسك معروفها عنهم، ويختم الرسالة بقوله: «نستغفر الله ونسأله أن يبدلنا من بُخْلك نوالا، وبِمطْلك إعجالا». وهى رسالة طريفة بما فيها من فكاهة ومن قدرة على التصوير ومن سلاسة فى التعبير.

---

(١) الحرمة: ما لا يحل انتهاكه من صحبة أو حق.

(جـ) رسالة أُهُب الشَّاء

سمَّى ابن برد هذه الرسالة: «البديعة فى تفضيل أهب (جلود) الشَّاء على ما يُفْتَرَشُ من الوِطاء» وهو فيها يردُّ على من لامه على استخدام أُهُب (جلود) الشاء فى الجلوس شتاء وصيفا دون وَطِىء الفُرُشِ ورافهها من قِطَعِ البُسُط والسجاجيد والحَشايا. وهو فى فاتحتها يدعو الله أن يلهمه الرشاد ويمنحه الصواب ويعرِّفه بركة التواضع وينفِّره من الكبر، ويطيل فى المقدمة، ثم يقول للائمه:

«عِبْتنى - أعزَّك الله - بارتخاص الأشياء فى الشِّراء، وقلت لَمْ تؤثر ذلك إلا للؤم الخليقة، والهمة الدقيقة، وربما مالت نفسُ الحريص إلى الرَّخيص.. وسأفسح للكلام ميدانا، وأنثر عليك من الألفاظ مُرْجانا، وأعاطيك من سُلاف (خمر) المعانى أَكْوَابًا، وأُشِمّك من روض البيان آسًا.. جَلَّ ماله عبتَ وفيه قلت وردَّدت، وبه أبدأت وأعدتَ، من إيثارى فى الصيف والشتاء أُهُبَ (جلود) الشاء، ومُراوحتى منها فى البرد والحر، بين البَطْن والظهر. وأىُّ بساط مثلها أدلّ على التواضع وأعربُ عن القناعة وأدفأ فى السَّبْرَة (الغداة الباردة) وألين فى المَسِّ وأخفّ فى الحَمْل وأمكن للنَّقْلة وأوفق لمقدار الحاجة وأجدر بطول المتعة وأبقى على حدث الدهر، وأغنى عن تكلُّف التَّبْطين ومراعاة أوقات الترقيع. ولا تحوجك إلى خَيَّاط ينازلك فى السَّوْم (الثمن) ويُخْجلك أمامَ القوم، ويُنْتِحُ جَبينك (يجعله يرشح) بعرق الاختلاف إليه، وذلِّ التكرار عليه، وهو متبجِّحٌ (متمكن) فى دكانه، ومشتغل عن سوء مقامك باستطابة محادثة صبيانه، فتشمت العدوّ بنفسك، وتبدى ما كان مستورًا من حالك،وهذه (الأهب) بأنفسها مكتفية، وعن سواها مستغنية، مع صيانة المروءة ووقاية ماء الوَجْنَةِ، إن قَلَبْتَها لظهورها شتوت على وِثارة[1]، أو صرفتها لبطونها صِفْتَ فى لُدونة».

ويذكر ابن برد أن من يطلبها يشتريها فى الأضحية تقرُّبًا إلى ربه وطلبا لكريم ثوابه، ويقول إن رخص ثمنها فضيلة لها مع قلة المئونة والكلفة، ويذكر أن من فضلها أن جعل الله من جنسها كبشا فداء إسماعيل ابن خليله إبراهيم، وسماه فى تنزيله ذِبْحًا عظيما. ويقول لصاحبه إن الصوف زى النسَّاك والمنقطعين للعبادة، وقد استخدمها المعلمون لأنها الأرفق والأرْخص والأَوْفَق. ويختم هذه الرسالة الطويلة بالنصح لعائبه أن لا يستقبل

---

(١) يشير إلى فروة هذه الجلود من الصوف. والوثارة: الفراش الوثير: الوطىء الناعم.

بالذم من يفترشها مغتبطا بها، إذ لا يفترشها إلا الشيوخ الجِلّة من العلماء ذوى المهابة والوقار، يقول:

«لا تجد مفترشًا لها إلا شيخًا رائعَ الوَسَامة، أبيضَ الشَّعْرة، أُنْسَ إخوانه، وجِلْسَ (ملازم) أسطوانه[١]، قد حفظ المسائل وملأ من إجازات الشيوخ الخزائن، تقصده الفتيات والفتيان، وتفدِّيه الجارات والجيران، ويُتنافَس فى حضوره أيَّامَ الزِّفاف، ويختصّ بصدور المجالس وطيبِّات الصحاف، أو معلما.. قد ائتمنتْه الملوك على ثمار قلوبها وعماد ظهورها وقِطَعِ أكْبادها، يقعد عنده الورَّاقون، ويتحاكم إليه فى الخطوط الناسخون، فإذا كانت أيام الأخمسة والجمعات أطال قَلَنْساته[٢]، ووالى الزيارة بِمِنْساته[٣]، وسار مُهَيْنِما[٤] بتسبيحه وتقديسه وتهليله وتحميده، يزور الإخوان والمعارف، والكل هَشٌّ إليه، مقبل عليه. فإن عارضت هذا الجنس ضاقت عليك الأرض، وأخوك من صدقك، ومحبك من نصحك».

والرسالة تصوِّر قدرة ابن برد على صنع الأدلة والبراهين بحيث يأخذ على عائبه فى استخدام جلود الشياه كل المسالك، فهى تدل على فضيلتى التواضع والقناعة بالقياس إلى البسط والسجاجيد الفاخرة والحشايا الثمينة المزدانة. ومما يميزها دفء فروتها فى الشتاء القارس، وليونتها فى المسِّ وخفتها فى الحمل والانتقال من موضع إلى موضع. ثم هى لا تحتاج مثل الحشايا والبسط إلى تبطين كما لا تحتاج إلى ترقيع. ثم يعرض ابن برد صورة الخياط، وهو يساوم صاحب الحشية أوالسجادة فى أجرة الترقيع والتبطين مخجلا له أمام الناس، ويتفقان على الأجر. وما يزال الخياط يرجىء إنجازه لما يراد منه من تبطين أوترقيع، ويظل صاحب الحشية أوالسجادة يتردد عليه، وجبينه يرشح عرقا من ذل التكرار عليه، والخياط - مع إلحاحه عليه - منصرف عنه مع سوء وقفته أمامه، مشغول بمحادثة صبيانه أو عماله وكأنما يجد فى ذلك متعة له. وهى صورة بديعة تدل على روعة خيال ابن برد مع جمال الصياغة، وهو جمال يطرد فى نثره لما يعمه من نقاء فى اللفظ وصفاء وعذوبة.

---

(١) يريد أنه عالم يلازم عمودا فى المسجد يلقى محاضرته عنده ويتحلق حوله الطلاب لشهرته.

(٢) قلنسات: جمع قلنسوة.

(٣) المنسأة: عصا غليظة تكون مع الراعى يهش بها على غنمه.

(٤) مهينما: هامسا.

رسالتا ابن زيدون: الهزلية والجدية

ابن زيدون هو أحمد بن عبد الله بن زيدون المخزومى، القرطبى، وقد مرت ترجمته بين شعراء الغزل فى الفصل الرابع، وقلنا هناك إن حادثين كبيرين أثرا فى حياته، أولهما تبادله فى شبابه الحب مع الشاعرة ولادة بنت الخليفة المستكفى واتصال هذا الحب بينهما فترة ثم هجرها له إلى الأبد بسبب ما لاحظته من مغازلته إحدى جواريها، وقيل بل بسبب نقده لبعض شعرها، وقد يكون للسببين جميعا. وظل ابن زيدون يبكى حبها ووصلها طويلا، وكَلِفَتْ بعده بشخص كان يختلف مع غيره من شباب قرطبة إلى مُنْتداها هو ابن عبدوس، وهو موضوع رسالة ابن زيدون الهزلية. والحادث الكبير الثانى الذى كان له تأثير فى حياته، هو سخط أبى الحزم جهور أمير قرطبة عليه والزجّ به فى غياهب السجون مما جعله يستعطفه مرارا إلى أن عفا عنه وردَّ إليه حريته بشفاعة ابنه أبى الوليد، وفى استعطافه كتب رسالته الجدية، وحرىٌّ بنا أن نتحدث عن الرسالتين جميعا: الهزلية والجدية.

(أ) الرسالة[1] الهزلية

كتب ابن زيدون هذه الرسالة على لسان ولّادة إلى ابن عَبْدوس منافسه فى حبها متهكما به ساخرا منه سخريات لاذعة، وما يمضى القارئ فيها حتى يشعر بوضوح أنه استوحى فيها رسالة التربيع والتدوير للجاحظ التى سخر فيها من كاتب معاصر له يسمى أحمد بن عبد الوهاب كان يكثر من ذمه وثلبه، فوصفه بأنه مربع مدوَّر، وظل فى نحو خمسين صفحة من القطع الكبير يخلع عليه صورا ساخرة من الجمال وصورًا أخرى ساخرة من المعرفة، تتخذ شكل أسئلة فى تاريخ العرب والأمم القديمة وفى العلوم كيمياء وغير كيمياء وفى الحيوان والجماد وفى الفلسفة والمنطق مع سؤاله عن أسماء كثيرين من الرجال عربا وغير عرب فى ميادين الثقافات المختلفة. وكأن ابن زيدون رأى أن يجاريه فى رسالته، إذ مضى على شاكلته يكثر من أسماء الرجال وما يتصل بهم من التاريخ والأخبار والأحداث، مع محاولته الواضحة فى أن يكون لرسالته سماتها الخاصة لا فى طريقة عرضه لأسماء الرجال بها فحسب، بل أيضا بما أكثر فيها من ضرب الأمثال ونثر

---

(١) انظر هذه الرسالة وتعليقنا عليها فى كتابنا عن ابن زيدون (طبع دار المعارف) وراجع شرح ابن نباتة لها فى كتاب: سرح العيون شرح رسالة ابن زيدون. ومرت مصادر ابن زيدون فى ترجمته بالفصل الماضى.

الأبيات وجلب الأشطار، مما جعل الرسالة فى حاجة شديدة إلى التعريف بما عدد فيها ابن زيدون من الأعلام وأخبارهم ومن الأمثال والأشعار المنثورة، وتجرد لذلك ابن نباتة فى شرحه لها، وهو يستهلها على هذه الشاكلة:

«أما بعد أيها المصابُ بعقله، المورَّط بجهله، البَيِّن سَقَطُه، الفاحش غَلَطُه، العاثرُ فى ذَيْلِ اغتراره، الأعْمَى عن شمس نهاره، الساقط سُقُوطَ الذُّباب على الشراب، المتهافتُ تهافتَ الفَراش فى الشِّهاب (الضوء).. وإنك راسلتنى مستهديا من صلتى ما صَفِرَت (خلت) منه أيدى أمثالك، مرسلا خليلتك مرتادة وقد أعذرتْ (جهدت) فى السفارة لك، وما قصَّرتْ فى النيابة عنك، زاعمةً أن المروءة لفظٌ أنت معناه، والإنسانية اسمٌ أنت جِسْمُه وهَيُولاه (مادته) قاطعةً أنك انفردتَ بالجمال، واستأثرتَ بالكمال، واستعليتَ فى مراتب الجلال، واستوليتَ على محاسن الخلال، حتى خيَّلتْ أن يوسفَ عليه السلام حاسَنَك (باراك فى الحسن) فغَضَضْتَ منه، وأن امرأةَ العزيز رأتْك فسلتْ عنه، وأن قارونَ أصاب بعضَ ما كَنَزْتَ، وَكسرى حَمل غاشِيَتَك (مظلَّتك) وقيصَرَ رعى ماشيتك، والإسكندرَ قَتَل دارا فى طاعتك».

ويظل ابن زيدون يورد على ابن عبدوس رجالا وأعلاما تاريخيين عديدين، مدعيا أن جميعهم تصرَّفوا عن إرادته محاولين الزلفى إليه من مثل أردشير ملك الفرس القديم وجَذيمة الملك العربى الجاهلى. ويقول له إن شيرين زوجة أبرويز نافست ابنته بوران فيه وفى حسنه، وكليبا إنما حمى حِماه بعزته، ومهلهلا أخاه إنما طلب ثأره بهمته، وحاتما إنما جاد بأمواله والسُّلَيْك بن السُّلَكة العدَّاء الجاهلى إنما عدا على قدميه، وسحبان البليغ إنما كان يتكلم ببيانه، وأن الحجاج إنما تقلد ولاية العراق بحظِّه، والمهلب القائد الأموى إنما ظفر بالخوارج الأزارقة بقوته. وليس هناك فيلسوف لليونان أو عالم لهم - ويعددهم - إلا صدر عن فكره، وبالمثل ليس للعرب مفكر ولا فيلسوف مشهور إلا منحه القدرة على ابتداعه، وما بلغاؤهم بالقياس إليه؟ إن عبد الحميد الكاتب بارى أقلامه وسهل بن هرون مدون كلامه والجاحظ مستمليه، وبالمثل الفقهاء الكبار من أمثال الإمام مالك. بل هو الذى أقام البراهين ووضع القوانين وحَدَّ ماهية الأشياء وبيَّن الكيفية والكمية وناظر فى الجوهر والعرض وفرَّق بين الصحة والمرض. حتى إذا بلغ ابن زيدون من ابن عبدوس كل ما أراد من سخرية أخذ يكويه بسياط هجائه معددا صفاته الذميمة، وكأنما جمع كل مثلبة. وتتوالى المثالب، فهو خسيس أرعن مفرط الحمق سيئ الإجابة والسمع، ظاهر الوسواس، منتن الأنفاس، كلامه تمتمة وبيانه فهفهة، ودينه زندقة، وباقل المشهور بالعى

عند العرب بليغ بالقياس إليه، ووجوده عدم، والاغتباط به ندم، والخيبة منه ظفر والجنة معه سَقر، وأين هو من ولّادة؟ إن الشرق والغرب لا يجتمعان ولا يتقاربان. ويجعلها تهدده وتتوعده بسوء المصير حتى كأنما يطلب حَتْفه، ويقول له على لسانها مقارنًا فى سخرية شديدة بينه وبين من يختلفون إلى ندوتها من نوابغ الشباب الأفذاذ.

«النارُ، ولا العارُ، والمنيَّةُ، ولا الدَّنِيّة، والحُرَّة تَجُوعُ ولا تأكل بِثَدْييها، وما كنت لأتخطَّى المسك إلى الرَّماد، فإنما يَتَيَمَّمُ من لم يجد ماءً.. ولعلك إنما غَرَّك مَنْ علمتَ صَبْوَتِى إليه وشهدتَ مُساعفتى له من أقمار العصر، ورَيْحان المصر، الذين هم الكواكب عُلُوًّ هِمَمٍ، والرِّياضَ طيبَ شِيَمَ.. ما أنت وهُمْ؟ وأين تقع منهم؟ وهل أنت إلا واو عمرو فيهم، وكالَو سِيظَةِ (النتوء) فى العَظْم منهم. وإن كنت إنما عطَّرت أرْدَانَكَ (أكمامَك) وجَرَرْتَ سِرْوالَك، واخْتَلْتَ فى مِشْيَتِك، وحذفتَ فضول لِحْيَتِك، وأصلحت شارتك، ومططت حَاجبك، ورقَّقت خَطَّ عِذارك، واستأنفتَ عَقْد إزارِك، رجاءَ الاكتنان فيهم، وطمعا فى الاعتداد منهم، فظننت عَجْزًا، وأخطأتَ الغرض».

وتمضى ولادة قائلة لابن عبدوس فى سخرية مرة: فلو أن عمرو بن هند ملك الحيرة أعطاه بُرْدَيْه وحَلَّتْه مارية بنت ظالم زوجة أحد ملوك الغساسنة بالقُرْطَيْن اللذين أهدتهما إلى الكعبة، وقلَّده عمرو بن معد يكرب الفارس القديم سيفه الصمصامة، وحمله الحارث بن عباد سيد وائل فى الجاهلية على فرسه النعامة، ما شكَّت فيه ولا أخفى ذلك كله أصله ونسبه، وهل يجتمع لها فيه إلا خَلَّتان سيئتان: كأردأ التمر وسوءِ كَيْله وهل يقترن عليها به إلاما اقترن على عامر بن الطفيل الذى دعا عليه الرسول ﷺ فاقترنت غُدَّه فى رقبته بموته ميتة ذليلة فى بيت سَلُولِيَّة. وتقول له هازئة به ساخرة إنه كان أجدر به أن يقدر الأمر تقديرا دقيقا فلا يكلف نفسه ما لا تستطيعه، حتى لا يكون مثله مثل الكلبة بَرَاقِش التى غزا أصحابها قوم فلم يعرفوا مكانهم ونبحت فدلَّتْهم، وضَرَب العرب بها المثل فى الشؤْم، فقالوا «دَلَّتْ على أهلها بَرَاقِش». ويختم ابن زيدون الرسالة قائلا على لسانها: «قد أعذرتُ إن أَغْنَيْتُ شَيًّا، وأَسْمَعْتُ لو ناديتُ حَيًّا، وإن بادرتَ بالندامة، ورجعت على نفسك بالملامَة كنتَ قد اشتريت العافيةَ لك بالعافية منك، وإن أنشدت:

لا يُؤْيسنَّك من مخدَّرةٍ قَوْلٌ تغلِّظه وإن جَرَحا[1]

فعُدْتَ لما نُهيت عنه، وراجعتَ ما استعفيتَ منه بعثتُ من يزعجك إلى الخضراء

---

(١) البيت لبشار.

(الريف) دفعا ويستحثك نحوها وَكْزًا (ضربا) وصَفْعًا، فإذا صرتَ إليها عبث أكَّاروها (فلاحوها) بك، وتسلَّط نواطيرها (متعهدو بساتينها) عليك بما قدَّمتْ يداك، لتذوق وبال أمرك، وترى ميزان قدرك».

وبدون ريب بلغ ابن زيدون فى هذه الرسالة الذروة بالسخرية من ابن عبدوس، وقد أصبح فى يده كلُعْبة تارة يعلو به فيرفعه إلى السموات العليا فى القوة والسلطان والعلوم والفلسفة والبيان والبلاغة وتارة يسقط به فيهوى من حالق إلى الحضيض والدرك الأسفل. وهو فى كل ذلك يزدرى عقله وعلمه وأدبه وفكره وهيئته وكل ما يتصل به. ويسوق ابن زيدون للإغراق فى السخرية به أعلام التاريخ القديم والإسلامى وأعلام الفلسفة والعلوم والبيان العربى، وكأنه هو الذى نفث فيهم كل ما امتازوا به. واستكثر فى الرسالة من الأمثال ومن نثر الأشعار، وهو لا يطرف فيها بذلك فقط، بل يطرف أيضا بالألفاظ الجارحة الموجعة الملأى بسموم التهكم.

(ب) الرسالة[1] الجدية

كتب ابن زيدون هذه الرسالة يستعطف بها أبا الحزم جهورًا أمير قرطبة حين ألقى به فى غياهب السجن ووراء قضبانه، لما قيل من نهبه عقارًا لبعض مواليه، وقيل - وهو الأصح - بل لما دُسَّ عليه عند جهور من اشتراكه ضده فى مؤامرة فاشلة، وظل يدبج فيه القصائد ويرسل إليه الشفعاء، وهو لا يعفو عنه ولا يصفح، فدبَّج له هذه الرسالة الرائعة مستهلا لها بقوله:

«يا مولاىَ وسيدى الذى وِدادى له، واعتمادى عليه، واعتِدادى به، وامتدادى منه، أبقاك الله ماضىَ حَدِّ العَزْم، ثابتَ عَهْدِ النعمة، إن سلبتنَى - أعزَّك الله - لباسَ إنعامك، وعطَّلتنى من حَلْى إيناسِك، وأظمأتنى إلى برَود (بارد) إسعافِك، ونَفَضْت بى كفَّ حياطتك (رعايتك) وغضضت عنى طَرْف حمايتك، بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلى لك، وسمع الأصمُّ ثنائى عليك، وأحَسَّ الجمادُ باستنادى إليك، فلا غَرْوَ قد يغَصُّ بالماء شاربُه، ويَقْتل الدواءُ المستشفِىَ به، ويُؤْتَى الحذِرُ من مَأمنه.. وإنى لأتجلَّد وأُرِى الشَّامتين أنى لرَيْبِ الدَّهر لا أتَضَعْضَعُ، فأقول: هل أنا إلا يَدٌ أدْماها سِوارُها، وجَبِينٌ عضَّه إكْلِيلُه، ومشرفىٌّ ألصقه بالأرض صَاقِلُه، وسَمْهرِىٌّ[1] عرضه على النار مُثَقِّفه..

---

(١) انظر فى هذه الرسالة وتعليقنا عليها كتابنا عن ابن زيدون، وراجع شرح الصفدى لها فى كتابه: «تمام المتون شرح رسالة ابن زيدون».

(٢) المشرفىّ: السيف. السمهرىّ: الرمح.

وهذه النكبةُ سحابةُ صَيْفٍ عن قليل تقشَّع، ولن يَريبَنى - من سيدى - أَنْ أَبْطأَ سَيْبُه (عطاؤه).. فأبطأُ الدِّلاء فَيْضًا أملؤها، وأَثْقَلُ السحائب مَشْيًا أَحْفَلُها (أملؤها) وأَنْفَعُ الحَيَا (الغيث) ما صادف جَدْبًا، وألذُّ الشرابِ ما أصاب غِليلًا».

وابن زيدون - فى مطلع رسالته - يسترحم جهورا مستعطفا، فطالما أثنى عليه وطالما ظن أنه سيسبغ عليه نعمه، فإذا هو ينزل به عقابا أليما. ويتجلَّد للنكبة، ويحاول أن يسرِّى عن نفسه، ويخال كأنه يد أدماها سوارها أو جبين عضَّه تاجه أو سيف ركزه صاقله فى الأرض أو رمح سوَّاه على النار صانعه. ويمنى نفسه بأن نكبته سحابة صيف ستنجلى ويعود إلى سماء الود الصَّحْوُ والصفاء، وإذا كان عطاء جهور على ثنائه ومديحه أبطأ فإن أبطأ الدلاء فيضًا أغزرها وأثقل السحاب مسيرةً فى السماء أملؤها، وأنفع الغيث ما صادف أرضا مجدبة، وألذ الشراب ما صادف نفسا ظامئة، ويستمر فيهوِّن من ذنبه مخاطبا جهورا بقوله:

«ليت شِعْرى ما هذا الذنبُ الذى لم يَسَعْهُ عَفْوُكَ، والجهلِ الذى لم يأت من ورائه حِلْمُك.. وما أَرانى إلا أُمِرْتُ بالسجود لآدمَ فأبيتُ واستكبرتُ، وقال لى نوحٌ: اركبْ معنا فقلت: (سآوى إلى جبلٍ يَعْصِمُنى من الماء)، وأُمِرْتُ ببناء الصَّرح (لعلِّى أَطَّلِع إلى إله موسى) وعكفتُ على العجل، واعتديت فى السَّبْت، وتعاطيتُ فعَقَرْت، وشربت من ماء النهر الذى ابْتُلِىَ به جنود طالوتَ، وعاهدتُ قريشا على ما فى الصحيفة، وانخذلتُ بثلث الناسِ يومَ أُحُد، وتخلَّفتُ عن صلاة العصر فى بنى قُرَيْظَةَ، وجئت الإفْكَ على السيدة عائشة الصِّدِّيقيَّة، وأَنِفتُ من إمارة أُسامة، ومزَّقت الأديمَ[1] الذى باركتْ يَدُ الله عليه، وضحيَّت بالأشْمَط[2]، ورَجَمْتُ الكعبةِ».

وهو يقول كأننى اقترفت كبيرة مثل كبيرة إبليس حين استكبر وأبى السجود لآدم معلنا عصيانه لربه، أو ارتكبت ما ارتكبه ابن نوح حين عصى أمر أبيه فلم يركب معه فى السفينة فكان من المُغْرَقين، أو كأنه ارتكب جريرة فرعون حين أمر وزيرَه هامانَ أن يَبْنى له صرحا لعله يرى إله موسى، أو جريرة بنى إسرائيل حين عبدوا العِجْلَ وحين اعتدوا فى يوم السَّبْت فصادوا فيه، أو جريرة عاقرِ ناقة صالح (فدمدم عليهم ربهم بذنبهم) وأهلكهم، أو جريرة جنود طالوتَ الذى حرَّم عليهم الشرب من نهر فخالفوه، أو جريرة

---

(١) يشير إلى مقتل عمر بن الخطاب.

(٢) الأشمط: عثمان بن عفان.

(٣) راجم الكعبة الحجاج فى حربه لابن الزبير.

من تعهدوا لقريش بما فى الصحيفة التى كتبوها من مقاطعة الرسول وأصحابه، أو جريرة أُبَىّ بن سَلول حين انخذل بمن معه من المنافقين عن رسول الله يوم أُحُدٍ، أو جريرة من تخلفوا عن صلاة العصر مع الرسول فى بنى قُرَيْظة من اليهود، أو جريرة من شاركوا فى حادثة الإفك والبهتان على زوج الرسول السيدة عائشة بنت الصديق، أو جريرة من أنفوا من تولية أسامة الصحابى الجليل على رأس جيش، أو جريرة قاتل عمر بن الخطاب أو جريرة قتلة عثمان بن عفان، أو جريرة رَجْم الحَجَّاج للكعبة، إلى عظائم أخرى ذكرها لا يُعَدّ ذنبه بجانبها شيئا مذكورا. ومضى ابن زيدون يقول إنه لا ذنب له إلا وشاية مشّاء بنميم، ويُشْهد الله أنه ما غشّ جهورا ولا انحرف عنه ولا عاداه بعد أن تشيع له وأصبح فى عداد خاصته مما سوَّل لحساده أن يوغروا صدره عليه بوشاياتهم ونمائمهم الدنيئة، يقول:

«كيف لا تتضرَّم جَوانِحُ الأكفاء (النُّظَراء) حَسَدًا لى على الخصوص بك، وتتقطَّع أنفاسُ النُّظَراء منافسةً فى الكرامة عليك؟ وكيف وقد زاننى رَسْمُ خدمتك، وزهانى وَسْمُ نِعْمتك، وأَبْلَيْتُ البلاءَ الجميل فى سِماطك (صَفِّك) وقمتُ المقامَ المحمودَ على بِساطك.. وهل لَبِسَ الصباحُ إلا بُرْدًا طرَّزْتُه بفضائلك، وتقلَّدتِ الجوزاءُ إلا عِقْدًا فصَّلتُه بمآثرك، واسْتَمْلَى الربيعُ إلا ثناءً ملأتُه بمحاسنك، وبَثَّ المسكُ إلا حديثا أذعته فى محامدك؟. ما يومُ حليمة بِسِرٍّ. ولم أَكْسُك سَليبا، ولا حَلَّيتك عُطْلا، ولا وسَمْتك غُفْلًا بل وجدتُ آجُرًّا وجِصًّا فبَنَيْتُ، ومكانَ القول ذا سَعةٍ فقلتُ. حاشَ لك أن أُعَدَّ من العاملة الناصبة، وأكون كالذُّبالة المنصوبة تضيىء للناس وهى تحترق، فلكَ المثل الأعلى وهو بك، وبى فيك، أولى».

وهو يقول لجهور إنه من الطبيعى أن تضطرم جوانح النظراء حسدا وتتقطع أنفاسهم غيظا لمنزلتى منك وقد ازدنت بخدمتك وازدهيت بنعمتك، وأبليت البلاء الجميل فى صفك ونصرتك وقمت المقام المحمود على بساطك، أنثر بين يديك خِلَع مدائحى المضيئة بفضائلك، وعقود ثنائى المنظومة بدررِمآثرك، ولكأنما عطرُ الربيع إنما يفوح بمحاسنك وشذى المسك إنما يُذيع أحاديث محامدك، ويقول: ما يوم حليمة بسر أى أن ذلك كله مشهور، ويصيح إن جهورا لم يكن سليبا أو عاريا فكساه ولا عُطْلا غير مزدان فحلّاه ولا غفلا غير معلم فوسمه وأبداه، بل لقد وجد آجُرًّا وجِصًّا فبنى وشاد قصائده، ويقول حاش لجهور أن أُعَدَّ عنده من العاملة الناصبة إشارة إلى آية التنزيل: ﴿وجوهٌ يومئذ خاشعة عاملةٌ ناصبة تصلى نارا حامية﴾ وأيضا حاش لجهور أن يعده كالذبالة أو فتيلة

السراج تضيىء للناس وهى تحترق وتلفظ أنفاسها الأخيرة. وتَعِزُّ على ابن زيدون نفسه، فيقول إنه لن يصبر على الذل والهوان، ويقول إن الأدب خير وطن للأديب وإنه لا يُجْفَىَ فى أى مكان ينزل به فأينما توجّه ورد أعذب منهل وضُوحك قبل إنزال رحله، وأُعطى حكم الصبى على أهله. وكأنه يلمِّح بأنه سيفارق وطنه قرطبة إلى من يعرف له حقه ويقدر أدبه. وتهدأ نفسه فيعود إلى صوابه، ويعلن محبته لوطنه وأنه لا يؤثر عليه أى وطن كما لا يؤثر على أبى الحزم جهور أى أمير، ويأخذ فى استعطافه حتى يعفو عنه ويصفح عن زلته، يقول:

«إن الوطنَ محبوبٌ، والمَنْشَأَ مألوفٌ، واللبيبُ يحنُّ إلى وطنه حنينَ النَّجِيبِ (البعير) إلى عَطَنِه (مَبْركه) والكريم لا يجفو أرضا فيها قَوَابِلُه (دایاته) ولا ينسى بلدًا فيها مَراضعه. هذا إلى مغالاتى بِعَقْد جِوارك، ومنافستى فى الحظِّ من قربك، واعتقادى أن الطمع فى غيرك طَبَعٌ (دناءة) والغنى من سواك عَناء، والبدلَ منك عَوَزٌ (فاقة) والعِوَض لَفَاء (خِسَّة). وما هذه البراءة ممن يتولاّك؟ والميل عَمَّنْ لا يميلُ عنك، وهلاَّ كان هواك فيمن هواه فيك، ورضاك لمن رضاه لك».

ويظل ابن زيدون إلى نهاية الرسالة يستعطف أبا الحزم جهورا كي يرد إليه حريته، ويضيف إليها قصيدة استعطاف بديعة، ويختمها بقوله لجهور: «هَبْ ذَنْبًا لِحُرْمَةٍ، واشْفَعْ نعمةً بنعمة، ليتأتَّى لك الإحسانُ من جهاته، وتسلكَ إلى الفضل من طُرقاته». والرسالة تكتظ بالأمثال وبالأحداث التاريخية فى عهود الرسل وفى الإسلام، كما تكتظ باقتباسات من القرآن الكريم والأشعار مع حَلٍّ كثير منها، ومع رهافة الشعور ودقة الحسِّ وصفاء الذوق فى انتخاب ذلك كله وفى اختيار الألفاظ والتنسيق بينها تنسيقا بديعا. ولكثرة ما فى الرسالة من أمثال العرب ووقائع التاريخ والأشعار احتاجت إلى الشرح وشرحها الصفدى، وسمى شرحه «تمام المتون شرح رسالة ابن زيدون» وواضح من كلمة المتون التى اختارها اسما لكتابه أنه شَعرَ أن الرسالة تشبه المتون لكثرة ما فيها من الأمثال وغير الأمثال، مما يحتاج إلى تفسير وفضل بيان، وهى - كأختها السالفة - آية بديعة من آيات النثر الأندلسى.

رسالة ابن غرسية فى الشعوبية والردود عليها

ابن غرسية[١] هو أبو عامر أحمد بن غَرْسية، كان من أبناء نصارى البَشْكُنْس فى شمالى إسبانيا، سُبى صغيرا - كما يقول ابن سعيد - وأدَّبه مجاهد مولاه ملك دانية والجزر المقابلة لها فى البحر المتوسط شرقى الأندلس (٤٠٥ - ٤٣٦ هـ) وكان مجاهد من فتيان المنصور بن أبى عامر الصقالبة الذين دان لهم شرقى الأندلس فى أوائل عصر أمراء الطوائف أثناء الفتنة التى أطاحت بالدولة الأموية. ولما رأى براعة ابن غرسية البشكنسى فى العربية والكتابة ألحقه بدواوينه، وأخطأ جولدتسيهر فى مقاله عن الشعوبية الإسبانية، فظن أنه كان فى خدمة المعتصم ابن صُمادح التجيبى أمير المريَّة (٤٤٢ - ٤٨٤ هـ). وله رسالة يذم فيها العرب ويفخر بالعجم كتب بها لا إلى أبى عبد الله بن الحداد شاعر المعتصم بن صمادح كما ظن جولدتسيهر وبروكلمان، وإنما إلى أبى جعفر أحمد بن الجزار كما جاء عند ابن سعيد، وذكره ابن بسام باسم ابن الخراز وهو تصحيف بدليل هجاء ابن غرسية له الذى أنشده ابن سعيد فى ترجمته إذ هجاه بأنه سليل أسرة كانت تحترف الجزارة. ويقول ابن بسام إنه خاطب برسالته الأديب أب جعفر بن الجزار معاتبا له لتركه مدح مجاهد (الصقلبى أمير دانية) واقتصاره على مدائح ابن صمادح التجيبى (العربى) الذى كان أميرا للمرية فى حياة مجاهد المتوفى سنة ٤٣٦ وهو معن بن صمادح مؤسس دولة الصمادحية بالمرية (٤٣٢ - ٤٤٣ هـ) لا ابنه المعتصم كما ظن ابن سعيد ومن ظن ظنه من المستشرقين. والرسالة تشغل فى الذخيرة نحو تسع صفحات، ونقتطف من فِقرِها قوله:

«سلام عليك ذا الرَّوِىِّ المَرْوِىِّ الموقوفَ قريضُه على حَلَلة بَجَّانة أَرْشِ اليمن[٢]، بزهيد الثمن.. ولو أن القوم خلطوك بالآل، لما ألجأوك إلى الخَبْط فى الآل[٣]، مَهْ، مَهْ[٤]

---

(١) انظر فى ابن غرسية ورسالته الذخيرة ٧٠٤/٣ وما بعدها والمغرب لابن سعيد ٤٠٦/٢ وبحثا لجولد تسيهر عن «الشعوبية عند مسلمى الأندلس فى مجلة الجمعية الألمانية الشرقية المجلد ٥٣ ص ٦٠١ - ٦٢٠ (طبع ليبزج) وتاريخ الأدب الأندلسى عصر أمراء المرابطين للدكتور إحسان عباس ص ١٧٠ وما بعدها وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان (طبع دار المعارف) ١٤١/٥ والمجموعة الثالثة من نوادر المخطوطات للأستاذ عبد السلام هرون وبها ملخص لمقال جولد تسيهر المذكور. وراجع فى أبى جعفر أحمد بن الجزار الذى كتب إليه ابن غرسية بالرسالة وأنه من أسرة كانت تحترف الجزارة المغرب ٣٥٥/٢ - ٣٥٦.

(٢) ذا الروى: القصيد. حللة بجانة: سكانها وهى بجوار المرية. أرش هنا: اقليم.

(٣) الآل الأولى: الأهل والأصل. والثانية: السراب.

(٤) مه: كُفَّ.

مَنْ أَحْوجك إلى ركوب المَهْمَه[١] وإذا يَمَّمْت بطن تَبالةَ تَتَبَالَه، وصرت ضِغْثًا على إبَّالة[٢].. وأحسبك أن أَزْرَيْت، وبهذا الجيل النجيب (يقصد مجاهد أو الصقالبة) ازدريت، وما دريت أنهم الصُّهْبُ الشُّهْب ليسوا بعرب، ذوى أَيْنُق جُرْب، بل هم القياصرة الأكاسرة، بُهَمٌ لا رُعاة شُوَيْهاتٍ ولا بهَمَ[٣]، شُغلوا بالماذَيِّ والمُرَّان، عنِ رَعى البُعْران[٤]، وبجلْب العِزِّ عن حَلْب المَعْز، جَبابرة قيَاصِرَة، صُقورة غلبت عليهم شُقورة، صُقورة الخُرْسان[٥]، لكنهم خَطَبة بالخِرْصان، أرومةٌ روميَّة وجرثومة صُفْرِيَّة.. فلا تهاجُرَ بنى هاجَر، أنتم أرقاؤنا وعَبَدتنا، وعتقاؤنا وحفدتنا، مننَّا عليكم بالعِتْق، وأخرجناكم من رِبْق (كرب) الرق، وألحقناكم بالأحرار فغمطتم النعمة، فصَفَعْناكم صَفْعا، يشارك سَفْعَا، اضطرَّكم إلى سُكْنَى الحجاز وألجأكم إلى ذات المَجَاز[٦]. وإذا قامت الحرب على ساق، وأخذت فى اتساق، وقُرِعت الظَّنابيب، وأشرعت الأنابيب، وقَلَّصَت الشِّفاه، وفغر الهِدانُ فاه، وولَّى قفاه، ألفيتهم ذَمَرة الناس[٧] عند احمرار الباس، الطَّعْنُ بالأسل، أحلى عندهم من العَسَل، تزدان بهم المحافل والجَحَافل، كواكبُ المواكب، قُيُولٌ، على خُيول، كأنهم فيُول، نجومُ الرُّجُم من العجم، ضراغمة الأجَم، تَبَحْبحت عنهم سارةُ الجمال والكمال، ربَّةُ الإياة[٨].. دوَّخوا المشارقِ والمغارب، فاستوطنوا من المجد الذِّروة والغارب غَنُوا بالإستبرق (الحرير) عن البَتّ (الكساء) المجموع من النُّعَيْجَات طعامهم الحَنيذ (اللحم المشوى) لا الهَبيد (الحنظل) بُسُلٌ (شجعان) لا حُرَّاس

---

(١) المهمه: الفلاة.

(٢) تبالة: بلدة صغيرة باليمن يشير إلى أصل الأسرة الصمادحية التجيبية اليمنية. صغث على إبالة: مثل يضرب للبلية فوق البلية.

(٣) الصهب الشهب: ذوو الوجوه المشربة حمرة يريد العجم من صقالبة وغير صقالبة. بُهَم: بضم الباء فرسان حرب، وبفتحها صغار الغنم.

(٤) الماذى: السيوف. المران: الرماح. البعران: جمع بعير.

(٥) صقورة: جمع صقر. شقورة: حمر. الخرسان: الصقالبة. كانوا يلقبون أيام الدولة الأموية بالخرس لعجمة لسانهم، ويقول إنهم فصاح بالخرصان أى الرماح.

(٦) هاجر زوجة إبراهيم: أم النبى إسماعيل أصل العرب. عبدة وحفدة: عبيد وخدم. سفعا: لَطْما على الوجوه. ذات المجاز: سوق فى الجاهلية كانت بقرب مكة.

(٧) قامت الحرب على ساق: اشتدت، وكذلك قول العرب قرعت الظنابيب وأشرعت الأنابيب. الهدان: الجبان. ولَّى قفاه: انهزم. ذمرة: يحثون على القتال. الأسل: الرماح.

(٨) الجحافل: الجيوش الضخمة . قُيُولٌ: جمع قيل: ملك. الرجم: الشهب: يتساقطون على الأعداء مثلها. الأجم: جمع أجمة غيل الأسد وهى الشجرة الملتفة. تبحبحت عنهم: ولدتهم فى عزة وسارة زوجة النبىّ إبراهيم أم إسحق. الإياة هنا: الحسن.

مُسُلٍ (جريد النخلَ) ولاغرَّاسُ فُسُل (صغار النخل).. فكُفَّ أيها الشَّانِ، فلهم عظيم الشَّانِ واليَدُ الطُّولى إذ تخلَّصوكم من يد الحُبْشان.. رَسَخَتْ فى المجد أصولُنا وفروعنا، ومَنْ يطُولنا، وكل الوَرَى قد شمله فضلنا وطَوْلنا[١]، ذوو الآراء الفلسفية والعلوم المنطقية حَمَلة الأسترلوميقى والجومطريقى، والعَلَمة بالأرثماطيقى وأنولوطيقى والقَوَمة بالموسيقى والبوطيقا[٢]، والنَّهَضة بعلوم الشرائع والطبائع، والمهرة فى علوم الأديان والأبدان، ما شئت من تدقيق، وتحقيق، حبسوا أنفسهم على العلوم الدينية والبدنية لا على وصف الناقة الفَدَنية (الضخمة).. فلا فخر معشر العُرْبان الغِرْبان، بالقديم المفَرَّى الأدِيم[٣]، لكن الفخر بابن عمِّنا (يريد الرسول صلى الله عليه وسلم)، الذى بالبركة عَمَّنا، الإسماعيلى الحسب، الإبراهيمى النسب الذى به إنما انتشلنا الله تعالى وإياكم من الغَواية والعَماية، ولا غَرْوَ أن كان منكم حِبْره وسِبْره، ففى الرَّغام يُلْفَى تِبْرُه».[٤] وينوه بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم:

«لله مما قد بَرَا صفوةٌ ... وصفوةُ الخَلْقِ بنو هاشمِ
وصفوة الصَّفوة من بينهم ... محمدُ النورُ أبُو القاسمِ

بهذا النبى الأمىِّ أفاخرُ مَنْ يفخر، وأكاثر جميعَ من تقدم وتأخَّر، المنيف (الرفيع) الطرفين، الشريف السَّلَفَيْن، المتلقىَّ بالرسالة، والمنتقى للأداء والدلالة، أصلِّى عليه عددَ الرَّمْل، ومَدَد النَّمْل، وكذلك أصلِّى على واصلى جناحه، سيوفِه ورماحه، صحابته الكرام، عليهم من الله أفضل السلام».

وابن غرسية يفتتح رسالته بالسخرية من أبى جعفر بن الجزار الذى يقف قريضه وشعره على نزَلة بجاية والمرية بإقليم اليمن فى شرقى الأندلس مختصًّا به عرب الأسرة الصَّمادحية أمراء المرية وما والاها دون مجاهد الصقلبى ذى الأصل الشريف والنسب الرفيع، ويأخذ فى التهكم بابن الجزار والتهجم على العرب، فهو قد تعلق بآل أو بسراب، وعمَّ وجهه نحو تبالة اليمنية، فتبًّا له لقد أصابه البله، وأصبحت محنته محنتين. ويعجب أن

---

(١) الغارب: الكاهل يريد مادون الذروة. الشان الأولى: الشانىء: المبغض الحاقد. الطولى: سابغة النعم. ويشير: بالحبشان إلى حكمهم اليمن فترة قبل الإسلام . يطولنا: يفوقنا. الطول: الفضل.

(٢) الأسترلوميقى: علم الفلك. الجومطريقى: الهندسة. الأرثماطيقى: الرياضة. أنولوطيقى: القياس المنطقى. البوطيقا: الشعر.

(٣) المفرى الأديم: الممزق جلده.

(٤) الغواية والعماية: الضلال. حِبره وسبره: حسنه وبهاؤه. الرَّغام: التراب. التبر. فتات الذهب.

يزرى ابن الجزار على مجاهد وقومه الصقالبة. ويبدو أنه كان قد هجاه، فأخذ يشيد به وبقومه الصّهب حمر الوجوه، ويقول إنهم ليسوا بعرب ذوى نوق جُرْب. ويضم إليهم العجم قاطبة، ويقول إنهم ملوك قياصرة وأكاسرة، فرسان لا رعاة أغنام ولا غارسو زروع يعيشون للحرب وحمل السلاح. ويستغلّ ما قيل من أن هاجر أم إسماعيل كانت جارية لسارة زوجة أبيه إبراهيم، فيزعم أنهم منوا على العرب بنعمة العتق ونعمة الحرية، وأسكنوهم الحجاز إشارة إلى نزول هاجر وابنها إسماعيل بمكة. ويطيل فى الحديث عن فروسية العجم وبطولتهم فى الحرب وانشغالهم بالسيوف عن الملاهى وربات الأقراط أو الشنوف. ويقول إن لباسهم الإستبرق لا الصوف وطعامهم اللحم المشوى لا الحنظل ولا الضب، وسكناهم القصور لا الخيام وبيوت الشعر. ويفخر على العرب بأن الفرس من العجم خلصوا اليمن من يد الحبش أيام الجاهلية، كما يفخر بأم العجم سارة ويتغنى بجمالها وكمالها. وأيضا يفخر بأن العجم أصحاب العلوم الفلسفية والفلكية والهندسية والرياضية والمنطقية والموسيقية والشعر، لا أصحاب النوق الفدنية الضخمة. وابن غرسية فى كل ذلك يستمد من أصحاب الشعوبية فى القرن الثانى والثالث بالعصر العباسى، وكانت أهم مطاعنهم على العرب - كما أوضحتها فى كتاب العصر العباسى الأول - أنهم كانوا فى الجاهلية بدوا رعاة أغنام وإبل، ولم يكن لهم ملك ولا حضارة ولا مدنية ولا علوم، فأين هم قديما من ملك الأكاسرة والقياصرة؟ وأين هم من علوم الفرس واليونان والرومان. وكان الشعوبيون يصدرون فى ذلك عن بغض للإسلام، ولذلك اقترنت الشعوبية عند كثير منهم بالزندقة والإلحاد فى الدين الحنيف. وشعوبية ابن غرسية فى رسالته لا تقترن بإلحاد ولا بزندقة، ومع أنه شعوبى ذميم يعلن فى نهاية رسالته تمجيده للرسول ﷺ ولصحابته.

وليس بين أيدينا فى الأندلس أعمال صدرت عن نزعة الشعوبية سوى هذه الرسالة لابن غرسية، وحقا هناك كتاب صُنِّف قبلها سُمِّى: «الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضل الصقالبة». ومن المؤكد أن نزعة الشعوبية فى الأندلس كانت نزعة فردية، ولم تتحول - كما تحولت فى القرنين الثانى والثالث بالعراق - إلى نزعة اجتماعية تقوم على معاداة العرب والإسلام. ولم تكد رسالة ابن غرسية تُشْعلها حتى انطفأت، بل لقد أطفأها هو نفسه فى نهاية رسالته إذ أعلن تمسكه بالدين الحنيف وإشادته بالرسول وصحابته من المهاجرين والأنصار. ومع ذلك نجد ردودا عليه، لكن لا بأبحاث مطولة تهدم الشعوبية، كما نرى عند الجاحظ وابن قتيبة مما عرضناه مفصلا فى حديثنا عن تاريخ الأدب العربى

بالعصر العباسى الثانى وإنما برسائل تنقض مزاعمه نقضا حميًّة للعرب والعروبة. وفى الذخيرة لابن بسام ثلاث رسائل منها رسالة لابن الدودين وثانية لعبد المنعم بن منّ الله القروى، وثالثة لشخص يسمى ابن عباس لم يوضح هويته ابن بسام. وظلت ردود تدبَّج فى القرن السادس الهجرى، منها رد لابن أبى الخصال باسم: «خطف البارق وقذف المارق فى الرد على ابن غرسية الفاسق». وسقط هذا الرد من يد الزمن كما سقط رد الفقيه أبى مروان عبد الملك بن محمد الأوسى، ورد عبد المنعم بن الفرس، ورد عبد الحق بن فرج، ووصلنا رد أبى يحيى بن مسعدة المعاصر لعبد المؤمن بن على مؤسس دولة الموحدين وكذلك رد أبى الحجاج يوسف البلوى المتوفى سنة ٦٠٤ إذ سجَّله فى موسوعته: ألف باء، وهو يكثر فيه من الشعر. ونقف قليلا عند الردود الثلاثة الأولى ورد أبى يحيى بن مسعدة.

وأولى الرسائل الثلاث عند ابن بسام رسالة أبى جعفر[١] أحمد بن الدودين البلنسى، ويقول ابن بسام إنه أملاها عليه بالأشْبونة سنة ٤٧٧ وهو يفتتحها بسب ابن غرسية مع تهديد شديد ومع هجاء قومه من العجم هجاء مقذعا أشد الإقذاع رادا كلَّ مثلبة للعرب فى رسالة ابن غرسية إلى محمدة لهم وكل محمدة للعجم إلى مثلبة، ومن قوله فيها:

«اخْسَأْ أيُّها الجَهُولُ المارق، والمرذولُ المنافق، ثكلتْك أمُّك، حَبَّرْتَ بِحبْرِك لذهاب خبرك، ومَشَقْتَ[٢] فى قرطاسك لمشَقْ رأسك، وما حقيقةُ جوابك على خطلِ خطابك إلا سَلْبُك عن إهابك (جلدك) وصَلْبُك على بابك، وأُقسم ببارئِ النَّسَم، وناشر الأمَم من رُفاتِ الرِّمَم.. لأخلِّدنَّك سَمَرًا غابرا، ومثلا سائرا، أو تَحْتَزِم بزُنَّارك[٣] وتلحق بأدْيَارِك، مآلك، ومَقَرِّ آلِك، أسرتِك الأرْذَلين، وعِتْرَتِك الأنْذلين الصُّهب (الحمر) أكَلَةِ الجِيَف.. وأما فخرك بربَّة الإياة (سارة) فياليتها حين ولدتكم ثَكِلتْكم، فلقد سَرْبَلْتموها عارا مجدَّدا، وعصبتم بها شَنارًا (عارا) مخلَّدا، حين خِمْتُم[٤] عن الكفاح، حَذَر الصوارم والرماح، فأسلمتم لعُداتها، من بَناتها، كل طَفْلَة ردَاح[٥]، جائلة الوِشاح[٦]، ذات ثَغْرٍ

---

(١) انظر فى ترجمة ابن الدودين ورسالته الذخيرة ٧٠٣/٣ وما بعدها وراجع ترجمته فى المغرب ٣٢٢/٢ ورسالته فى مجموعة هرون.

(٢) مشقت: طعنت. مشق: طعن وقطع.

(٣) الزنار: حزام كان يشده النصارى فى أوساطهم تمييزا لهم.

(٤) خمتم: جبنتم ونكلتم.

(٥) طفلة: ناعمة. رداح: ضخمة الردف.

(٦) جائلة الوشاح: كناية عن دقة الخصر.

كالأقاح، وغُرَّة كالصباح.. ووصفُك قومك بأن ليسوا حَفَرةَ أُكَر[١]، ولا حَفزَةَ عَكَر[٢]، الله أجلُّ الأُكَرَ أن يَحْفروها، والعَكر أن يَحْفزوها، لكنهم خَفَرَة جِحْشان، وحَفَرةُ كهوفٍ وغِيران[٣]، اتخذوها مَخْبأً من قبائل العُرْبان، ومَلْجأ من وَقْع الصَّوارم والمُرَّان، فعلَ الخِزَّان[٤] واليرابيع والجُرْذان. وأما وصفك قومك أنهم مُجُدٌ، نُجُدٌ، فهيهات تلك صفات قومنا العرب أولى اللَّسَن والبيان والإسهاب فى الصواب، والحكمة وفصل الخطاب، أنْديتهم عِراصُ المنيَّة، وأَرْديتهم بِيضُ المشرفيَّة، ولُبُوسهم مضاعفةُ الماذِيَّة[٥]، مجالسهم السُّروج، وريحانهم الوَشِيج[٦]، مُناهم، تعجيل مَناياهم، أسودُ الأَغْيال[٧]، حُماة الأشبال».

والرسالة الثانية عند ابن بسام فى الرد على ابن غرسية رسالة[٨] أبى الطيب عبد المنعم بن منّ الله القروىّ، دخل الأندلس، ودرَّس الحديث فى شرقيها إلى أن توفى سنة ٤٩٣، وكان أديبا شاعرا، واطلع على رسالة ابن غرسية فاستثارته، وكتب نقضا لها رسالة سماها «حديقة البلاغة ودوحة البراعة، المورقة أفنانها، المثمرة أغصانها بذكر المآثر العربية ونَشر المفاخر الإسلامية والردِّ على ابن غرسية فيما ادعاه للأمم الأعجمية» وهى تمتد فى الذخيرة إلى نحو خمس وعشرين صحيفة، ويقول له فى مطالعها:

«أَخْبِرْنى عنك أَمَا كانتْ للعرب يَدٌ تَشْكرها، ومِنَّةٌ تذكرها؟ أما جَبَرتْ نقيصتَك؟ أما رفعتْ خَسِيستَك؟ ألم تُرَبِّك فينا وَلِيدا؟ ألم تتَّخذك بها تِليدَا؟[٩] ألم تُعْنَ بتخريجك وتدْرِيجك؟ أما أنطقتك بعد العجمة؟ أما أَسْلَقَتْكَ[١٠] عقبَ اللُّكْنة، حتى إذا اشتدّ كاهلُك، وقوىَ ساعدك، كفرتَ نعمتهَا لديك، ونَثَرْت عِصْمتها من بين يديك.. وهات أرنا مفاخرَك نُرِك مساخرَك، أنت صاحبُ الشُّهبْ الصُّهْب أين أنت عن السُّمْر القُمْر[١١]، البيضِ غُرَرًا وصِفاحا[١٢]، الدُّعْج عيونًا ورِماحا، البُلْجِ[١٣] وجوها وسماحا؟ سعَروا

---

(١) أكر: حُفَر.
(٢) عكر: إبل.
(٣) جحشان: جمع جحش. غيران: جمع غار.
(٤) الصوارم: السيوف. المران: الرماح. الخزان: أولاد الأرانب. الجرذان: الفئران.
(٥) المشرفية: السيوف. الماذية: الدروع.
(٦) الوشيج: الرماح.
(٧) الأغيال: جمع غيل: بيت الأسد.
(٨) انظر فى ترجمة ابن من الله ورسالته الذخيرة ٣/٧٢٢ - ٧٤٦ وراجع فيه الصلة: ٣٧١ وانظر فى رسالته المجموعة الثالثة من نوادر المخطوطات لهرون.
(٩) تليدا: هنا: مقيما.
(١٠) أسلقتك: أتاحت لك السليقة العربية.
(١١) القمر جمع أقمر: المشرق الوجه.
(١٢) الصفاح: السيوف.
(١٣) البلج: المشرقون.

(أوقدوا) عليكم نارَ الحرب، بتلك الأيْنُق الجُرْب، فكسَروا أكاسرتكم، وقصَروا قياصرتكم، فسفكوا دماءهم، وأباحوا أحْماءهم[١]، وأخمدوا نارَ صَوْلتهم، ومحوا آثارَ دولتهم، وطهَّروا الأرضَ المقدسةَ من أنْجاسكم والمسجدَ الأقصى من أرْجاسكم. وَيْحك بِمَ آثرتَ (فضلت) وبمن كاثرتَ (فخرت) أما استحييتَ مما انتحيتَ؟ هل كانت العرب إلا كنزَ عِزٍّ وذُخْر فخر، وخبيئةً ذخَرها الله إلى الوقت المحتوم ليختار منها صَفِيَّه، وميزًها ليميز منها حَفِيَّه. يمشى أحدهم إلى الموت ثابتة وَطْأتُه، فسيحةً خُطْوتهُ، شديدةً سَطْوَتُه، لَبقًا بتصريف القَناةِ بنانُه، بصيرا بمهج الدارعين سنانُه.. أليس شعارُكم: الهربَ، الهربَ، هذه العرب.. وما تركوا من الأعاجم عاجما، ولا ناجما، وساروا يَذْبَحُونَ البرَّ ذبحا، ويَسْبَحون البحر سَبْحا، حتى طَرَقكم طارقُهم[٢] فى هذا الطَّرَف، ورشقكم راشِقُهم فى هذا الهدف، وملكوا أرضَكم بساحتيها، وأحاطوا بها من ناحيتيها، سلبوها بأقطارها وحَلبوها من أشطارها».

ويطيل ابن من الله فى الفخر بدول العرب قبل الإسلام، وبشجاعتهم وفروسيتهم، ومايزال يتتبع مفاخر العجم عند ابن غرسية ناقضا لها حتى فى العلوم. وينوه بعلم العرب فى الفلك والطب وبراعتهم فى الغناء والموسقى. ويضع له أمام عينيه فخر العرب برسولها محمد سيد ولد آدم الذى به بزَّت الأمم، ويطلب إليه أن يتوب توبة تهديه وتنجيه. والرد الثالث الذى ساقه ابن بسام يذكر أنه اقتبسه من كتاب[٣] لابن عباس رد فيه على ابن غرسية، ولا يعرِّفنا بشخصية ابن عباس هذا، وحديثه يدور على الهجاء المقذع ولا يخرج عما رأينا فى الرسالتين السالفتين من نقض مزاعم ابن غرسية نقضا يصيب قومه العجم فى الصميم.

ومثل هذه الردود فى الرد المفحم على رسالة الشعوبية لابن غرسية رسالة[٤] أبى يحيى ابن مسعدة، وهو يستهلها بهجاء شديد فابن غرسية غَثيث (لا خير فيه) آبق وَقاح لئيم الجدود. وبعد قَرْع صَفاه، وصَفْع قفاه، ينتقل إلى الحديث عن دين العجم وأقانيمه الثلاثة وعقيدة التثليث وينكر أن يكون إبراهيم الخليل أبا للعجم أو تكون سارة زوجته أمًّا لهم

---

(١) أحماء: جمع حمى.

(٢) تورية لطيفة عن طارق بن زياد فاتح الأندلس.

(٣) انظر الذخيرة ٧٤٦/٣.

(٤) راجع فى أبى يحيى بن مسعدة ورسالته المجموعة الثالثة من نوادر المخطوطات لعبد السلام هرون.

أو تكون هاجر أمةً لسارة. وينقض على ابن غرسية كل ما أشار إليه من خبر أو أسطورة تتصل بالعرب، ويشَوْيه ويَشْوى العجم معه بسياط من أهاجيه، ويتهكم على ما افتخر به من علوم الأعاجم، ويقول إنه كفخر الجارية بهودج سيدتها، إذ العلوم التى ذكرها إنما هى علوم اليونان والفرس والكلدان. ويتهكم على موسيقاهم التى يندبون بها فى نواحهم ويقصفون عليها فى أعيادهم. ويفخر بانتصار العرب على الفرس والروم فى القادسية واليرموك. ويتمدح بما يجلبه العجم للعرب من القيان والدِّنان، كما يتمدح بشغف العرب بالمرأة وما لهم فيها من الغزل الرقيق مع ما يميزهم من الشجاعة والإقدام حتى ملكوا الأرض، وتلك منازلهم منها بمكان الغُرَّة. ويقول ابن مسعدة: كفى ابن غرسية والعجم أن فى العرب رسول الله هادينا ومرشدنا سيد البشر وشفيع هذه الأمة وسفير يوم العرض وإمام أهل السموات والأرض، وبه يفاخر العرب البشر، ويناظرون الشمس والقمر. ويشيد ابن مسعدة فى ختام الرسالة بابن تومرت داعية الموحدين وخليفته عبد المؤمن بن على مؤسس دولتهم فى المغرب والأندلس.

وواضح - مما تقدم - أن الشعوبية فى الأندلس لم تؤيدها إلا رسالة وحيدة لابن غرسية البشكنسى، وكأنها شىء عارض أو كأنها حجر ألقى فى بحر لجى للعروبة، فلم تترك أثرا وراءها سوى ما كان من كثرة الردود عليها طوال القرنين الخامس والسادس للهجرة، وهى كثرة تدل - دلالة بيِّنة - على تعمق نزعة العروبة فى الأندلس وأن الأندلسيين كانوا يستشعرونها دائما بقوة، أما ما نقرؤه أحيانا عن عالم أندلسى أو أديب هناك من أنه كان شعوبيا فإنما كان يوصف غالبا بذلك لنزعة وطنية تجعله يشيد بأبناء وطنه لا لنزعة شعوبية معادية للعرب. وقد ظلت الأندلس بعيدة عن استشعار تلك النزعة كما ظلت بعيدة عن استشعار نزعة الزندقة والإلحاد المعادية للإسلام.

رسائل نبوية ومواعظ

(أ) رسائل نبوية

للأندلسيين كتابات كثيرة فى مناقب الرسول ﷺ، على شاكلة كتاب الشفا فى التعريف بحقوق المصطفى للقاضى عياض حافظ المغرب والأندلس المتوفى سنة ٥٤٤ ولسنا نريد الحديث عن مثل هذه الكتابات الجليلة إنما نريد أن نتحدث عن رسائل نبوية كثيرة صوَّر فيها الأندلسيون شوقهم الحار لاكتحال عيونهم برؤية الروضة الشريفة

ضارعين إلى صاحبها عليه السلام أن يكون شفيعهم إلى غفران ربهم يوم القيامة، يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه. ومنذ أواخر عصر أمراء الطوائف تتكاثر الرسائل النبوية إذ أخذ الكتاب فى الأندلس يستشعرون محنة بلدهم وما يتهدّدُها من الأخطار فبثوا شكواهم إلى الرسول ﷺ فى رسائل تفيض بوجد ملتهب لزيارة قبره الشريف وبتوسل ضارع لشفاعته يوم الحشر الأكبر. وأخذوا – مع تقدم الزمن – يضمِّنون رسائلهم بعض الأحداث فى الأندلس آملين من الرسول الغوث والعون على أعدائهم وأن تدور عليهم الدوائر. ومن طريف ما نقرأ فى تلك الرسائل رسالة لأبى القاسم بن الجد المتوفى سنة ٥١٥ ومرت بنا ترجمته، وله رسالة نبوية كتبها على لسان صديق صَدر من بيت الله الحرام وزيارة قبر رسوله عليه السلام، وقد امتلأ قلبه شوقا إلى العودة لزيارة الروضة الشريفة، مؤملا فى شفاعته، والحشر فى عداد زمرته وجماعته، وفيها يقول ابن الجد:[1]

«صلوات الله على خاتم الرُّسُل وناهج السُّبُل، وناسخ جميع المِلل.. وعليه من لطائف التسليم ما يُرْبى على عدد النجوم، ويُزْرِى بالمِسْك المختوم، ويَقْتَضِى باتصاله رِضا الحىِّ القيوم.. ولما صدرتُ يا رسول الله عن زيارتك الكريمة، وقد ملأتْ هيبتُك ومحبتك أرجاءَ فكرى، وفضاءَ صَدْرى، وغِشيَنى من نور برهانك ما بَهَرَ لُبِّى، وعمرَ قَلْبى، لحقنى من الأسف لبعد مزارك، والحنين إلى شرف جوارك، ما أوْدَعَ جَوَانِحِى التهابا، وأوْسَعَ جَوارحى اضطرابا، وأشْعَر أملى عَوْدًا إلى محلّك المعظَّم وإيابا، وكيف لا أَحِنُّ إلى قربك، وأتهالك فى حُبِّك، وأعفِّر خَدِّى فى مقدَّس تُرْبك، وبك اقتديتُ فاهتديتُ، وكيف لا يتحرَّك نحوك نزاعى، ويتأكّد انقطاعى. وبك استشفاعى، وإليك مَفْزَعى يوم الداعى، فلا تنسَ لى – يا رسول الله – عِياذى بك ولِياذى، واذكرنى فى اليوم العظيم المشهود، عند حَوْضك المورود، وظِلِّك الممدود، ومقامك المحمود».

والرسالة تصور هذا الشوق المضطرم فى قلب كل مسلم يسعد بزيارة الروضة الشريفة ويتملَّى بنورها الباهر. وما إن يعود زائره إلى موطنه حتى يضطرم شوقه من جديد لينعم بزيارته آملا أن يكون له حظ فى شفاعة صفىّ الرحمن وحبيبه المصطفى من خلقه. ويذكر ابن خير الإشبيلى فى فهرسته أن لابن السيد البطليوسى عبدالله بن محمد المتوفى سنة ٥٢١ رسالة كتب بها إلى قبر الرسول ﷺ، وبالمثل ذكر ابن خير أن لابن أبى الخصال المتوفى سنة ٥٤٠ – ومرت ترجمته – رسالة كتب بها متوسلا إلى قبر الرسول

---

(١) انظر الرسالة بترجمة ابن الجد فى الذخيرة ٢/٢٨٦.

obeikandi.com

ومعها مقطوعة شعرية، كتبها بلسان أحد الزمنى (المقعدين) آملا فى شفائه، فلما وضعت عند القبر الشريف برئ المقعد بإذن الله وببركة رسوله الأمين. وتظل هذه الرسائل النبوية تكتب من الأندلس وترسل إلى الروضة النبوية طوال الحقب الأندلسية التالية، ويلقانا من كتّاب هذه الرسائل ابن الجنان وسنخصه عما قليل بترجمة. وكان يعاصره أبو الحسن[١] الجيانى على بن محمد الأنصارى الذى تولى القضاء ببعض نواحى إشبيلية، واستكتبه آخر أمراء الموحدين: الرشيد (٦٢٩ - ٦٤٠ هـ) وظل يتولى الأعمال السلطانية حتى توفى سنة ٦٦٣ للهجرة، وله رسالة بارعة كتب بها إلى الروضة الشريفة وفيها يقول[٢]:

«إلى سَيِّد المرسلين، ورسولِ رب العالمين، الذى جُعِلَتْ له الأرض مَسْجِدا وطَهورا، وكان - ولم يزل - منتقلا من صلب آدمَ نُورا.. المصطفى المختار الذى انشقَّ له القمر، ودان له الأسْوَدُ والأحْمر، ولاح النور الإلهى من قَسَماته، وعَرَفَه الكهنة والأحْبار قبل كونه بسِماته، بُشْرَى الكليم[٣] الميمون النقيبة[٤] والطليعة، المشير إلى الأصنام فخرَّتْ صَرِيعة.. من العبد المذنب الذى ثبَّطَتْه الأقدار، وعاقه الفلك المُدار، عن الحلول بمشاهدك الكريمة، والمُثول فى معاهدك التى هى لِصَادِى الأمل أَنْقَعُ دِيمة[٥].. كتبتُه، وأنا أتنفَّس الصُّعَداء[٦]، وأناجى بل أَغْبِطُ أهل زيارتك السعداء، ولِلزَّفرات تصعُّدٌ وانحدار، وللعبرات تردُّد فى الجفن وانهمار، وكيف ألَذُّ حياةً ولم أعبر لزيارتك سَبْسَبًا[٧] ولا لُجَّة، ولا أقمت على دعوى الشوق إليك بُرْهانا ولا حُجَّة، لَأَلْثِمَ مواطئَ سَعَى فيها بالوحى الرُّوحُ الأمين، وتخطَّى عَرصاتها[٨] سيدُ المرسلين كيف لى أن أمرِّغ الخَدَّ فى عَبير ثَرَاها، أو أبلغ الجَدَّ[٩] الأعظم عندما أراها، اللهم ياربَّ أَنْجِدْ عبدك المسىء وأعنْه على أداء الفريضة، وطيِّبْ قلبه بانتشاق ريح طَيْبة[١٠]، ولا تجعل أمله فيك ورجاءه فى كرمك إلى إخفاقٍ وخَيْبة»

والرسالة طويلة، وقد ذكر فيها أبو الحسن الجيانى طائفة من المعجزات النبوية. ويقف

---

(١) انظر فى ترجمة أبى الحسن الجيانى الذيل والتكملة للمراكشى (تحقيق د. إحسان عباس) ٢٨٧/٥ وما بعدها.

(٢) انظر الرسالة عند المراكشى ٢٨٨/٥.

(٣) الكليم: موسى عليه السلام.

(٤) النقيبة: الطبع والسجية.

(٥) صادى: عطشان. ديمة: سحابة هاطلة.

(٦) الصعداء: المشقة. يتنفس الصعداء: يتنفس نفسا ممتدا.

(٧) السبسب: الفلاة.

(٨) عرصاتها: ساحاتها.

(٩) الجد: الحظ.

(١٠) طيبة: المدينة.

على باب الروضة الشريفة مسترحما لذنبه شفيعَ المذنبين يوم الهول الأكبر الذى تغذى بحبه طفلا وشابا وكهلا، وإنه ليأمل فى اللقاء بحبيبه، وفى فؤاده لوعة لا تنطفئ وفى عينيه دموع لا تجف، وإنه ليتمنى لو طيَّب وجناته بتراب طيبة وتحقق له هذا الأمل العظيم. ويدعو ربه ضارعا أن ينيله أداء فريضة الحج وزيارة الرسول الكريم حتى يفوز بسعادة ما تماثلها سعادة.

وتسقط حينئذ مدن الأندلس العظمى: قرطبة وإشبيلية وبلنسية ومرسية وطليطلة وبطليوس فى حجر حملة الصليب الشماليين، ونرى هذه الرسائل النبوية الموجهة إلى الروضة الشريفة تضم إلى تصوير التعلق بالرسول والشغف بزيارته والتوسل إلى شفاعته تضرعا إليه كى ينصر المسلمين فى الأندلس على أعدائهم الشماليين، ومن خير ما يمثل هذه الرسائل رسالتان[1] للسان الدين بن الخطيب كتبهما إلى الرسول عليه السلام على لسانى سلطانى الأندلس أبى الحجاج يوسف الغالب بالله (٧٣٣ - ٧٥٥هـ) وابنه محمد الغنى بالله (٧٥٥ - ٧٩٣هـ) وربما كانت رسالته الأولى أروع من أختها الثانية، وقد افتتحها بقصيدة بديعة، يصور فيها الشوق الذى أضْنَى أبا الحجاج لزيارة قبر الرسول ﷺ، ويفخر بأن جده سعد بن عبادة كان من أنصار دينه الحنيف. ويعتذر بتقصيره عن زيارته باشتغاله بجهاد الجلالقة والقشتاليين حملة الصليب الشماليين، وتلى ذلك الرسالة، وهى طويلة، ويفتتحها لسان الدين على لسان سلطانه أبى الحجاج بقوله:

«إلى رسولِ الحقِّ، إلى كافَّةِ الخَلْق، وغَمَامِ الرحمة الصادق البَرْقِ، والحائزِ فى ميدان اصطفاء الرحمن قصَبَ السَّبْق، خاتَمِ الأنبياء، وإمامِ ملائكة السماء، ومن وَجَبَتْ له النبوة وآدم بين الطِّين والماء.. نبىِّ الهدى الذى ختم به الرسالة ربُّه، وجرى فى النفوس مجرى الأنفاس حُبُّه، الشفيع المشفَّعُ يوم العَرْض، المحمود فى ملأ السماء والأرض.. فائدة الكون ومعناه، وسرِّ الوجود الذى بهر سَنَاه، مَنِ الأنوارُ من عنصر نوره مستمدَّة، والآثارُ تَخْلَق[2] وآثاره مستجدّة، مَنْ طُوِىَ بِساطُ الوحى لفقده، وَسُدَّ بابُ الرسالة والنبوة من بعده».

وهذه القطعة الرائعة فى تمجيد الرسول يغمسها ابن الخطيب فى فكرة الحقيقة المحمدية

(١) تنظر فى الرسالتين الإحاطة (طبعة عنان) [illegible] صبح الأعشى ١٤/٤٦٩.
٤/٥٢٧ وما بعدها، وراجع فى الرسالة الأولى [illegible] تحقق: تبلى.

obeikandl.com

التى ردَّدها بعض الصوفية ذاهبين إلى أن الروح المحمدية سبقت فى الوجود صورة محمد الجسدية، وهو بذلك يسبق آدم، بل يسبق جميع الكائنات وكأنه مبدأ الرسل وخاتمهم، بل مبدأ الوجود جميعه، فكل نور فى الكون مستمد من نوره ومستعار منه. ويستمر ابن الخطيب فى هذا التمجيد متحدثا عن معجزات الرسول، قائلا إن الرسالة من عتيق شفاعته وعبد طاعته. ويصور تشوق أبى الحجاج إلى الاكتحال بمشهد روضته الشريفة، حتى يطفئ غلته ويسكن لوعته، ويعتذر بجهاده لحملة الصليب وما يلقى فى هذا الجهاد هو وجنوده من أهوال تعوقه عن أن يشد الرحال إلى الروضة العبقة الطاهرة، يقول:

«عاقتنى عن زيارتك العوائقُ إذْ أصبحتُ بين عدوٍّ تتكاثف أفواجُه، ويحجبُ الشمسَ عند الظهيرة عَجَاجُه[١]، فى طائفة من المؤمنين بك وطَّنوا على الصبر نفوسهم، وجعلوا التوكل على الله وعَليك لَبوسَهُمْ، واستعذبوا فى مَرْضاة الله تعالى ومَرْضاتك بُوسَهم، يطيرون من هَيْعةٍ[٢] إلى أخرى، ويتلفَّتون والمخاوف يُمْنَى ويُسْرَى، ويقارعون - وهم الفئةُ القليلة - جموعًا كجموع قيصرَ وكسرى، قد باعوا من الله تعالى الحياة الدنيا، لأن تكون كلمة الله تعالى هى العُلْيا، فيالَهُ من سِرْبٍ مَروع، ودعاء إلى الله وإليك مرفوع، وصِبْية حُمْرِ الحواصل[٣]، تخفق فوق أوْكارها أجنحة المناصل[٤]، والصليب قد تمطَّى ومدَّ ذراعيه.. وما ضعفت البصائر ولا ساءتْ الظنون، وما وُعد به الشهداءُ تعتقده القلوبُ حتى تكاد تراه العيون إلى أن نلقاك غدا إن شاء الله وقد أَبْلَيْنا العُذْرَ، وأعملنا فى سبيل الله وسبيلك البِيضَ والسُّمْرَ[٥]، وأَرْغَمْنا الكُفْرَ».

وهذه القطعة من الرسالة تصور الجهود المضنية التى كان يبذلها مسلمو الأندلس فى جهاد حملة الصليب، وقد جاءوهم - كالذرِّ عند انتشاره - من شمالى إسبانيا ومن البلدان الأوربية، يريدون أن يقتلعوهم من البقية الباقية من ديارهم. وتستبسل الفئة القليلة أمام تلك الجموع الغفيرة نحو ثلاثة قرون متطاولة، بائعة أنفسها لربها متزاحمة على حياض الاستشهاد لنصرة دينه حتى تكون كلمته هى العليا، وحملة الصليب ما ينون يغيرون وما تنى سحب سيوفهم تتجمع فوق ديارهم وأوكار أفلاذ أكبادهم، والفئة القليلة تنازلهم مستميتة نزالا ضاريا وكثيرا ما دقَّت أعناقهم دقا. والرسالة الثانية للسان الدين كتبها

---

(١) عجاجه: غباره.

(٢) هيعة: صيحة.

(٣) حمر الحواصل: تشبيه لأطفال غرناطة بصغار الطير حين تكون حمراء الحواصل ولا تستطيع الطيران.

(٤) المناصل: جمع منصل: السيف.

(٥) البيض: السيوف. السمر: الرماح.

سنة٧٧١ بلسان السلطان الغنى بالله، كما ذكرنا، وفيها يصور للرسول الكريم تنكيله بحملة الصليب فى غير موقعة بعونه وجاهه، مع الاعتذار عن شد الرحال إليه لانشغاله بجهاد الطغاة البغاة. وكانت توجَّه إلى الروضة الشريفة من أطراف العالم الإسلامى رسائل نبوية مماثلة لما قدمناه ممجدة له ومتشفعة إليه فى الأغراض الدنيوية والأخروية، غير أنها كثرت فى الأندلس لبعد الديار واتصال الحروب هناك مع أعداء الدين الحنيف، وحرىّ بنا أن نتوقف قليلا عند ابن الجنان.

ابن[1] الجَنَّان

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الأنصارى المعروف باسم ابن الجنان، من أهل مرسية فى شرقى الأندلس نشأ بها وحفظ القرآن الكريم واختلف إلى حلقات شيوخها ونهل منها كل ما استطاع من علوم دينية وآداب عربية، وفيه يقول ابن الخطيب: «كان محمد راوية ضابطا، كاتبا بليغا وشاعرا بارعا» ويقول الغبرينى: «كان من أهل الرواية والدراية والحفظ والإتقان فقيها وكاتبا بارعا وأديبا». وكان مفرطا فى القصر حتى يظن مبصره أنه طفل ابن ثمانية أعوام. ولفضله وأدبه استكتبه المتوكل بن هود حين ملك مرسية سنة ٦٢٥. وضاق بهذا العمل فتركه وحين تمكن العدو من قبضته على مرسية، سنة ٦٤٠ خرج منها واستقر بمدينة أريولة شمالى مرسية. وسمع به ابن خلاص صاحب سبتة على الزقاق، فاستدعاه، ولبىَّ دعوته، وأكرمه وحظى عنده، ونراه يتوجه إلى مدينة بجاية بإفريقية ويستقر بها إلى أن لبَّى نداء ربه فى عشر الخمسين وستمائة.

وكان ابن الجنان شاعرا مبدعا كما كان كاتبا محسنا، ويقول ابن الخطيب «له فى الزهد ومدح الرسول ﷺ بدائع، ونظَم فى المواعظ للمذكرين كثيرا» وأنشد المقرى له فى الجزء السابع كثيرا من مدائحه النبوية، وهو يسترسل فيها متحدثا عن شمائل الرسول وخصاله الكريمة ومعجزاته الباهرة ونبوته وقدسيته ومرتبته العليا بين الرسل وشفاعته لأمته يوم الحشر، وينشد له المقرى مخمسا نبويا طريفا يستهله على هذا النحو:

الله زادَ محمدًا تكريما ... وَحَبَاهُ فَضْلًا من لَدُنْه عظيما
واختصَّه فى المرسلين كريما ... ذا رَأْفةٍ بالمؤمنين رحيما
صَلُّوا عليه وسَلِّموا تسليما

---

(١) انظر فى ترجمة ابن الجنان ورسائله ومواعظه ومدائحه النبوية الإحاطة ٣٤٨/٢ وعنوان الدراية للغبرينى ٢١٣ ونفح الطيب ٤١٥/٧ وما بعدها.

ويضيف إلى هذا الدور فى المخمس نحو ثلاثين دورا، والمخمس يسيل سلاسة وعذوبة، وأدواره تختتم بقوله: «صلوا عليه وسلموا تسليما». ولا تقل روعةً عن مدائح ابن الجنان للرسول عليه السلام رسائله ومواعظه النبوية. ومن أروعها رسالة احتفظ بها المقرى كتب بها من الأندلس إلى سيد الكونين صلى الله عليه وسلم، وفيها يقول:

«السلامُ العميمُ الكريمُ، والرحمةُ التى لا تَبْرَحُ ولا تَرِيمُ[١]، والبركةُ التى أولها الصلاةُ وآخرها التسليمُ، على حضرة الرِّسالة العامَّة الدعوة والنبوَّة، المؤيدة بالعِصْمة والأَيْدِ والقوة، ومَثابةِ البِرِّ والتقوى، فهى لقلوب الطيبين صَفًا ومَرْوَة[٢] مقرّ الأنوار المحمدية، والبركات السَّرْمَدِيَّة، أَمْتَعَ الله الإسلامَ والمسلمين بحراسةِ أضوائِها، وكَلاءَةِ[٣] ظِلالها العليَّة وأَفْيَائِها[٤]، وأقر عَينْ عَبْدِها بِلَثْم ثَراها، والانخراط فى سِلْكِ مَنْ يراها. السلامُ عليك يا محمد، السلام عليك يا أحمدُ، السلام عليك يا أبا القاسمِ سلام مَنْ يمدّ إليك يَدَ الغريق، ويرجو الإنقاذ ببركتك من نَكَدِ المضيق، ويتقطَّع أسفًا ويتنفَّس صُعُدًا[٥] كلما ازدلف[٦] إليك فريق، وعَمَرتْ نحوك طريق، ولا يُفْتُر صلاةً عليك له لسانٌ ولا يجفُّ ريق: كتبته يارسول الله وقد رحل المجدّون وأقمتُ، واستقام المستعدون وما استقمتُ، وبينى وبين لَثْم ثَراك النبوىِّ، ولَمْح سَنَاك المحمدىِّ مفاوزُ وكلما رُمتُ المَتاب رُدِدْت، وكلما يَمَّمْتُ الباب صُدِدْتُ.. وحقِّك وهو الحق الأكيد والقسم الذى يبلغ به المُقْسم ما يريد، ما وَخَدَتْ[٧] إليك ركابٌ، إلا وللقلب إثْرَها التهاب، وللدمع بعدها سَحٌّ وانسكاب، وياليتنى ممن يزورك معها ولو على الوَجْنَيْنِ، ويحيِّيك بين رَكْبها ولو على المُقْلَتَيْنِ.. ثم السلام ورحمة الله تعالى وبركاته عليك ياسيدَ الخلق، وأقربَهم من الحق، ومن طهَّر الله تعالى مَثْواه وقدَّسَه، وبناه على التقوى والرضوان وأَسَّسَه، وآتاه من كل فضل نبوى أعلاه وأَسْناه وأنفسَه.. كتبه عبدك المستمسك بعُرْوَتِكَ الوُثْقَى، اللائذ بحرَمك الأمتع الأَوْقى، المتأخر جسما المتقدم نطقا، والسلام عليك يا رسولَ الله ﷺ تسليما كثيرا ورحمة الله تعالى وبركاته».

والرسالة تموج بالعذوبة فى اللفظ والصياغة، مع ما تصور من لواعج الشوق المضطرم فى صدر ابن الجنان لزيارة قبر الرسول القدسى ولثم ثراه العطر والإلمام بفنائه السنىّ

---

(١) تريم: تبرح.
(٢) السعى بين الصفا والمروة من شعائر الحج وفروضه والتشبيه واضح.
(٣) كلاءة: حفظ.
(٤) أفيائها: ظلالها.
(٥) يتنفس صعدا: يتنفس مع مشقة ووجع.
(٦) ازدلف: دنا وقرب.
(٧) وخدت: أسرعت.

وإن قلبه ليتقطع أسى وإنه ليتنفس الصعداء حين يرى الحجاج الأندلسيين من دونه يسيرون فى قوافلهم إلى بيت الله الحرام وزيارة الرحمة المهداة للأمة الذى أرسله الله نورا وضّاء للعالمين. ويفضى ابن الجنان إلى أسى ولوعة عميقين، حتى ليشعر كأن الدنيا تحولت من حوله إلى سجن رهيب وأغلال وأصفاد، فلا يستطيع فكاكا ولا لحاقا بالقوافل المتجهة إلى الأراضى المقدسة فى الحجاز. ويذرف الدمع مدرارا، ويتمنى لو زار الرسول ﷺ لا على قدميه بل على وجنتيه، حتى تكتحل عيناه بسنى النور المحمدى. وروى انفَرى له موعظة بديعة فى فضل الرسول وما أنعم الله به على البشر من رسالته الزكية وما أجرى عليه من معجزات فيها الآيات الكُبَر والدلالات الواضحة الغُرر، ويتلو المقرى هذه الموعظة بموعظة ثانية يتحدث فى نهايتها عن مصاب المسلمين بوفاة الرسول ﷺ وكيف عزَّهم الصبر، يقول: «وهل يسوغ الصبر الجميل فى فقيد بكته الملائكة وجبريل، وكثر له فى السموات السبع النحيب والعويل، وانقطع به عن الأرض الوحى الحكيم والتنزيل؟. ويصور ابن الجنان كيف عمَّ حينئذ الحزن والاكتئاب، وكأنما دموع الصحابة السحاب، ويقول إن الله عز شأنه سينجز وعده له بالشفاعة وقيامه المقام الموعود على الحوض يوم القيامة مناديا فى الناس هلموا إلى لتطفئوا حرارة العطش الملتهب فى الصدور، ويتجه ابن الجنان إلى ربه داعيا:

«اللهم اسْقِنا من حَوْضه المورود، وشرِّفنا بلوائِه المعقود، وشفِّعه فينا فى اليوم المشهود، وارحمْنا به إذا صِرْنا تحت أطباقِ اللُّحود، وانفعنا بمحبته ومحبة آله وصحابته الرُّكَّعِ السُّجود، واجعلنا معهم فى الجنة دارِ السلام ودارِ الخلود».

وبهذه اللغة الصافية التى تموج بالرقة والعذوبة والتى تلذ الألسنة حين تنطق بها والأسماع حين تنصتُ إليها كان ابن الجنان يمتع القلوب والأفئدة.

(ب) مواعظ

كانت الأندلس - مثل غيرها من البلدان الإسلامية - تكثر فيها المواعظ الدينية شفوية ومكتوبة، وكان من أهم البواعث لذلك الخطابة فى المساجد أيام الجمعة والعيدين واستشعار الخطباء هناك لخطابة الرسول والخلفاء الراشدين ومن تلاهم من جِلّة الخطباء والوعاظ ممن حكى الجاحظ وعظهم وخطابتهم فى كتابه البيان والتبيين، وكثيرٌ هم الأندلسيون الذين تُذْكَرُ فى تراجمهم أن لهم خطبا ومواعظ مدونة، وأشهر خطباء الدولة

الأموية بالأندلس ووعاظها منذر بن سعيد، وسنخصه بكلمة. وكان يحدث كثيرا أن يتأخر المطر الذى يبعث الحياة فى الوديان والسهول والزروع، فكان الناس يجتمعون فى المساجد لصلاة الاستسقاء، ويقف بينهم الخطيب واعظا مذكرا بنعم الله عليهم مفيضا فى الحديث عن الإنابة إلى الله، داعيا الله دعاء مكررا: أن يرسل عليهم الغيث. وفى الكثرة الكثيرة من تلك الصلوات كانوا يغاثون ولا ينصرفون من المساجد إلا وأحذيتهم فى أيديهم من كثرة السيول التى تدافعت من السماء. ويتوقف أصحاب كتاب التراجم مرارا وتكرارا فى ترجماتهم للقضاة ممن كانت تسند إليهم خطابة الجامع الكبير، ليحدثونا عن صلاتهم مع أهل قرطبة لاستنزال الغيث، وبينما الخطباء يلحّون بالدعاء كان الناس يكثرون من الضجيج والابتهال، وتشملهم رحمة الله فتنعقد السحب وتُبْرق وتُرْعد ويهطل الغيث مدرارا.

وبجانب هؤلاء الخطباء الوعاظ ومواعظهم وأدعيتهم كان هناك زهاد أُثرت عنهم مواعظ وأدعية كثيرة مثل أبى وهب العباسى المعاصر لمنذر بن سعيد المتوفى سنة ٣٤٤ المار ذكره. ويدور بنا الزمن دورة ونصبح فى عصر أمراء الطوائف، ونلتقى فيه بمواعظ كتابية تحبَّر فيها رسائل بديعة. وهى رسائل وعظية تتقدم خطوة - إن لم تكن خطوات - نحو المتاع الروحى والشوق إلى اللقاء الربانى والانقطاع إلى النسك والعبادة للحى القيوم عن كل متاع دنيوى. ونحسُّ كأن الأندلس أخذت تتجه بقوة إلى النزوع الصوفى على نحو ما يلقانا فى رسالة كتبها الفقيه أحمد بن عيسى الإلبيرى سنة ٤١٦ إلى بعض إخوانه، وكان من أفراد الزهاد، وفيها يقول لصاحبه[1]:

«هيَّأتْك يَدُ القدرة هَيْئَة روحانية، وأحياك رُوحُ القُدُس حياةً إلهية، وألبستْك الشريعةُ لباسَ التَّقْوَى، ورَاشَتْك الطبيعةُ بِريشِ النُّهى[2]، حتى تطيرَ مع الروحانيين فى مجال الصِّدِّيقين إلى منازل المقرَّبين، فتذوق بَرْدَ عَيْش النعيم، وتلَذَّ بالنظر إلى وَجْه القَيُّوم، وتشتاق إلى لقاءِ الربِّ الرحيم.. وإن لله يا أخى عبادًا أقام أرواحهم بقَيُّوميَّته على صراط مستقيم، فمشت بأقدام الصدقِ إلى الحق، فدنت منه ونظرت إليه على جلاله، فى اتساع كماله، فضعفتْ لكبر سلطانه، ثم أفاقت بالإسلام ونطقت بالإيمان، واتصلت بالقرآن، وعلَّمها ففازت بالحكمة، وانقطعتْ إليه بالكلية، ودانتْ له بالحنيفية،

---

(١) راجع فى النص الذخيرة ٨٤٧/١ وما بعدها. (٢) النهى: العقل.

obeikandi.com

فآواها إلى كَنَفه، ونعَّمها بطرائف تُحَفه، وأطلع لها السِّرَّ، وأكمل لها البِرَّ، فحَبِيَتْ بقربه، وشربت بكأس حُبِّه».

والنزعة الصوفية ماثلة فى الرسالة، وهى تعد مقدمة لما سيكون من ازدهار التصوف فى زمن المرابطين والموحدين إذ يظهر فيه كثرة ممن أُشْربوا كأس المحبة الإلهية من أمثال ابن العريف وابن عربى والششترى، ومرت لهم فى الفصل الماضى ترجمات تعرِّف بمنزعهم الصوفى وأهم آثارهم وفيها وعظ كثير. وإذا تركنا المتصوفة ووعظهم إلى الوعظ العام وأهله وجدنا من أدباء الأندلس الذين يجمعون بين نظم الشعر وكتابة النثر طائفة تحاكى أبا العلاء المعرى فى كتابه الوعظى: «ملقى السبيل» وقد جعله على الحروف الأبجدية، وعادة يذكر سجعات قليلة ويتلوها بأبيات بنفس معناها، وربما كان ابن أبى الخصال الذى ترجمنا له فى هذا الفصل أول من حاول محاكاته فى هذا الاتجاه[١]، وكثر بعد ذلك من عارضوه فيه من مثل أبى القاسم السهيلى المتوفى سنة ٥٨١ وسمَّى معارضته له باسم: «حلية النبيل فى معارضة ملقى السبيل[٢]» وعارضه سليمان بن موسى الكلاعى المتوفى شهيدا سنة ٦٣٤ باسم «مفاوضة القلب العليل ومنابذة الأمل الطويل بطريقة أبى العلاء فى ملقى السبيل»[٣] وغيرهم كثير. ونستطيع أن نقول إن معارضة أبى العلاء فى وعظه بملقى السبيل كانت أشبه بجدول انبثق من نهر الوعظ الكبير. ونلتقى فى عصر المرابطين بأبى بكر الطرطوشى وسنخصه بكلمة.

وكان ابن جبير المتوفى سنة ٦١٤ قد أشاد فى رحلته - كما مر بنا - بابن الجوزى ومواعظه، وحملها عنه بعض الأندلسيين وأكبَّ عليها غير أديب أندلسى يحاكيها على نحو ما يلقانا عند أبى المطرف بن عميرة المترجم له بين الكتاب والمتوفى سنة ٦٥٨ إذ يقول المراكشى: «له فصول وعظية على طريقة الإمام أبى الفرج بن الجوزى» وله قوله من عظة[٤].

«يا أَعْمىَ الهوى غابَ عنك وَضَحُ النهار، طالتْ غيبتُك عنا فأىّ يومٍ تكون فى الزوَّار، العمرُ قد مضى ولم يبق إلا القليل، وأنت تعيش بالمُنَى والتَّعْليل،، أين الإخوان

---

(١) انظر تاريخ الأدب الأندلسى: عصر المرابطين للدكتور إحسان عباس ص ٢٨٧.

(٢) الإحاطة ٤٧٩/٣ وصحفت فيها لفظة «ملقى».

(٣) الذيل والتكملة للمراكشى بقية السفر الرابع ص ٨٦.

(٤) كتاب أبى المطرف بن عميرة ص ٣٠٤.

والأتراب، طاحوا[١] والله وأكلهم التراب، بينما البلبل يغرِّدُ إذ نَعَبَ الغُراب وفجأتِ الفجيعةُ فما لذَّ النومُ ولا ساغ الشراب».

وكان نبعا فياضا فى الوعظ مما جعل بعض الوعاظ يستعينون به فيما يعظون به الناس. ونلتقى بكثير من المواعظ فى دولة بنى الأحمر بغرناطة، ومن كبار الوعاظ فى دولتهم ابن الزيات الكَلاعى المالقى المتوفى سنة ٧٢٨ وله فى الوعظ كتاب «شذور الذهب فى ضروب الخطب»، وروى له لسان الدين بترجمته فى الإحاطة عظة ألغى الألف من حروفها وفيها يقول:

قد نُصِحْتم لو كنتم تعقلون، وهُديتم لو كنتم تَعْلمون، ونُصِرْتم لو كنتمُ تبْصرون، وذُكِّرتم لو كنتم تَذْكرون، وظهرت لكم حقيقةُ نَشْركم[٢]، وبرزتْ لكم خبيئة حَشْركم، فلِمَ تَرْكُضون فى طَلَقِ[٣] غفلتكم، وتغفلون عن يوم بعثكم، وللموت عليكم سَيْفٌ مسلول، وحكمُ عزم غير مَفلول[٤]، فكيف بكم يومَ يُؤْخَذُ كلٌّ بذنبه، ويُخْبر بجميع كَسْبه، ويفرَّق بينه وبين صحبه، ويعدم نُصْرَةَ حِزْبه، ويُشْغَلُ بهمِّه وكَرْبِه، عن صَدِيقه وتِرْبه».

ويسترسل فى مثل هذا الوعظ البسيط الذى ينزلق عن اللسان لخفته ولعذوبته، ولعله من أجل ذلك كان مجلس وعظه يغص بالناس ويزدحمون عليه لسماع مواعظه. وحرى بنا الآن أن نقف قليلا عند الواعظين الجليلين: منذر بن سعيد وأبى بكر الطرطوشى.

منذر بن سعيد البَلُّوطى[٥]

هو أبو الحكم منذر بن سعيد بن عبد الله، ولد سنة ٢٦٥ بموضع فى نواحى قرطبة يسمى فحص البلوط فنسب إليه، وأقبل منذ نعومة أظفاره على الدراسات الدينية واللغوية وبزَّ فيها أقرانه بقرطبة، وفى سنة ٣٠٨ رحل إلى المشرق للحج والتلقى عن علمائه، وعاد إلى قرطبة يحمل عن محمد بن المنذر النيسابورى كتابه الإشراف المؤلف فى اختلاف الفقهاء سمعه منه بمكة، ويحمل أيضا كتاب معجم العين المنسوب إلى الخليل سمعه على أبى العباس بن ولاد بمصر، غير كتب أخرى فى اللغة والفقه والحديث. وأهم

---

(١) طاحوا: هلكوا.

(٢) نشركم: بعثكم.

(٣) طلق: شوط.

(٤) مفلول: مثلوم الحد.

(٥) انظر فى ترجمة منذر ومواعظه طبقات الزبيدى ٣١٩ وابن الفرضى رقم ١٤٥٢ والبغية رقم ١٣٥٦ والجذوة ٣٢٦ والمطمح ٢٧ ومعجم الأدباء ١٧٤/١٩ وإنباه الرواة ٢٢٥/٣ وأزهار الرياض ٢٧٢/٢ ونفح الطيب (انظر الفهرس).

من ذلك أنه حمل مذهب داود الظاهرى وكتبه وظل يؤثره ويحتج لمقالته، مع أنه كان قاضيا فى بعض مدن الأندلس، والقضاء فيها كان مالكيا يلتزم القضاة فيه بمذهب مالك وفتاويه وفتاوى تلاميذه المصريين، واشتهر منذر بأنه إنما كان يأخذ بالمذهب الظاهرى فى نفسه فإذا جلس للحكومة والقضاء بين الناس قضى بينهم وحكم بمذهب مالك الذى استقر عليه العمل فى الأندلس. وثقف فى رحلته الاعتزال كما ثقف المذهب الظاهرى، وكان يحتج له كما يحتج للمذهب الظاهرى دون إفراط، مع الأخذ بالسنة والورع والرد على أهل الأهواء والبدع. وفى سنة ٣٣٠ أتيحت له فرصة عظيمة عندما أقيم بقصر الناصر فى قرطبة حفل استقبال ضخم لسفير بيزنطة الذى جاءه يحمل إليه بعض الهدايا من لدن الإمبراطور، وتقدم ابنه وولى عهده الحكم إلى أبى على القالى العالم اللغوى المشهور، وكان قد وفد على قرطبة ودوَّت شهرته فى الأندلس، فسأله أن يلقى خطبة أمام أبيه يبين فيها فخامة الخلافة الأموية بالأندلس وما تهيأ للناصر من توطيد الحكم فى بلده، فقام القالى وحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبى ﷺ، وأُرْتج عليه وانقطع عن الكلام، فلما رأى ذلك منذر - وكان حاضرا - قام فوصل افتتاحه بخطبة طويلة بليغة على غير أهبة مفتتحا لها بقوله:

«أما بعد حمد الله والثناء عليه، والتعداد لآلائه، والشكر لنعمائه، والصلاة والسلام على محمد صفيِّه وخاتم أنبيائه، فإن لكل حادثة مقامًا، ولكل مقام مقالاً، وليس بعد الحقِّ إلا الضلال، فافقَهوُا عنى بأفئدتكم، إن من الحق أن يقالَ للمحقِّ صدقتَ، وللمبطل كذبتَ.. وإنى أذكرِّكم بأيام الله عندكم وتلَافيه لكم بخلافته أمير المؤمنين التى لَمَّتْ شَعَثَكُم، وأَمَّنَتْ سِرْبكم».

ومضى يتحدث عن تلافى الناصر للفتن التى كانت عمت آفاق الأندلس، وفصَّل القول فى انتصاراته وفتوحاته وعدالته وما حظيت به الدولة لعهده من مكانة جعلت الروم يخطبون مودتها. وينصح الناس بالتزام الطاعة لخليفتهم وابن عم نبيهم الناصر، ويختم خطبته بالحمد لله والاستغفار. وبهرت الخطبة المجتمعين وخرجوا يتحدثون عن بلاغة منذر وحسن بيانه وثبات جَنانه، وأُعْجب به الناصر إعجابا شديدا، فولاه الصلاة والخطابة بمسجده الجامع فى مدينته الزهراء التى بناها بجوار قرطبة، ثم ولاه قضاء الجماعة، فأصبح قاضى القضاة فى الأندلس جميعا، وظل على ذلك فى حكم الناصر وحكم ابنه الحكم إلى أن توفى سنة ٣٥٥. وكان الناصر قد مضى فى بناء مدينته الزهراء وتأنق فيها

ما وسعه التأنق على نحو ما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع، فرأى منذر أن يتناوله فى خطبة الجمعة بالموعظة الحسنة رجاء إنابته ورجوعه عن هذا السرف المفرط.

وابتدأ منذر موعظته بقول الله تعالى شأنه: ﴿أَتَبْنُونَ بكل رِيعٍ[١] آيةً تَعْبَثُونَ وتَتَّخذون مصانع[٢] لعلكم تخلدون﴾ ثم قال: ولا تقولوا: ﴿سواءٌ علينا أَوَعَظْتَ أم لم تكنْ من الواعظين﴾ ﴿فمتاعُ الدنيا قليل والآخرة خَيْرٌ لمن اتَّقى﴾ وما زال يصل ذلك بكلام مؤثر فى ذم تشييد البنيان وزخرفته والإسراف فى الإنفاق عليه، واستشهد بقوله تعالى: ﴿أفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَه على تَقْوى من الله ورِضْوانٍ خَيْرٌ أم من أَسَّسَ بُنْيانه على شَفَا جُرُفٍ هارٍ فانهارَ به فى نار جهنم والله لا يَهْدى القومَ الظالمين﴾ ومضى منذر يدعو إلى الزهد فى الدار الفانية والإعراض عنها وطلب ما عند الله من فراديس الجنان وأسهب فى ذلك حتى تأثر المستمعون وضَجُّوا بالبكاء، ودَعوا الله تائبين مستغفرين وبكى الناصر واستعاذ من سخط الله وغَضَبه. ولمنذر مصنفات من أهمها: «أحكام القرآن» وكان شاعرا، أما العظات فلعل واعظا فى وطنه لم يبلغ فيها مبلغه فى زمنه، وكانت له خطب مجموعة ومتداولة فى الأندلس تحمل وعظا كثيرا، ومن عظاته قوله:

«حتى متى وإلى متى أَعِظُ غيرى ولا أَتَّعِظُ وأَزْجرُه ولا أَزْدَجِرُ، أدلُّ على الطريق المستدِلِّين، وأَبْقَى مُقيما مع الحائرين، كلا إن هذا لهو البلاء المبين ﴿إن هى إلا فتنتُك تُضِلُّ بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت وليُّنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين﴾. اللهم فَرِّغْنى لما خلقتنى له، ولا تَشْغَلْنى بما تكفَّلتَ لى به، ولا تَحْرِمْنى وأنا أسألك ولا تعذِّبْنى وأنا أستغفرك يا أرحمَ الراحمين».

أبو[٣] بكر الطُّرْطوشى

هو أبوبكر محمد بن الوليد القرشى الطُّرْطوشى الأندلسى ولد فى سنة ٤٥١ بطرطوشة فى أعلى الشرق من الأندلس على البحر المتوسط، ويعرف بابن أبى رَنْدقة، ويبدو أنها كنية شُهر بها فيما بعد، وقد تخرج على يد أبى الوليد الباجى بسرقسطة، أحد

---

(١) ريع: المرتفع من الأرض وكان الناصر قد بنى الزهراء بضاحية قرطبة على جبل العروس.
(٢) مصانع: مبان من القصور والحصون.
(٣) انظر فى ترجمة الطرطوشى ومواعظه الصلة ٥١٧ وبغية الملتمس رقم ٢٩٥ والمغرب ٤٢٤/٢ وابن خلكان ٢٦٢/٤ والديباج المذهب ٢٧٦ وعبر الذهبى ٤٨/٤ وأزهار الرياض ١٦٢/٣ والشذرات ٦٢/٤ وحسن المحاضرة ١٩٢/١.

كبار المالكية فى أواخر عصر أمراء الطوائف إن لم يكن أكبرهم، وقد أخذ عنه مسائل الخلاف وغيره من كتبه الكثيرة وأجاز له روايتها عنه. ورحل إلى المشرق سنة ٤٧٦ وحجَّ ودخل بغداد والبصرة، وسمع من جِلَّة الشيوخ فى البلدتين، وسكن الشام مدة ودرَّس بها، ثم سكن مصر واستقر بثغر الإسكندرية إلى أن توفى بها سنة ٥٢٠. وكان وَرِعا متقشفا متقللا من الدنيا راضيا منها باليسير، ودخل على الأفضل بن بدر الجمالى وزير الفاطميين (٤٨٧ - ٥١٥ هـ) فوعظه حتى بكى، وكان مما وعظه به:

«إن الأمر الذى أصبحت فيه من الملك إنما صار إليك بموتِ مَنْ كان قبلك، وهو خارجٌ عن يدكِ بمثل ما صار إليك فاتَّقِ الله فيما خوَّلك من هذه الأمَّة، فإن الله - عز وجلّ - سائلُك عن النَّقير[1] والقِطْمِير والفَتيل، واعلم أن الله - عز وجل - آتى سليمان بن داود مُلْكَ الدنيا بحذافيرها فسخَّر له الإنسَ والجنَّ والشياطين والطيرَ والوحش والبهائمَ، وسخَّر له الريحَ تجرى بأمره رُخاءً[2] حيث أصاب، ورفع عنه حِساب ذلك أجمع، فقال عزَّ من قائل: ﴿هذا عطاؤنا فامْنُنْ أو أمْسِكْ بغير حساب﴾ فما عدَّ ذلك نعمة كما عددتموها، ولا حَسِبها كرامة كما حسبتموها، بل خاف أن يكون ذلك استدراجا من الله عز وجَلَّ، فقال: ﴿هذا من فضل ربى لِيَبْلُوَنِى أأشكُر أم أكفرُ﴾ فافتح البابَ، وسَهِّل الحِجابَ وانْصُرِ المظلوم».

وللطرطوشى مؤلفات مختلفة منها الكتاب الكبير فى مسائل الخلاف وكتاب مختصر تفسير الثعالبى وكتاب بدع الأمور ومحدثاتها وكتاب شرح رسالة ابن أبى زيد فى الفقه المالكى، وأشهر كتبه كتاب سراج الملوك الذى ألفه للمأمون البطائحى وزير الفاطميين بعد الأفضل بن بدر الجمالى (٥١٥ - ٥١٩ هـ) وهو وعظ للملوك والحكام وبيان لما ينبغى أن يتحلوا به من الأخلاق والسياسة الرشيدة فى الحكم، ويبين فى مقدمته منهجه فيه وغايته قائلا:

«جمعتُ محاسنَ ما انطوى عليه سِيَرُ مُلوكِ سِتٍّ من الأمم، وهم العرب والفرس والروم والهند والسِّنْد والسندهند، فنظَّمت ما ألفيت فى كتبهم من الحكمة البالغة والسِّير المستحسنة والكلمات اللَّطيفة والظريفة المألوفة.. إلى ما رَأيْته وجمعته من سِيَرِ الأنبياء عليهم السلام وآثار الأولياء وبراعة العلماء وحكمة الحكماء ونوادر الخلفاء وما انطوى

---

(١) النقير: ما نقر فى نواة التمر، والقطمير: القشرة الرقيقة على النواة، الفتيل: الخيط فى شق النواة والمراد أنه يُسْأل عن أصغر الأشياء.

(٢) رخاء: لينة.

عليه القرآن العزيزُ الذى هو بَحْرُ العلوم وينبوعُ الحكم ومعدنُ السياسات ومَغَاصُ الجواهِر المكنونات.. الهادى من الضلالة والحاوى لمحاسن الدنيا وفضائل الآخرة».

وقد جعل الطرطوشى الكتاب فى أربعة وستين بابا خصَّ أولها بمواعظ الملوك وثانيها بمقامات العلماء والصالحين عند الأمراء والسلاطين. وتتوالى الأبواب فى الخصال التى ينبغى أن يتصف بها الحكام والقضاة وغيرهم ممن يلون شئون الناس، ومن قوله فى الباب الأول واعظا للملوك:

«اعتبِرْ بمن مضى من الملوك والأقْيال، وخَلَا من الأمم والأجيال، وكيف بُسطَتْ لهم الدنيا وانسِئَتْ لهم الآجال، وانفسح لهم فى المنى والآمال، وأمِدُّوا بالآلات والعدُد والأموال، كيف طحنهم بِكَلْكَلِهِ المَنون[1]، واختدعهم بزخرفه الدهر الخَئُون، وأسكنوا بعد سَعة القصور بين الجنادل والصخور.. أما ترى الدنيا تقبل إقبال الطالب، وإدبارها فجيعة، ولذَّاتها فانية، وتَبِعاتها باقية، فاغتنمْ غفوةَ الزمان، وانتهزْ فرصةَ الإمكان، وخذ من نفسك لنفسك، وتزوَّدْ من يومك لغدك، ولا تنافسْ أهل الدنيا فى خَفْض عيشهم ولِين رِياشهم[2] ولكن انظر إلى سرعة ظَعَنِهم وسوء مُنْقلبهم»

ولم يكد يترك الطرطوشى خبرا أو عظة للرسول عليه السلام والرسل الكرام والخلفاء الراشدين ومن عاصروهم وجاءوا بعدهم من الزهاد والأتقياء البررة والعبَّاد والصالحين الأطهار إلا دوَّنها فى كتابه مع ما ساقه فى تضاعيفه من عظاته التى تموج بها صفحاته. وهو بحق فى الذروة من الوعظ والإرشاد للناس جميعا حكاما وغير حكام.

٤

أعمال نثرية

تتميز الأندلس بنفوذها إلى أعمال نثرية بديعة سقط كثير منها من يد الزمن، وبقيت منها إلى اليوم بقية رائعة، بين اعترافات عاطفية كما فى طوق الحمامة لابن حزم، وكتابات تاريخية كما فى المقتبس لابن حيان والذخيرة لابن بسام، ومذكرات لسيرة ذاتية كما فى مذكرات عبد الله بن بُلقِّين أمير غرناطة، وقصص خيالية فلسفية كقصة حى بن يقظان لابن طفيل، وحرى بنا أن نلم بهذه الأعمال فى كلمات مجملة.

---

(١) الكلكل: الصدر والمراد الثقل. المنون: الموت.

(٢) الرياش: الأثاث الفاخر.

طوق الحمامة لابن حزم

ابن حزم[١] هو أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم، من أسرة كانت تنتسب إلى جد فارسى من موالى بنى أمية وزعم ابن حيان أن أسرته إسبانية من عجم لَبْلة وأنها حديثة العهد بالإسلام، فجده الأدنى أول من أسلم من آبائه. ويبدو أنه لم يعرف جذور أسرته معرفة دقيقة، إذ تجمع كتب التراجم على سلسلة من النسب له، يتصل فيها أجداد مسلمون حتى ينتهوا به إلى جد فارسى أعلى كان مولى ليزيد بن أبى سفيان، ويقول صاحب المعجب إنه قرأ هذه السلسلة بخطه على ظهر كتاب من تصانيفه، ونَصَّ ابن حزم على نسبته الفارسية وولائه لبنى أمية قائلا:

سَمَا بىَ ساسانٌ ودارا وبعدهم قُرَيْشُ العلا أَعْياصُها والعَنابِسُ

وهو فى الشطر الأول ينسب نفسه إلى دارا وملوك الفرس الساسانيين، وفى الشطر الثانى ينتمى بالولاء إلى بنى أمية، وكان لأمية ستة أبناء من العنابسة وخمسة من الأعياص. وسنعرف عما قليل عن ابن حزم كيف كان يأخذ نفسه بالصدق والتدين العميق، مع ما يضاف إلى ذلك من أنه لا يوجد أى مبرر لكى يرجِّح نسبته إلى عجم الفرس على نسبته إلى عجم الإسبان، مع ما ضم إلى ذلك من اعترافه بالولاء لبنى أمية، وظل مشايعا لهم حتى الأنفاس الأخيرة من حياته، وربما كان ذلك ما أثار ابن حيان ضده، محاولا أن يخلعه من ولائه وولاء أبيه للأمويين.

---

(١) انظر فى ترجمة ابن حزم ودراسته الحميدى فى الجذوة ص ٢٩٠ والذخيرة ١٦٧/١ والمطمح ص ٥٥ والبغية للضبى ص ٤٠٣ والصلة ٤٠٨ والمعجب ٩٣ وطبقات الأمم لصاعد ص ١١٧ والمغرب ٣٥٤/١ ومعجم الأدباء ٢٣٥/١٢ والقفطى فى تاريخ الحكماء ص ٢٣٢ وابن خلكان ٣٢٥/٣ والذهبى فى تذكرة الحفاظ ٣٤١/٣ وعبر الذهبى ٢٣٩/٣ وابن شاكر فى الفوات ٢٧١/٢ والشذرات ٢٩٩/٣. وكتبت عن ابن حزم دراسات كثيرة، وراجع فيه تاريخ الفكر الأندلسى لبالنثيا ص ١٤، ٧٤ - ٧٧، ٢١٣ - ٢٣٩، ٤٢٦ وكتابات د. إحسان عباس فى تاريخ الأدب الأندلسى: عصر سيادة قرطبة ص ٢٤٥ - ٢٦٤ ومقدماته لما نشر من رسائله وكتاب ابن حزم: حياته وعصره لمحمد أبى زهرة ودراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة للدكتور الطاهر مكى (طبع دارالمعارف) وابن حزم صورة أندلسية للدكتور الحاجرى وابن حزم الأندلسى: حياته وأدبه للدكتور عبدالكريم خليفة. وفى كتاب طوق الحمامة انظر مقدمته فى تحقيق الدكتور الطاهر مكى (طبع دارالمعارف) وعرضه فيها لآراء المستشرقين وما ذكره فى هوامش تحقيقه للكتاب من تأثيرات موضوعاته فى الأدب الإسبانى. وانظر كتاب ألوان للدكتور طه حسين (الطبعة السادسة فى دار المعارف) ص٩٩ وما بعدها.

وكانت أسرة ابن حزم تعيش فى قرية تملكها تسمى مُنْت ليشَم من قرى مدينة لَبْلة على بعد خمسين كيلو مترًا غربى إشبيلية، وبها وُلد أبوه أحمد، ورحل منها مبكرا إلى قرطبة، ليحرز لنفسه ما استطاع من الثقافة، وسرعان ما لمع بين أقرانه بقدرته الأدبية وبلاغته ومعرفته بالتاريخ. وتعرَّف عليه ابن أبى عامر حاجب الخليفة المؤيد أثناء الطلب والتلمذة، وكان يعجب به، فاتخذه وزيرا له سنة ٣٨١ مما جعله يسكن فى الجانب الشرقى من قرطبة بناحية الزاهرة مدينة أبى عامر ومجمع قصوره. وأقصاه فترة عن وزارته للنظر فى كُوَر غربى الأندلس، ثم أعاده إلى الوزارة. وبلغ من ثقته به أن كان يستخلفه حين مغيبه عن قرطبة، ووزر من بعده لابنه عبد الملك المظفر. ورزقه الله بابنه على سنة ٣٨٤ ووكل تربيته فى صباه إلى جوارى قصره وكنَّ على حظ كبير من الثقافة الأدبية - شأن أمثالهن من الجوارى فى قرطبة ومدن الأندلس - وفى ذلك يقول ابن حزم فى كتابه «الطوق»: «لقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لايكاد يعلمه غيرى، لأنى رُبِّيت فى حجورهن، ونشأت بين أيديهن، ولم أعرف غيرهن، ولا جالست الرجال إلا وأنا فى حَدِّ الشباب وحين أبقل وجهى (نبت الشعر فيه) وهنَّ علَّمْنَنى القرآن وروَّيننى كثيرا من الأشعار ودرَّبْنَنِى فى الخط». وجعلتهْ هذه النشأة يستشعر مبكرا عاطفة الحب لمن كن فى سنه من الجوارى، ويقول فى الطوق إنه أحب حينئذ جارية شقراء فما استحسن بعدها سوداء الشعر أبدا. وظل يختلط بهؤلاء الجوارى ويعيش معهن كما يقول إلى حد الشباب وحتى أصبح يافعا فى سن الثانية عشرة أو بعدها بقليل إذ يذكر أن أباه اصطحبه إلى مجلس الحاجب المظفر بن المنصور بن أبى عامر سنة ٣٩٦. ولم يلبث أن أخذ يتتلمذ للشيوخ وفى مقدمتهم ابن الجسور المتوفى سنة ٤٠٠ وعنه أخذ الحديث النبوى وتاريخ الطبرى وكان لايزال فى سن مبكرة. وكثيرا ما كان يرافق أباه فى مجلس وزارته ويستمع إلى مادحيه من الشعراء ويحفظ بعض أشعارهم، وكان أبوه لايزال يسكن الجانب الشرقىَّ من قرطبة، حتى إذا بدأت الفتنة الكبرى سنة ٣٩٩ رأى أن يتحول عن دوره المحدثة فى هذا الجانب إلى دورهم القديمة فى الجانب الغربى من قرطبة، وكان الخليفة المؤيد هشام قد عُزل وأعيد سريعا، فاتهمه بمساعدته للثائرين ضده واعتقل وأُغْرم إغراما ماليا فادحا، وتوفى سنة ٤٠٢.

وظل الفتى على فى هذه الأثناء يتابع دروسه على الشيوخ وقراءاته. ويتزوج من جارية له كَلِفَ بها تسمى نُعْما كانت غاية فى الحسن خَلْقا وخُلقا، ولم يلبث القدر أن فجعه فيها وهو دون العشرين فالتاع لوعة شديدة، حتى ليقول إنه أقام بعدها سبعة أشهر لا يتجرد

عن ثيابه حزنا عليها ولا تفتر له دمعة، ويقول إنه لم يطب له عيش بعدها. وكانت أحواله المادية قد تمادت فى السوء بعد وفاة أبيه ففارق قرطبة سنة ٤٠٤ إلى المرية عند حاكمها خيران أحد فتيان المنصور بن أبى عامر، ووُشى به إليه فاعتقله أشهرا ثم ردَّ إليه حريته فبارح المرية إلى حصن القصر وظل به أشهرا وغادره إلى بلنسية وأميرها مبارك والمظفر من فتيان العامريين، إذ سمع أنهما يشايعان أمويا بايعاه بالخلافة وتلقب بالمرتضى، فأسرع إليهما، ولم يلبث أن زحف معهما بالمرتضى إلى غرناطة للاستيلاء عليها سنة ٤٠٩ والانقضاض منها على قرطبة التى كانت قد أصبحت فى قبضة القاسم بن حمود. ولم يتحقق الحلم، فقد هُزم المظفر ومبارك وقتل المرتضى. وعاد ابن حزم إلى قرطبة، ورأى دورهم وأكثر دور الأمويين والعامريين أصبحت أطلالا داثرة فبكاها طويلا، وتفرغ لالتهام العلوم من لغوية ودينية وفلسفية. وفى سنة ٤١٤ تولى زمام الخلافة صديقه المستظهر الأموى فاتخذه وزيرا له مع خِدْنه ابن شهيد، وسرعان ما يقتل المستظهر بعد نحو شهر ونصف من خلافته، ويَعْتقل الخليفةُ الجديد المستكفى ابنَ حزم فترة، وتُرَدّ إليه سريعا حريته.

وعرف ابن حزم أنه لم يخلق للسياسة، ففارقها إلى غير مآب، وانقضَّ على المعارف من كل لون انقضاض الوحش على فريسته، بحيث أصبح أكبر عقل مفكر أهداه عصر أمراء الطوائف إلى الإسلام والعروبة، وفيه يقول ابن حيان: «كان حامل فنون من حديث وفقه وجدل ونسب وأدب مع المشاركة فى كثير من أنواع التعاليم القديمة من المنطق والفلسفة» ويقول ابن بشكوال فى كتابه الصلة: «كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام وأوسعهم معرفة مع توسعه فى علم اللسان ووفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار» ويقول ابنه الفضل: إن مجموع مؤلفاته فى الفقه والحديث والأصول والتاريخ والنحل والملل والنسب والأدب والرد على معارضيه نحو أربعمائة مجلد فى قريب من ثمانين ألف ورقة. وبدأ حياته مالكيا ثم انتقل إلى مذهب الشافعى فترة ثم تركه فى أوائل الثلاثينيات من عمره إلى مذهب داود الظاهرى، وتنقل فى مدن الأندلس يناضل عنه ويكتب فيه بحيث أصبح إمامه الحقيقى، كما كان يناضل عن الإسلام أرباب الملل من اليهود والنصارى. وتتعدد مؤلفاته تعددا واسعا، منها فى الفقه كتاب الإبطال فى مناقشة الأصول الخمسة عند الشافعية والحنفية وهى القياس والرأى والتعليل والاستحسان والتقليد محاولا نصرة مذهبه الظاهرى، وكتاب الإيصال فى فقه الحديث وفيه يورد أقوال الصحابة والتابعين فى مسائل الفقه مع بيان الحجة لكل رأى،

وكتاب المحلَّى فى المذهب الشافعى، وكتاب مراتب الإجماع، وكتاب حِجَّة الوداع. ومنها فى التاريخ جوامع السيرة النبوية وكتاب جمهرة الأنساب ورسالة نقط العروس ورسالة فضل الأندلس وهى تسجل ما لعلمائها وأدبائها من مصنفات وأعمال. ومنها فى المنطق كتاب التقريب لحدوده. ومنها فى تاريخ الأديان كتابه «الفصل فى الملل والأهواء والنحل» وهو به يعد واضع علم المقارنة بين الأديان الذى لم يعرفه الغرب إلا فى منتصف القرن التاسع عشر، وفيه يبين بأدلة دامغة كيف حُرِّفت الكتب المقدسة عند اليهود والنصارى مبطلا لآرائهم العقيدية، ويعرض فى تفصيل لأركان العقيدة الدينية القويمة (عقيدة الإسلام) من التوحيد والإيمان والوعد والوعيد والقدر والإمامة، مما انتفع به فيما بعد توماس الإكوينى فى كتابه خلاصة علوم الدين. ومن كتبه النفيسة فى الأصول كتابه الإحكام فى أصول الأحكام» ومرَّ بنا فى الفصل الثانى أنه أشار فى مقدمته إلى القرابة اللغوية بين العربية والسريانية والعبرية وأن العربية الشمالية العدنانية لغة مضر وربيعة تخالف العربية الجنوبية لغة حمير اليمنية. وبذلك يعد - كما أسلفنا - واضع الأساس لعلم فقه اللغة المقارن فى العربية كما وضع علم الأديان المقارن قبل أن تعرفهما أوربا بقرون. ومن المؤكد أن كتبه كانت فى مقدمة الكتب التى عنيت مدرسة طليطلة منذ القرن الثالث عشر الميلادى بترجمتها إلى اللاتينية. وله رسائل كثيرة نشر منها الدكتور إحسان عباس طائفة، ومن أهم رسائله رسالته فى الأخلاق والسير ومداواة النفوس، وقد حققها الدكتور الطاهر مكى ونشرها بدار المعارف، وبها مبادئ تتصل بسيرته وسيرة الناس فى عصره، وفيها يصور الفضائل والرذائل الخلقية مضيفا إليها بعض اعترافات فى تواضع وإخلاص، ويبدو أنها مما ترجم من آثاره إلى اللاتينية، إذ نجد على مثالها أو قريبا منها مقالات فى الأخلاق لبيكون المعروف بصلته بترجمات طليطلة. وظل ابن حزم يطوف بمدن الأندلس ناشرا علمه ومذهبه الظاهرى فى الفقه، وله مناظرة مشهورة مع الفقيه المالكى أبى الوليد الباجى فى جزيرة ميورقة سنة ٤٥٢. وكان فقهاء المالكية لايزالون ينفرون من كتبه، مما جعل المعتضد بن عباد أمير إشبيلية يأمر بحرق طائفة منها لقصر نظره. ورأى بأخرة العودة إلى قرية آبائه منت ليشم، ويبدو أنه كان يعود إليها قبل ذلك كثيرا وبها توفى سنة ٤٥٦.

وكتابه طوق الحمامة فى الألفة والألاف ألفه فى سكناه بشاطبة سنة ٤١٨ أو ٤١٩ وموضوعه دراسة الحب العذرى ويستهل حديثه فيه بأن الحب ظاهرة إنسانية لم يسلم منها حاكم ولا محكوم، ويعرفه بأنه اتصال بين أجزاء النفوس فى الطبيعة الإنسانية فى أصل

عنصرها الرفيع ويريد به عالم النفوس العلوى قبل حلول النفوس فى الأجساد فى عالم الأرض السفلى. ويحدث هذا الاتصال حين يكون بين النفوس ائتلاف ومشاكلة فيكون الحب، أما إذا كان بينها انفصال وتباين فيكون البغض. والحب بذلك إنما يكون بين النفوس لا بين الأجسام. ويوزع ابن حزم كتابه على ثلاثين بابا، منها عشرة فى أصول الحب وعلاماته وصوره كمن أحب فى النوم أو بالوصف أو من نظرة واحدة أو مع المطاولة أو مع التعريض بالقول أو مع الإشارة بالعين أو بالمراسلة أو بالسفير والرسول. ومنها اثنا عشر بابا فى أعراض الحب المحمود والمذموم، وهى أبواب الصديق المساعد والوصل وطىّ السر والكشف أو الإذاعة والطاعة والمخالفة وحب صفة فى المحبوبة والقناعة والوفاء والغدر والضَّنا والموت. ومنها ستة أبواب فى آفات الحب، وهى أبواب العاذل والرقيب والواشى والهجر والبين والسلو، ثم بابان فى قبح المعصية وفضل التعفف. وجميع هذه الأبواب تُعْرَضُ لا فى كلام نظرى بل من خلال الواقع والتجربة والمشاهدة أو بعبارة أدق من خلال اعترافات صريحة منتهى الصراحة لابن حزم ومعاصريه عن الحب دون أى مواربة أو خجل يحجبان الحقيقة، فالحقيقة دائمًا مكشوفة كالشمس. وفى تضاعيف ذلك ما لا يكاد يحصى من حقائق النفس فى الحب وترهاتها، مع أشعار لابن حزم تصور تلك الحقائق. وكأنه كان يريد بالكتاب تربية الفتاة والفتى بالأندلس موطنه ليكون حبهما حبًّا نقيًّا بريئًا من كل دنس. ومن اعترافاته عن نفسه فى الحب قوله فى باب السلو:

«وإنى لأخبرك عنى أنى أَلِفْتُ فى أيام صِباى أُلْفَة المحبة جاريةً نشأتْ فى دارنا، وكانت فى ذلك الوقت بنت ستة عشر عاما، وكانت غايةً فى حُسْن وجهها وعقلها وعَفافها وطهارتها وخَفرها ودماثتها، عديمة الهزل، منيعة البذل، فقيدةَ الذَّام[١]، قليلة الكلام، غضيضة البصر، شديدة الحذر، نَقيَّةً من العيوب، دائمة القُطوب[٢]، حُلْوة الإعراض، مطبوعة الانقباض.. لا تقف المطامع عليها، ولا معرَّس[٣] للأمل لديها.. على أنها كانت تُحْسِنُ العود إحسانا جيدا، فجَنَحْتُ إليها، وأحببتُها حبًّا مفرطا شديدا، فسعيتُ عامين أو نحوهما - أن تجيبنى بكلمة، وأسمع من فمها لفظة، غيرَ ما يقع فى الحديث الظاهر إلى كل سامع - بأبلغ السعى، فما وصلتُ إلى شىء من ذلك البتة فلعهدى بِمُصْطَنَع[٤] كان فى دارنا.. تجمعتْ فيه دَخَلتنا[٥] ودَخَلَةُ أخى: من النساء ونساء فتياننا ومن لاث[٦] بنا من خدمنا ممن يخفُّ موضعه ويلطفُ محله، فلبثْنَ صدرا من

(١) الذام: العيب.
(٢) القطوب: العبوس.
(٣) معرَّس: مكان.
(٤) مصطنع: وليمة.
(٥) الدخلة: من يكثر دخولهم على قوم منهم أو ليسوا منهم.
(٦) لاث: اختلط.

النهار ثم تنقَّلن إلى قَصَبةٍ[١] كانت فى دارنا مُشْرفة على بستان الدار، ويُطَّلع منها على قرطبة وفحوصها[٢] مفتَّحةَ الأبواب، فصرنَ ينظرن من خلال الشراجيب[٣] وأنا بينهن. وإنى لأذكر أنى كنت أقصد نحو الباب الذى هى فيه، أُنْسًا بقربها، متعرِّضا للدنوِّ منها، فما هى إلا أن تَرانى فى جِوارها فتترك ذلك الباب وتقصد غيره مع لُطْف الحركة. فأتعمدَّ أنا القصدَ إلى الباب الذى صارتْ إليه، فتعود إلى مثل ذلك الفعل من الزَّوال[٤] إلى غيره. وكانت قد علمتْ كَلَفِى بها، ولم يشعر سائر النسوان بما نحن فيه، لأنهن كن عددا كثيرا، وكن ينتقلن من باب إلى باب بسبب الاطلاع من بعض الأبواب على جهات لا يطَّلع من غيرها عليها. واعلم أن قيافة[٥] النساء فيمن يميلُ إليهن أَنْفَذُ من قيافة مدلج[٦] فى الآثار. ثم نزلنَ إلى البستان، فرغب عجائزُنا وكرائمُنا إلى سيداتها فى سماع غنائها، فأمرتْها، فأخذت العودَ، وسوَّتْه بِخَفَرٍ وخجلٍ لا عهد لى بمثله، وإن الشىء ليتضاعف حسنه فى عين مُسْتحسنه، ثم اندفعتْ تغنى بأبيات للعباس بن الأحنف.. ولعمرى لكأن المِضْرابَ كان يقع على قلبى، وما نسيت ذلك اليوم، ولا أنساه إلى يوم مُفارقتى الدنيا».

ويمضى ابن حزم فيذكر أن خطوبَ الفتنة الكبرى بقرطبة فرَّقت بينه وبين هذه الجارية إلى أن رآها بعد بضع سنوات فى جنازة لبعض أهله باكية نادبة، فأثارت فيه وجدا دفينا وحركت ساكنا وذكَّرتْه عهدا قديما وحُبًّا تليدا ودهرا ماضيا وجدَّدت أحزانه، وما كان نَسِىَ، وزاد الشَّجا وتوقَّدت اللوعة. واضطُرَّ إلى فراق قرطبة سنة ٤٠٤ فغابت عن بصره نحو خمسة أعوام، وعاد فنزل على بعض أهله فرآها وما كاد يميِّزها فقد غاض الحسن وذهبت نضارتُها لفقدها الصيانة التى كانت لها فى قَصْر أبيه وأيام عِزِّه، ويقول إنه مع ذلك لو أنالته أقلَّ وَصْلٍ وأنستْ له بعض الأنس لجُنَّ طربا أو لمات فرحا، غير أن هذا النفار منها هو الذى أتاح له الصبر والسَّلْوَى مع ما ظل يطْوى فى نفسه من عذاب حبه وآلامه.

ومثل هذا التصوير الواقعى القصصى الصريح المرسل فى غير تكلف لسجع أو غير سجع يتحدث ابن حزم عن الحب العذرى العفيف وتجاربه فيه وتجارب معاصريه وما له

---

(١) قصبة: غرفة أو غرف مشرفة فى الدار.
(٢) فحوص قرطبة: ضواحيها
(٣) شراجيب: قوائم.
(٤) الزوال: التحول.
(٥) القيافة: المعرفة القائمة على التتبع.
(٦) مدلج فى الآثار هنا: متعمق فى تتبع الآثار.

من سلطان على النفوس وما يثير فيها من آلام وشكوك، وما له من ضحايا، وما يحدث فيه من العتاب والخصام والصلح والتواعد على اللقاء ومن الهجر والخداع والغدر والسلوان إلى غير ذلك مما يتعثر أهل الهوى فى شباكه. وفى حديثه عن السعادة بالوصل يقول إنه «الحياة المجدَّدة» ويقول الدكتور الطاهر مكى فى هامش تحقيقه للكتاب إن هذه العبارة لفتت عامة المستشرقين لأنها تتطابق مع نفس العنوان الذى اختاره دانتى الإيطالى (١٢٦٥ – ١٣٢١ م) لكتابه La Vita Nova الرائع، وهو على غرار طوق الحمامة، طاقة طريفة من أقاصيص الحب ومقطعات الشعر والتحليل النفسى الخلقى مما يؤكد معرفته بالطوق. ولا يشك آسين بلاسيوس – كما ذكر بالنثيا – فى معرفة دانتى بالتراث الأدبى الأندلسى، ويشير الدكتور الطاهر مكى أيضًا فى هوامش الكتاب إلى تأثير بعض موضوعاته فى الروايات الإسبانية. ويذكر ابن حزم قصة فى باب «القنوع من المحبوب بأى شىء» عن امرأة فى صقلية شاهدت شابا فى غاية الجمال بأحد المتنزهات، فسارت خلفه تنظر إليه، فلما بَعُدَ أتت إلى المكان الذى أثر فيه مشيه وجعلت تقبل الأرض فى مواقع قدميه، ويقول بالنثيا إن شاعرهم الإسبانى المبدع «ماثياس» حاكى هذه القصة بنفس الصنيع. ويبدو أنه كان لطوق الحمامة ترجمة لاتينية مبكرة وأخرى إلى الإسبانية.

كتابة التاريخ والتراجم الأدبية

(أ) المقتبس لابن حيان

هو أبو مروان[١] حيان بن خلف بن حيان، وقد وزر خلف للمنصور بن أبى عامر (٣٦٦ – ٣٩٢ هـ) وبعد وفاته وزر لابنه المظفر عبد الملك (٣٩٢ – ٣٩٩ هـ) وظل بقرطبة طوال اندلاع فتنتها (٣٩٩ – ٤٢٢ هـ). وتوفى سنة ٤٢٧. ورُزق بابنه حيان سنة ٣٧٧ وعنى بتربيته، ويذكر ابن بشكوال فى كتابه الصلة من شيوخه ثلاثة هم الفقيه المحدث عمر بن نابل واللغوى النحوى ابن أبى الحباب والعالم اللغوى المشهور صاعد البغدادى وجميعهم توفوا بين سنتى ٤٠٠ و٤٠٣ للهجرة، مما يدل على أن ابن حيان اكتملت له ثقافته وهو فى نحو العشرين، وكان منهوما بقراءة الكتب فعكف عليها يستوعبها وخاصة

---

(١) انظر فى ابن حيان وترجمته الذخيرة ٥٧٣/١ والجذوة: ١٨٨ والبغية رقم ٦٧٩ والصلة رقم ٣٤٢ وراجع دراسة د. محمود مكى فى مقدمة نشره لقطعة المقتبس الخاصة بعبد الرحمن بن الحكم الربضى وابنه محمد (طبع بيروت) وتاريخ الفكر الأندلسى لبالنثيا ص٢٠٨ وتاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس للدكتور حسين مؤنس (طبع مدريد) ص١٠١.

كتب التاريخ. وظل بعد وفاة أبيه لا يبرح قرطبة حتى وفاته سنة ٤٦٩ وليس بين أيدينا ما يدل على أنه عمل فى دواوين الدولة حتى نهاية عهد أبى الحزم جهور سنة ٤٣٥. ويبدو أنه كان له ولأبيه من قبله ما كفل لهما الحياة الكريمة، ونرى أبا الوليد حين يخلف أباه جهورا يلحقه بدواوينه ويفرض له راتبا واسعا. وذكر مترجموه أنه لُقِّب بلقب صاحب الشرطة، واستظهر الدكتور محمود مكى أن يكون هذا اللقب أُسبغ عليه رسميا فقط دون أن يتولى القيام على الشرطة بقرطبة. وحين قسم أبو الوليد بن جهور الحكم فى إمارته قرطبة بين ولديه عبد الملك وعبد الرحمن، وجعل لعبد الملك أمر قرطبة نفسها، وكان سىء التدبير حاصره المأمون بن ذى النون أمير طليطلة، مما جعله يستنجد بالمعتمد بن عباد أمير إشبيلية، وانتهز المعتمد الفرصة فاستولى على تلك الإمارة سنة ٤٦٣ ونفى منها أبا الوليد وابنيه عبد الملك وعبد الرحمن كما مر بنا فى غير هذا الموضع، ونرى ابن حيان يهنئه بهذا الفتح، كما نراه يوثق علاقته بأبى بكر بن زيدون وزير المعتمد، وفى الذخيرة رسالة له يشكره فيها على ما أرسله إليه من القمح والزيت والدهن، وظلت العلاقة وثيقة بينهما إلى وفاة ابن حيان. ويذكر له الدكتور محمود مكى ثلاثة كتب تاريخية بجانب المقتبس هى:

١ - أخبار الدولة العامرية: دولة المنصور وابنيه المظفر عبد الملك والناصر.
٢ - كتاب المتين ويبتدئ بتاريخ الفتنة سنة ٣٩٩ إلى نحو سنة ٤٦٣.
٣ - وكتاب البطشة الكبرى وهو فى خلع المعتمد بن عباد لأبى الوليد بن جهور عن قرطبة ونفيه مع ولديه عبد الملك وعبد الرحمن إلى جزيرة شلطيش فى الجنوب الغربى للأندلس.

ونظن ظنا أن أخبار الدولة العامرية لم تكن كتابا مستقلا عن كتاب المتين، بل كانت أجزاؤه الأولى، وبالمثل كتاب البطشة الكبرى كان جزءا فى كتاب المتين، إذ يقال إنه كان فى ستين مجلدة. وكأن ابن حيان إنما كان له فى رأينا كتابان فى تاريخ الأندلس كتاب المقتبس وكتاب المتين، وقد سقط كتاب المتين من يد الزمن بسبب ضخامة حجمه، وفى كتاب الذخيرة والجزء الثالث من البيان المغرب لابن عذارى والمغرب لابن سعيد وكتب ابن الأبار نقول منه كثيرة. وبقيت من المقتبس خمس قطع أو قل خمسة أجزاء: جزء يضم إمارة الحكم الربضى (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) وشطرا من إمارة ابنه عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) وقد تملكه المستشرق بروڤنسال ورجع إليه مرارا فى كتابه «تاريخ

إسبانيا الإسلامية» ومصير هذا الجزء بعد موت بروفنسال غير معروف. وجزء ثان يضم بقية إمارة عبد الرحمن الأوسط وابنه محمد (٢٣٨ - ٢٧٤ هـ) نشره الدكتور محمود مكى ببيروت. وجزء ثالث يضم إمارة عبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠هـ) نشره الراهب ملتشور أنطونيا بباريس، ويعيد نشره الآن الدكتور مكى. وجزء رابع نُشر بمدريد باسم الجزء الخامس نشره شالميتا مستعينا بكورينطى وصبح، ويضم الشطر الأكبر من خلافة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠هـ). ثم جزء فى أحداث خمس سنوات من خلافة المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦هـ) نشره ببيروت الدكتور عبد الرحمن الحجى. ويتميز ابن حيان فى المقتبس بأنه يضم فى تاريخ كل حاكم أموى إلى الأحداث المرتبة على السنوات معلومات مهمة عن شخصية الحاكم والأحوال الاجتماعية والعمرانية والاقتصادية فى عهده مع تراجم مفصلة للوزراء فى أيامه وللقواد والقضاة والعلماء والكتاب والشعراء. وبذلك يجمع المقتبس تاريخ الأندلس الثقافى والاجتماعى والعمرانى والاقتصادى إلى تاريخها السياسى. ونذكر قطعة من حديث ابن حيان فى الجزء الخاص بالناصر عن غزوته لمدينة بنبلونة قاعدة مملكة نبارَّة فى بلاد البَشْكُنْس.

«فى سنة اثنتى عشرة وثلاثمائة غَزَا الخليفة الناصر لدين الله إلى دار الحرب - دمَّرها الله - غَزْوته المعروفة بِبَنْبَلُونَةَ: بلد أعداء الله الكفرة البَشْكُنس، وسلك فى سفره هذا طريقَ الشرق، وتمنَّع من النزول إليه والغزو معه محمدُ بن عبد الرحمن، وكان بمدينة العَسْكر من أَحْواز[١] بَلَنْسِيَة، فنازل حصونه ووَطِئ بساطه وأوقع به.. ودخل بجموعه بلادَ المشركين بَنْبَلُونَةَ بأنفذِ عزمٍ وأَوْكد حَزْمٍ وأقوى نيَّة فى الانتقام لله تعالى ولدينه من الأرْجاس[٢] الكفرة واحتلَّ من أول بلدهم حصن قَلْهُرَّة، وكان العِلْج شانجه[٣] أميرهم - لعنه الله - قد أخلاه فأمر بهدمه وإحراق جميع ما فيه. ثم انتقل منه إلى موضع يُعْرَفُ بقنْطرة أَلْبَة وكانت حوله حصون منيعة قد أخلاها الكفرة، وخلَّفوا فى بَسائطها[٤] جميعَ أمتعتهم وأطعمتهم، إذ أُعْجلوا عن انتقالها ولجأ عُلوجُ منهم بأهليهم وأولادهم إلى ثلاثة غِيران[٥] فى شفير جُرْف[٦] على النهر، فلم يزل المسلمون

---

(١) أحواز: نواحى.
(٢) الأرجاس جمع رجس: القذر.
(٣) العلج: الكافر الفظ، وشانجه: حاكم البشكنس (٢٩٣-٣١٤هـ).
(٤) بسائطها: أراضيها المبسوطة.
(٥) غيران جمع غار: المنخفض من الأرض.
(٦) شفير: جانب. جرف: شق الوادى.

يَتَوَقَّلون[١] إليهم فيها، ويَتَسَوَّرون[٢] عليهم من أعاليها، حتى فتح الله تلك الغِيران عليهم، فقتلوا العُلوج وسَبوا الذَّرارى وغنموا الأمتعة، وهُدِمَتْ حصون الكفَرة التى كانت فى تلك الجهة، فلم يبق فيها صَخْرة قائمة. ثم تنقَّل الناصر لدين الله من هذه المَحِلَّة[٣] بعد أن أقام فيها يوما إلى حِصْن فالجْش فأضْرِمت نارا أرْباضُه[٤] واستقصيت زروعه ونِعَمه بالنَّسف والاستئصال.. ثم اسْتَعْزَمَ على الإيغال فى بلد الكفرة والاقتحام لسَرَوَاته[٥] والتوصل إلى موضع قَرارهم ومجتمع كفارهم ونِكايتهم فى عُقْر[٦] دارهم ومكان أَمْنهم.. وأمر بتعبئة الكتائب وترتيب المقانب[٧] وشَكِّ[٨] العَسْكر.. وارتحل الناصر لدين الله بين أَجْبُلٍ[٩] شامخة، وشواهقَ منقطعةٍ، والجيوشُ لا تمرُّ بموضع إلا اصْطَلَمَتْه[١٠] وَنَسَفت زروعَه، وأفسدتْ ما لم يَسْتوف أُكُلَه وهدمتْ قُراه وحُصونه، إلى أن بلغ مدينة بَنْبلونة التى إليها يُنْسَبُ الإقليم، فأصابها خاليةً مُقْفِرة، فدخلها الناصرُ لدين الله بنفسه وجال فى ساحاتها وأمر بهدم جميع مبَانيها وتخريب كنيسةِ الكفرة المعظَّمة وموضع بيِعتهم[١١] ومكانَ مَنْسكهم فجُمعت الأيدى عليها، حتى جُعلت قاعًا صَفْصَفًا.[١٢] وتنقل الناصر لدين الله، وكان فى ممرِّه فجٌّ[١٣] ضيق المسالك وَعْرُ المجاز.. وتظاهر[١٤] أعداءُ الله لأهل الساقة[١٥] مُتَسنِّمين[١٦] فى جبل شاهق، ملتمسين الفرصة، فنهضت الخيلُ إليهم سريعا، فكشفتهم وهزمتهم، وقتلتْ طائفة منهم، فانْقَشَعوا[١٧] مُدْبرين لائنين لا يلْوُون ولا يعرِّجون، وتقدَّم المسلمون بعِزَّة القَهْر وسَوْرَة[١٨] النصر».

وبهذا الأسلوب الأدبى الخافق بالحيوية البارع فى تصوير المواقع الحربية يمضى ابن حيان فى المقتبس وغيره من كتبه التاريخية، وكأنه يستمد من معين لغوى وأدبى لا ينضب،

---

(١) يتوقلون إليهم: يأتونهم من الأعالى.
(٢) يتسورون: يتسلقون.
(٣) المحلة: الموضع.
(٤) الأرباض جمع ربض: ما حول الحصن أو المدينة.
(٥) سروات البلاد: أوساطها وأعاليها.
(٦) عقر دارهم: وسطها.
(٧) المقانب جمع مقنب: جماعة الفرسان.
(٨) شك العسكر: حمله للسلاح.
(٩) أجبل: جمع جبل.
(١٠) اصطلمته: استأصلته.
(١١) بيعتهم بكسر الباء: معبدهم.
(١٢) صفصفا: لا نبات فيه.
(١٣) فج: طريق.
(١٤) تظاهر: تجمَّع.
(١٥) الساقة: مؤخرة الجيش.
(١٦) متسنمين: محتلين ومختفين.
(١٧) انقشعوا: انسحبوا وتفرقوا.
(١٨) سورة هنا: مجد.

معين يرفده بكل ما يريد من كلم ومن صور دالَّة بحيث يستوى له نسق أسلوب محكم بألفاظه التى يرصفها فى يُسْرٍ متلاحقة بجزالتها ورصانتها ونصاعتها وأى نَصاعة؟ لكأنما كانت الألفاظ مختبئة فى أكمامها اللغوية الأدبية، حتى جاء ابن حَيَّان، فتفتحت له أكمامها وانقادت إليه مهيِّئة له هذه الرَّوْعةَ فى اختيارها ونَسْج تعبيراتها مع الرونق الذى يلذ العقل والشعور، وهو رونق لا يستعين عليه بشىء من تزاويق المحسنات البديعية التى أخذ يصطنعها بعض كتَّاب عصره، ولا شىء من السجع إلا ما جاء عفوا، مثله فى ذلك مثل ابن شهيد وابن حزم ولا إفراط فى السرد التاريخى ولا تفريط، بل سرد مقتصد يؤدى المعانى بدقة، مع إحكام التصوير النفسى والاجتماعى لمن يترجم لهم من الأمراء والوزراء والقضاة وأصحاب المناصب الرفيعة والنساء والجوارى. ودائما يذكر بجانب محاسن الشخصية ومناقبها ما قد سُجِّل عليها من معايب ومساوئ. وكثيرا ما يسوق قصصا ممتعة تتمم ملامح الشخصية أو تخفّف عن القارئ جَفاف التاريخ على نحو ما يلقانا فى الصفحات الأولى من الجزء الخاص بالناصر وحديثه فى مطلعه عن حَظِيَّته مرجان أم ولى عهده المستنصر وكيف سَلَبَتْهُ من ابنة عمه الحرَّة وأوقعتها فى شِباك سُخْطه بدهائها ومكرها حتى منتهى حياتها. وهى قصة طريفة بما تصور من مكر النساء وكَيْدهن وما يتخذن لذلك من بعض الحيل الخادعة. وفى الحق أن كتابات ابن حيان فى المقتبس وغيره طرازٌ من الكتابة التاريخية الأدبية لا مثيل له قبله ولا بعده.

(ب) الذخيرة لابن بسام

هو أبو الحسن على[1] بن بسام التَّغْلبى الشنترينى من شَنْتَرين فى أقصى الغرب على نهر تاجُه بالقرب من مصبه فى المحيط الأطلسى عند أُشْبونة، وُلد بها قبيل سنة ٤٦٠ لأسرة على شىء من اليسار، وعُنى بتربيته أبوه، وتفتحت موهبته الأدبية مبكرة، ونراه فى صحبة مَنْ ببلدته من الأدباء ومَنْ يحيطون بالمتوكل أمير بطليوس عاصمة إقليمه

(١) انظر فى ابن بسام وترجمته رايات المبرزين لابن سعيد (طبع القاهرة) ص ٤٥ وكتابه المغرب ٤١٧/١ ومعجم الأدباء ٢٧٥/١٢ وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١٠٨/٦ ومقدمته لكتابه الذخيرة وراجعْه فى محاورته مع ابن عبدون ١٤٤/١ وفى لقائه لابن الدودين ٧٠٣/٣ وفى عمله بدواوين إشبيلية ٢٠/٤ وفى ابتداء تأليفه للذخيرة ٦٥٤/٣ وفى أثناء تحريره لها ٤٥٢/٢ و٧٨٧/٣ و٧/٤ وانظر إحكام صنعة الكلام للكلاعى (تحقيق رضوان الداية) ص ١٣٣ إذ يذكر إرسال ابن خفاجة له طائفة كبيرة من شعره ونثره. وقد حقق الدكتور إحسان عباس الذخيرة ونشرها نشرة علمية محققة فى ثمانية أجزاء.

والوافدين عليه الملمين به مثل الشاعر ابن عبدون، وله معهم مطارحات. وينزل أُشْبونه سنة ٤٧٧ ويلتقى بأديبها ابن الدودين ويكتب عنه طائفة من نظمه ونثره، مما يدل على أنه أخذ يشغف بالتعرف على أدباء موطنه منذ شبابه وتدوين بعض أشعارهم ورسائلهم. وأكثرَ نصارى الشمال من الإغارة على بلدته، مما جعله يهاجر منها - كما ذكر فى مقدمته للذخيرة - مروَّع السِّرب، بعد أن استنفد الطريف والتِّلاد، مما اضطره إلى التقلب فى البلاد. ولم يتجه إلى عاصمة إقليمه بطليوس، وإنما اتجه إلى إشبيلية عاصمة بنى عباد، وبها كان أكبر حشد حافل بالأندلس حينئذ من الكتاب والشعراء، ويقول ابن سعيد فى كتابه الرايات إنه اتخذها موطنا له، ويذكر ابن بسام إنه خدم فى بعض أعمالها السلطانية، ونعله بدأ ذلك بأخرة من عهد المعتمد بن عباد. ولم يلبث أن أظله فيها عهد المرابطين وأميرها ابن أخى يوسف بن تاشفين الذى مهد له سلطانه على الأندلس: سير بن أبى بكر، وقد ظل يلى إشبيلية - فيما يقال - سبعة وعشرين عاما. ويشيد ابن بسَّام فى مقدمته للذخيرة بعهده وبما أسبغ عليه وعلى الأدباء من العطاء الوفر، ولم يسمِّه، ولكن من الواضح أن هذا الثناء المستطاب على من خلف فى حكم إشبيلية والبلاد إنما يريد به سير بن أبى بكر. ويقول إنه قدَّم إلى حضرته الذخيرة مطرِّزا لها باسمه حتى تجوب به الآفاق. ويبدو أنه كان يترك إشبيلية فترات، ثم يعود إليها من حين إلى حين كما يبدو أنه استعفى من الأعمال السلطانية منذ أخذ يجمع عزمه على تحرير الذخيرة مكتفيا بما كان يغدقه عليه الكتاب والشعراء ممن يريدون أن يحظوا بشرف ذكرهم فيها وما وفَّره من بيع نسخها أو إهدائها لهواة الأدب ومحبيه، ولا شك فى أن سير بن أبى بكر أعطاه فى نسخته مبلغا ضخما من المال، أكبر الظن أنه كفل له عيشة طيبة إلى أن توفى سنة ٥٤٢ للهجرة.

وكتاب الذخيرة حققه الدكتور إحسان عباس فى ثمانية مجلدات، وقد ترجم فيه ابن بسام لشعراء عصر أمراء الطوائف وأوائل عصر المرابطين وكتَّابهما ترجمات ضافية، وشفع ذلك بأخبار سياسية واجتماعية عن الأمراء والحكام وأهل الأندلس ومعاركهم مع نصارى الشمال. وقسم الكتاب أربعة أقسام: قسم لقرطبة وما يصاقبها من مَوْسَطة الأندلس، وقسم لإشبيلية وأهل الجانب الغربى حتى ساحل البحر المحيط، وقسم لأهل الجانب الشرقى من دانية وبلنسية إلى الثغر الأعلى، ثم قسم رابع خاص بالوافدين على جزيرة الأندلس من المشرق والبلاد المغربية. وهو حين يعرض كاتبا أو شاعرا أو أميرا أو وزيرا لا يكتفى بكلمات مجملة أو مقتطفات شعرية ونثرية قليلة بل يعمد إلى التفصيل وذكر الدقائق مستعينا بمؤرخ عصر الطوائف ابن حيان فى كتابه المتين وبقدرة تحليلية

وبيانية على حشد كل ما يجلو ملامح من يتحدث عنهم من الأدباء ورجال السياسة والحكم، وهو بذلك يختلف اختلافا بينا عن الثعالبى فى يتيمته والعماد الأصبهانى فى خريدته، إذ لا يرصف حشودا من الثناء والإطراء لا تكشف شخصية من يكتب عنه كما يصنعان، بل يجلو شخصيته جلاء تاما، على الرغم من أنه يعتمد فى كتابه على السجع مثلهما، غير أنه سجع لا يستر حقائق الشخصية، بل يعرضها فى ضياء غامر، ولنضربْ لذلك مثالا، هو ترجمته للشاعر أبى عبد الله بن الحداد الذى مرت ترجمته بين شعراء المديح وهو يفتتحها على هذه الشاكلة[1]:

«كان أبو عبد الله هذا شمسَ ظَهيرةٍ، وبحرِ خَبرٍ وسِيرةٍ، وديوانَ تعاليمَ مشهورة، وضَح في طريق المعارف وضوح الصُّبْح المتهلِّل، وضَرَب فيها بقِدْح ابن مُقْبل[2] إلى جلالةِ مَقْطَعٍ، وأصالة مَنْزَعٍ، ترى العلم يَنِمُّ على أشعاره، ويتبيَّن فى منازعه وآثاره، وله فى العَروض تأليف، وتصنيف مشهور معروف، مزَج فيه بين الأنحاء الموسيقية، والآراء الخِليليَّة، وردَّ فيه على السَّرَقُسْطِيِّ المنبوز بالحمار[3]، ونقض كلامه فيما تكلم عليه من الأشطار. وأصل أبى عبد الله من وادى آش إلا أنه استوطن المَرِيَّة أكثرَ عمره، وفى بنى صُمادح معظمُ شعره، ومع ذلك طُولِبَ عندهم هنالك، ولِحَقَ بثغر بنى هود، وله فيهم أيضا غيرُ ما قصيدٍ، وهو القائل بعد خروجه من المَرِيَّة من قطعة فَلْسفية:

لزمتُ قناعتى وقعدتُ عنهمْ فلستُ أرى الوزيرَ ولا الأسيرا
وكنتُ سَميرَ أشعارى سَفاهًا فعــدتُ لفَلْسَفِيَّـاتى سمَيــرا

وكان قد مُنِيَ فى صباه بصبيَّة نصرانية ذهبتْ بلُبِّه كلَّ مذهب، وركبَ إليها أصعبَ مَرْكب، فصرف نحوها وَجْهَ رضاه، وحكَّمها فى رأيه وهَواه، وكان يسمِّيها نُوَيرة كما فَعَل الشعراءُ الظرفاء قديما فى الكناية عمنَّ أحبوه، وتغيير اسمِ مَنْ عَلِقوه. وقد كتبت فى هذا الفصل بعض ما قاله فيها من مُلَحه، ورائق أوصافه ومِدَحِه، وبعض سائر شعره، بعد تقديم فصول من نثره ما يُقِرُّ بتفضيله، ويشهد له بجملة الاحسان وتَفْصيله».

والتعريف بابن الحداد مثل بقية الذخيرة مسجوع، والسجع فيها دائما لا يبهم شخصيات الشعراء والكتاب بل يوضحها توضيحا تاما على نحو ما نرى الآن فى السجع

---

(١) الذخيرة ١/٦٩١.

(٢) قدح ابن مقبل: سهم فائز من سهام الميسر.

(٣) هو سعيد بن فتحون وانظره فى الجذوة ٢١٦ والذيل والتكملة ٤/٤٠.

الذى قدَّم به ابنَ الحداد، إذ يجلو ملامحه وثقافته جلاء تاما، فهو عربى الأصل من قيس، وكان مثقفا ثقافة واسعة بالفلسفة وما يتصل بها من علوم الأوائل وتنم عن ذلك أشعاره، وله فى علم العروض كتاب ردَّ فيه على الفيلسوف السرقسطى الملقب بالحمار محتجا للخليل بن أحمد واضع هذا العلم بما ذكره عن الأعاريض المهملة وقد ألمنا بذلك فى ترجمة ابن الحداد. ويَذْكر أن مسقط رأسه مدينة وادى آش إلى الشمال الشرقى من غرناطة وأنه استوطن المرية، وعاش بها سنوات متوالية يمدح بنى صمادح أمراءها، وأنه حدث ما عكر صفو علاقته بأميرها المعتصم وسيذكر فيما بعد بالترجمة أنه اعتقل أخاه سنة ٤٦١. ويقول إنه ولَّى وجهه إلى بنى هود بسرقسطة، ويذكر فيما بعد بالترجمة أنه عاد ثانية إلى المرية «وحسن بَعْدُ بها مَثْواه، وأكرمه المعتصم وأجزل قِراه» وظل بالمرية إلى أن توفى بها سنة ٤٨٠. ويعرض علينا فى الترجمة قطعة كبيرة من نثره ورسائله، ثم يعرض علينا طرائف من شعره، ويقتطف من غزله بُنَوَيْرَةَ قطعة بديعة ويقول إن اسمها الحقيقى جميلة، وكأن أهلها سموها باسم عربى، ثم يذكر مقتطفات من مدائحه فى المعتصم بن صمادح منذ سنة ٤٥٥، ولا يتجلَّى لنا ذوقه الأدبى فى جمال اختياراته من شعر ابن الحداد فحسب، بل أيضا تتجلَّى لنا قدرته النقدية إذ يَرُدُّ بيتا لابن الحداد إلى أصله عند المعرى، ويقول إن النابغة الذُّبيانى سبق المعرى إلى معناه وإن عبد الجليل بن وَهْبون الشاعر يشترك مع ابن الحداد فيه ويذكر لأبى وَجْزَةَ السَّعْدى الأموى بيتا يتعلق بالمعنى. ويُنْشد لابن الحداد قصيدة ثانية ويلاحظ صلةً بين بيت له وبيتين للمتنبى ويذكر أن المتنبى ألمَّ فى بيتيه ببيتين لمسلم بن الوليد وأن مسلما مسبوق فى بيتيه ببيتين للنَّمرِىّ. وتلقانا مثل هذه التعليقات النقدية فى الذخيره مرارا وتكرارا. وأشار ابن الحداد فى مدحة للمعتصم إلى قصة القارظين فى الجاهلية فاستطرد ابن بسام يقصها استرواحا للقارئ. وبذلك تكاملت ترجمة ابن الحداد سواء فى سيرته وحبه فى مطالع شبابه لنويرة أو فى ثقافته أو فى نثره أو فى شعره وطرائفه وبدائعه فى مديح المعتصم والمقتدر بن هود.

ويقول ابن بسام فى القسم الأول بحديثه عن أشعار بنى الطبنى (٥٤٤/١) إنه صان كتابه عن ذكر الهجاء المقذع إلا أن يكون من مليح التعريض، وكأنه أراد به مَنْحىً أخلاقيا وإن لم يطبقه بدقة أحيانا. ويمتزج هذا المنحى عنده بمنحى دينى إذ نراه فى القسم الثانى بترجمته للشاعر ابن وهبون (٤٧٨/٢) يحمل على الشعر الفلسفى المتأثر بمنزع المتنبى وأبى العلاء، وهو تشدد أكثر مما ينبغى. وبحقٍّ حمل فى القسم الأول بترجمة الوزير ابن الشماخ (٨٤١/١) على الاستعارات البعيدة التى يمجُّها الذوق كأن يجعل شاعر

للكلام كيسًا يحلُّ عَقْده، ويجعل شاعر تان للبَلْوَى بَرَصًا ويجعل شاعر ثالث للمهابة فأسًا. وكان له ذوق أدبى مصفًى أحال به الذخيرة إلى متحف رائع يموج بالاستعارات والأخيلة المبتكرة ولُمَع البديع الرائعة بل إنه يموج بفرائد لا تحصى للأندلسيين من الشعر والنثر، ويكفى أنهم يبلغون فى الكتاب أكثر من تسعين بين شاعر وكاتب، ولم يكد ابن بسام يترك لأحدهم عملا أدبيا أبدع فيه إلا عرضه حتى يصور بدقة ما ذكره فى مقدمة الكتاب من تفوق الأندلس فى الأدب وأنها منه فى الأفق الأعلى.

وفى الحق أنه لولا الذخيرة لظل الأدب الأندلسى بروائعه الباهرة شعرا ونثرا محجوبا عن الباحثين ولما استطاع أحد أن يكتب تاريخه. وذكر ابن بسام فى بعض الصحف أنه ابتدأ تحرير الذخيرة بقرطبة سنة ٤٩٣ وقال إنه كان لا يزال معنيا بتحريرها سنة ٥٠٠ وأنه بدأ الكتابة فى قسمها الرابع سنة ٥٠٢ ويبدو أنه كان لا يزال يعيد النظر فى بعض فصولها، إذ نراه فى ترجمته للكاتب ابن أبى الخصال يذكر أنه لم يجد لديه فى سنة ٥٠٣ شيئا من ترسله، فسأل بعض إخوانه أن يخاطبه ليرسل إليه بعض نماذج من أدبه. وبدون ريب اقتضت الذخيرة من ابن بسام جهودا مضنية فى سنين متطاولة، وهى جهود تنوء بها العصبة أولو القوة.

مذكرات عبد الله بن بُلُقِّين

هو عبد الله[1] بن بُلُقِّين بن حَبُوس بن ماكسن بن زيرى الصنهاجى القيروانى آخر أمراء بنى زيرى لعهد الطوائف. شاد لهم هذه الإمارة بغرناطة وإلبيرة زاوى بن زيرى فى زمن الفتنة، وظل يلى شئونها حتى سنة ٤١٠ وخلفه ابن أخيه حبوس بن ماكسن حتى سنة ٤٢٩ وقام عليها بعده ابنه باديس حتى وفاته سنة ٤٦٥ وورثها بعده ابن أخيه عبد الله بن بلقين وهو فى الثامنة من عمره، وحاز حظا من العربية والثقافة غير أنه لم يكن على نصيب من السياسة والمهارة فى تدبير الحكم، فاتخذ وزراء أغمارا غير مجربين مثل سِماجة الصنهاجى، ويقول ابن الصيرفى المؤرخ إنه كان جبانا هيَّابة مغمد السيف، فكان طبيعيا أن ترتعد فرائصه كلما ذكر ألفونس السادس أمير قشتالة، وقد فرض عليه

---

(١) انظر فى عبد الله بن بلقين المغرب ١٠٨/٢ وأعمال الأعلام لابن الخطيب (طبعة بروفنسال) ٢٣٣/٢ وما بعدها والإحاطة ٣٧٩/٣ وتاريخ ابن خلدون ١٦١/٤ والبيان المغرب لابن عذارى. ومذكرات الأمير عبد الله منشورة بدار المعارف فى القاهرة.

عشرة آلاف دينار يدفعها سنويا. وكان طبيعيا أن يهلل لعبور يوسف بن تاشفين أمير المرابطين بجنوده إلى الأندلس ومواقعته ألفونس في الزلاقة وسحقه لجيشه سحقا كاد لا يبقى منه ولا يذر. وعاد يوسف إلى المغرب، وعاد أمراء الأندلس إلى المنافسات فيما بينهم ومدِّ أيديهم إلى ألفونس السادس، كلٌ يستعديه على أخيه، واستغاث الفقهاء في الأندلس ثانية بيوسف. وأخذ المعتمد بن عباد أمير إشبيلية وعبد الله بن بلقين وغيرهما يحاولون استصراخ ألفونس خشية أن يفكر يوسف في عزلهم وضم الأندلس إلى سلطانه. وعرف يوسف ما يبيِّتون وخشي على الأندلس من الضياع، فعبر إليها سنة ٤٨٣ وبدأ بغرناطة وأميرها عبد الله بن بُلُقِّين، وكان لا يزال يعد جيشه للقاء يوسف كما كان يفاوض ألفونس ويرسل إليه هدايا نفيسة ويطمعه بأموال كثيرة ليمد له يد العون، ونصحه خلصاؤه أن يلقى ابن تاشفين وكان قد أصبح على مسافة فرسخين من غرناطة، فلقيه مترجِّلا مرحِّبا سائلا العفو، فأمَّنه على نفسه وأهله وطيبَّ خاطره، وصودر كل ما كان بالقصر وكل ما ملك عبد الله وأمه من أموال. وأمر يوسف بتوزيع كل ذلك على قواده ولم يستأثر منه بشيء. ونفى عبد الله إلى المغرب الأقصى مع مشيعين يؤنسونه في الطريق ويتكفَّلون أموره، وكتب إليه يوسف: «لا أنساك ما بقيت» وأنزله بأغمات، وأسعفه - كما يقول ابن الخطيب - في رغباته، فعاش معيشة كريمة، ورُزق ولدين وبنتا، وترك لهم - حين توفي - مالا جمًّا.

وكتب عبد الله في أثناء منفاه بأغمات كتابا باسم «التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة» وكانت قد حُفظت منه نسخة تنقص بعض الأوراق، فنشرها المستشرق بروفنسال باسم «مذكرات الأمير عبد الله». وهو في الفصول الأولى من الكتاب يحكي مَقْدَم بني زيري الإفريقيين أو التونسيين إلى الأندلس وتأسيس زاوي بن زيري لإمارتهم في غرناطة وتدبير حبوس بن ماكسن بعده في تنظيم حكمها وإدارته وميراث ابنه باديس الإمارة بعده واستيلاءه على مالقة وتفويضه شئون الحكم إلى وزيره اليهودي ابن النغريلّة وازدياد نفوذ النساء في القصر ومؤامرات ابن النغريلّة وإفساده الحكم وقتل صنهاجة له واستيلاء باديس على جيان. ثم تتعاقب ثمانية فصول في الحديث عن إمارته، وفيها يتحول الكتاب إلى مذكرات حقيقية، مستهلا لها بالحديث عن أحداث الأندلس وتمزقها أمام ألفونس السادس وغاراته المتلاحقة على غرناطة وغيرها مما أدى إلى استيلائه على طليطلة سنة ٤٧٨ ثم ما كان من استصراخ الأمراء والسفارات لابن تاشفين وعبوره إلى الأندلس واشتراك الأمير عبد الله في موقعة الزلاقة معه مجاهدا بماله

وجنوده، ورجوع يوسف إلى المغرب واضطراره إلى العودة، ومبارحة الأندلس وعودة أمرائها إلى الخلاف. ويحاول أن يبرر نقضه لما عاهد عليه ابن تاشفين وأخذه فى اختزان الأقوات وبناء الأسوار وإعلاء الأبراج استعدادا لمنازلته وحربه، والسوءة الكبرى أنه عقد معاهدة مع ألفونس السادس التزم فيها بأداء الجزية له سنويا، ويقول إن ابن تاشفين علم بجميع ما صنع، فأرسل إليه يهدده وكتب إليه عبد الله يبرر مسلكه، ويعرض بعض الأحداث فى إمارته وبعض الشئون الشخصية والأحوال الاجتماعية. ويفصّل الحديث فى عبور ابن تاشفين إلى الأندلس سنة ٤٨٣ للمّ شعثها ويصور مثول جيشه أمام غرناطة وأحوالها وانصراف الناس والجند عنه واضطراره إلى التسليم وما كان من نفيه إلى المغرب الأقصى ومن عزل بقية أمراء الطوائف. وينهى المذكرات بطائفة من تأملاته وأحاديث عن نفسه وعن أولاده. والمذكرات طرفة نفيسة بما تصور من الانحلال السياسى والاجتماعى والأخلاقى فى الأندلس زمن أمراء الطوائف مما أدى إلى سقوط طليطلة فى حجر ألفونس السادس وخنوع أمرائها له وانعكاس الموقف السياسى والحربى فلم يعد نصارى الشمال يؤدون الجزية لحكام الأندلس كما كان الشأن فى العصر الأموى، بل أصبح حكام الأندلس وأمراؤها يؤدون الجزية لألفونس، وأوشكت الأندلس جميعها أن تسقط فى حجره لولا أن تداركها ابن تاشفين فقلّم أظفار ألفونس فى الزلاقة وردّه إلى وكره خاسئا مدحورا. ولا تصور المذكرات الانحلال الذى عمّ الأندلس فحسب، بل تصور أيضا غرناطة وجميع أحوالها فى عهد بنى زيرى وخاصة فى عهد أميرها عبد الله، كما تصور فساد حكمه ومنازعاته مع جيرانه ومحاولاته فى التواطىء المزرى مع ألفونس السادس أمير قشتالة عدوه ضد ابن تاشفين منقذ الأندلس من براثنه. وعبثا يحاول تبرير فساد سياسته التى أدت إلى ضياع إمارته وعزله، ونفيه إلى أغمات. ومع نفاسة هذه المذكرات عبثت بها يد بروفنسال محققها إذ لم يكن يحسن العربية فامتلأت بتصحيفات لا تكاد فى أحوال كثيرة توجد بينها مسافات فى السطور والكلمات. ونسوق من المذكرات قطعة من حديث عبد الله عن أهل غرناطة حين اقترب منها ابن تاشفين وانفضاض كل من فيها من الجند والناس عنه حتى العبيد من الصقالبة وغيرهم وحتى الخدم من النساء والغلمان، يقول[1]:

«أما الجندُ من البَرْبَر فكانوا مغتبطين بهم (بالمغاربة) طامعين فى الزيادة على أيديهم

---

(١) المذكرات ص ١٥ وصححنا النصّ فى غير موضع.

لِلجنسية، واتفق رأيهم على أن لا يلقوه بجَحدْ[١] وقدموا كتبهم بالطاعة، وراجعهم عليها، يعدهم بأن يبقيهم فى أماكنهم على أفضل ما كانوا عليه.. وأما مَنْ كان من التجار وأهل البلد فكانوا على نيَّة أنهم مع من انتصر ولا طاقة لهم بالحرب، ولا هُمْ أهلها، وأكثرهم خرج من البلدة يقول: «لأى وجه نَحْتمل الحصار؟ تاجر هنا أو صانع،كما فى غيرها. وأما الرعية فبخٍ بخ، ذلك ما كانت تبغى طمعا منها فى الحرية وأنها لا يلزمها غيرُ الزكاة والعُشْرِ. وأما العبيد والصقالبة، فالعبيد الأعلاج (الأفظاظ) أولِ من عصا، رجوا أن يكونوا عنده فى أعلى مرتبة. حتى الخدم من النساء والخِصْيان كلٌّ طامع فى إقبال الدنيا عليه والخروج عن ثِقاف (قيد) القصر إلى راحة التسريح والاستهتار بالرجال وما أشبه ذلك. وجعفر الخصىُّ منهم ولبيبٌ كانا زعيمى المداخلة ورَأْسَا الفَتْك، يقولان: «نحن لا ولد لنا ولا تالد[٢]» فعلى أى شىء نصير[٣] إلى القتال؟ وما عسى نطمعُ إن نَصِرْ إليه؟ هل تحصل لنا سلطنَة أو قيادةٌ أو قضاءٌ أو فقه؟ إنما نحن بمنزلة العِيال، من سبق[٤] استمتعَ بنا وكنا عنده من جملة الفَيْء، نُرْزَقُ كسائر الكَسْب، فلا نضيع، تعالوا بنا نقدِّم لأنفسنا، ووردتْ عليهم كتبُ أمير المسلمين بالإِنْزالات القوِّية والمثاقيل والمراتب العالية، يَعِدهم بذلك عند إكمال حاجته وإسلامهم[٥] له».

وعبد الله يقول إن جيشه وهو من البربر اغتبط بالمرابطين لأنهم بربر مغاربة مثله، ولما رجوا من زيادة رواتبهم، لذلك قرروا أن لا يلقوا ابن تاشفين بإنكار لصنيعه وما كان من إنقاذه للأندلس، وأرسلوا إليه يعلنون طاعتهم، فكتب إليهم برضاه عنهم وأنه مبقيهم فى أماكنهم وزائدهم فى رواتبهم. وأما التجار والصناع فهم مع من انتصر، وأما الرعية فابتهجت بمقدم ابن تاشفين، لما كان يثقل عليهم عبد الله من ضرائب متنوعة تارة باسم ألفونس السادس وتارة باسم حاجة الجيش والدولة بجانب زكاة العين وعشر الزرع. وفعلا بمجرد أن استسلم عبد الله لابن تاشفين أسقط عن الرعية تلك الضرائب مكتفيا بزكاة العين وعُشْر الزرع، وانفض عن عبد الله سريعا العبيد والصقالبة آملين أن يجدوا عند ابن تاشفين مرتبة أعلى، ومثلهم الخدم من النساء والخصيان طامعين فى إقبال الدنيا عليهم. ويصور موقف الخصيان على لسان خَصِيين كبيرين، قالا إننا لا نعد أنفسنا شيئا إنما نحن لمن غلب، وأرسلا هما وأضرابهما الكتب إلى ابن تاشفين، وردَّ عليهم بأنه

---

(١) فى الأصل: بحجر. جحد: نكران للحق.

(٢) فى الأصل: تلد. والتالد: القديم والموروث من المال.

(٣) فى الأصل: نصبر.

(٤) يريد: انتصر

(٥) فى الأصل: إسلامهم

سيعطيهم ما أملوه من مثاقيل الدراهم والرواتب والمراتب العالية. وهكذا تلفت عبد الله حوله فلم يجد له ناصرا، مما جعله يسارع إلى تسليم نفسه لابن تاشفين. والمذكرات تمضى على هذه الشاكلة فى لغة بسيطة لا سجع فيها ولا تكلف إلا ما دخلها من تصحيفات، ويقول محققها إنه نقلها عن نسخة محفوظة بجامع القرويين بفاس، وحرى أن يعيد نشرها محقق من أبناء الضاد يتقن العربية وقراءة خطها الأندلسى.

قصة[1] حى بن يقظان لابن طفيل

مر بنا فى الفصل الثانى تعريف قصير بابن طفيل بين فلاسفة الأندلس مع ذكر أهم المصادر لترجمته، وهو فى الذروة من الفكر الأندلسى، عاش فى القرن السادس الهجرى (٥٠٦ - ٥٨١ هـ) ونريد الآن أن نفصل الحديث فى قصة أدبية فلسفية قيِّمة له هى قصة حىّ بن يقظان، وهى قصة فلسفية صوفية تثبت أنه لا تقاطع بين العقل والشريعة أو الفلسفة والدين، وهو فيها يحكى بالتفصيل قصة حى ونشأته فى جزيرة مهجورة من جزر الهند تحت خط الاستواء، ويقول إنه اختُلف فى تكوينه، فقيل إنه تولد - دون أم وأب - من طينة تخمَّرت بالجزيرة على مر السنين، وقيل إنه ابن أميرة جميلة كانت شقيقة لملك يمتلىء بالغيرة والأنفة منعها من الزواج بحجة أنه لا يجد لها زوجا كُفْئًا، فتزوجت سرا من قريب لها يسمى «يقظان»، وحملت منه بجنين، ولما وضعته خشيت أن ينكشف سرها، فوضعته فى تابوت أحكمت إغلاقه، واستودعته أمواج اليم، فألقت به فى تلك الجزيرة وسمعت صياحه ظبية فقدت وليدها، فعطفت عليه، وظلت ترضعه وصارت له كأمه، ونما الطفل العريان وأخذ يتحول تدريجا إلى معرفة كل ما حوله. وتنقل به ابن طفيل من المهد إلى الصبا إلى الشباب، وهو يلاحظ ويجرب ويتأمل، نافذا إلى كل المعارف، من خلال فكر مستبصر. وما إن يصل إلى سن الثلاثين حتى يحيط بالطبيعة من حوله، وحتى يستغلها لغذائه ولكل حاجاته بدءا بتحريك يديه واستخدامها وستر سَوْءته ومعرفته الصيد، والنار واستخدامها فى إنضاج السمك واللحم، واتخاذ المخزن لحفظ ما يفضل من غذائه، والتفت إلى فرق ما بين النبات والحيوان فى الحركة وارتفاع الهواء

---

(١) طبعت قصة حى بن يقظان بمصر مرارا وفى دمشق وآخر طبعاتها بالقاهرة طبعة دار المعارف سنة ١٩٥٩ ومعها نفس القصة لابن سينا وللسهروردى وانظر فيهما كتابنا عصر الدول والإمارات الجزء الخاص بالجزيرة العربية والعراق وإيران ص ٦٤٤ وما بعدها وانظر فى قصة حى بن يقظان لابن طفيل وترجماتها بروكلمان وبالنثيا ص ٣٤٨ و٦٠١ ومقدمات أحمد أمين لطبعة دار المعارف وكتاب أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوربية ص ٩٩ وما بعدها.

واللهيب إلى أعلى وانحدار الماء إلى أسفل، ولاحظ أن كل ما فى الطبيعة خاضع لقانون الكون والفساد، وعرف أرفع حقائق الطبيعة. وطال به التأمل فى ملكوت السموات والأرض، وهداه تفكيره إلى أن كل ما فى الوجود لابد له من خالق لا يستغنى عنه، وأحسَّ حاجته إلى مشاهدته وما ينبغى أن يكون عليه من طهارة جسده وصفاء نفسه حتى يتحد به. وتعبَّد لذلك فى غار الأيامَ ذوات العدد وصام أربعين يوما. وظل يستغرق فى تأملاته منفصلا عن العالم الخارجى وعن جسده وحواسه حتى غاب عن كل ما حوله غيبات متصلة، وأصبح لا يحس شيئا سوى واجب الوجود، وكأنما فنى فيه عن ذاته، فليس فى الوجود إلا الواحد الأحد، وكأنما هما شىء واحد أو كأنما ذاته هى ذات الحق. وكان يفيق من حاله تلك المتصلة بالعالم الإلهى البرئ من المادة ويعود إلى العالم الحسى مرارا وتكرارا، وأحسَّ أنهما عالمان مختلفان تمام الاختلاف: عالم يقوم على الكشف والذوق ويصيب الإنسان فيه ما يشبه السكر والإغماء، وعالم يقوم على المنطق والعقل والمحسوسات المادية.

وحين بلغ خمسين عاما من عمره نزل جزيرته من جزيرة مجاورة رجل تقى يسمى أبسال وصلته - كما وصل أهلها - تعاليم النبوة، وتعرف على «حى» وعلمه اللغة والكلام، وعجب أن وجد فى الطريق الفلسفى الذى سلكه «حى» تعليلا علويا لرحلة العقل من عالم الحس إلى عالم الدين الروحى الذى اعتقده ولجميع الأديان المنزلة، وعرض عليه أن يأخذه إلى جزيرته التى يحكمها صديقه سلامان حتى يرى أهلها ما اكتشف من الحقائق العليا، وقَبِلَ عرضه ونزل معه تلك الجزيرة وأخذ يحدِّث أهلها عن العالم الإلهى الذى يتحد فيه الإنسان بربه ولا يرى فى ذاته ولا فى الوجود سواه، غير أن الناس لم يفهموا ما يتحدث عنه، وكلما زاد فى الحديث ازدادوا نبوًّا ونفارا، إذ تهالكوا على الشهوات وجمع حطام الدنيا، وأصبحت لا تنجع فيهم الموعظة ولا الكلمة الطيبة، فقد ألهتهم عن ذكر الله تعالى الدنيا، مما جعل مخاطبتهم عن طريق التذوق الروحى لا تمكن، فحَسْبُهم ما تخاطبهم به شرائعهم حتى يستقيم معاشهم، لذلك اعتذر «حى» لسلامان وأصحابه عما تكلم به معهم، ونصحهم بالتمسك بديانات آبائهم وأعمالها الظاهرة فإن ما وراءها من الاتصال بالعالم الإلهى والذات الإلهية فوق حاجتهم ومداركهم. وقرر مع صاحبه أبسال العودة إلى الجزيرة المهجورة لينعما فيها بحياة المكاشفة الإلهية. ونقتطف من القصة قطعة يصور فيها «حى» أنه ما زال يحاول الاتصال بواجب الوجود معرضا عن جميع المحسوسات، مستغرقا فى مشاهدته، واستطاع بجهاده أن تغيب عنه جميع

الذوات إلا ذاته فإنه كان لا يزال يشعر بها، وكان يدرك فى وضوح أن هذا الشعور شَوْبٌ يشوب المشاهدة الإلهية المحضة، وما زال يجاهد فى الاتحاد بربه يقول:

«ما زال يطلبُ الفناءَ عن نفسه والإخلاصَ فى مشاهدة الحق حتى تأتَّى له ذلك، وغابتْ عن ذكره وفكره السمواتُ والأرض وما بينهما وجميعُ الصور الروحانية والقوى الجسمانية وجميعُ القوى المفارقة للمواد والتى هى الذواتُ العارفة بالموجود، وغابت ذاتُه فى جملة تلك الذوات وتلاشى الكلُّ واضمحلَّ وصار هَباءً منْثورا ولم يَبْقَ إلا الواحُد الحقُّ الموجودُ الثابتُ الوجود، واستغرق فى حالته هذه وشاهد ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خَطَرَ على قلب بشر. ولا تُعَلِّقْ قلبك بوصف أمرٍ لم يخطر على قلب بشر فإن كثيرا من الأمور التى قد تَخْطر على قلوب البشر يَنْدُرُ وصْفها فكيف بأمرٍ لا سبيل إلى خطوره على القَلْب ولا هو من عالمه ولا من طَوْره.. ومن رامَ التعبيرَ عنْ تلك الحال فقد رام مستحيلا. وأقول إنه لما فنى عن ذاته ولم ير فى الوجود إلا الواحدَ الحىَّ القيومَ وشاهدَ ما شاهد، ثم عادَ إلى ملاحظة الأغْيار عندما أفاقَ من حاله تلك التى هى شبيهة بالسُّكْر فخطَر بباله أنه لا ذاتَ له يغاير بها ذاتَ الحقِّ تعالى وأنَّ حقيقة ذاتِه هى ذاتُ الحق وأن الشىء الذى كان يظنُّ أولا أنه ذاتُه المغايرة لذات الحق ليس شيئا فى الحقيقة، بل ليس شىء إلا ذاتَ الحقِّ، وأن ذلك بمنزلة نور الشمس الذى يقع على الأجسام الكثيفة فتراه يظهر فيها، فإنه وإن نُسِبَ إلى الجسم الذى ظهر فيه فليس هو فى الحقيقة شيئا سوى نور الشمس، وإن زال ذلك الجسم زال نورُه وبقى نورُ الشمس بحاله لم يَنْقُصْ عند حضور ذلك الجسم ولم يزدْ عند مغيبه لما قد كان بان له من أن ذاتَ الحق عز وجَلَّ لا تتكثَّر بوجه من الوجوه».

وابن طفيل فى هذه القطعة من قصته يصور تصويرا رائعا شعور المتصوفة بانمحائهم فى ربهم وفنائهم فيه. ولروعة القصة ترجمت إلى اللاتينية واللغات الأوربية الحديثة، ومن أقدم ترجماتها ترجمة پوكوك لها فى أوكسفورد إلى اللاتينية بعنوان الفيلسوف الذى علم نفسه بنفسه مع نصها العربى سنة ١٦٧١ وترجمت إلى الهولندية سنة ١٦٧٢ وترجمها أوكلى إلى الإنجليزية سنة ١٧٠٨ وعلى ضوئها كتب دانييل ديفو قصته: «روبنسن كروزو». وترجمها إلى الألمانية إنجهورن سنة١٧٨٢ وترجمها پونس بويجس إلى الأسبانية سنة١٩٠٠ وترجمها بتروف إلى الروسية سنة١٩٢٠ وترجمها بالنثيا إلى الإسبانية سنة ١٩٣٤ وأعاد ترجمتها سنة١٩٤٨ وترجمها إلى الفرنسية ليون جوتييه سنة ١٩٠٠ ثم أعاد ترجمتها سنة ١٩٣٦ وزعم المستشرق الإسبانى المعاصر غرسية غوميس فى بحث نشره

عن القصة بمدريد سنة ١٩٢٦ أنه وجد بمكتبة الإسكوريال فى مخطوط موريسكى يرجع إلى القرن السادس عشر الميلادى قصة بعنوان قصة الصَّنم والملك وابنته، وزعم أنها كانت شائعة بين الموريسكيين (بقية المسلمين فى الأندلس) ورأى أنها تلتقى بقصة حى بن يقظان وبالفصول الأولى من قصة الكريتيكون لجراثيان اليسوعى الأرجونى التى نشرت فى منتصف القرن السابع عشر، فقد وجد قصة الصَّنم تقول إن الأميرة بنت الملك حُجزت عن الناس فى مَحْبس لتنجو من طالع سيء، واستسلمت فى مَحْبسها لابن الوزير وحملتْ منه ووضعت وليدها فى صندوق من الخشب وألقت به فى اليَمِّ، فحملته الأمواج إلى جزيرة نما فيها واهتدى ببصيرته إلى بدائع خلق الله، وبدلا من أن يقول إن القصة الموريسكية وقصة جراثيان استضاءتا بقصة ابن‌طفيل السابقة لهما بأربعة قرون أوتزيد زعم زعما غريبا هو أن ابن‌طفيل كان قد عرف أصل القصة الموريسكية عند أجداد الموريسكيين المسلمين من معاصريه، وأنها ألهمته حينئذ قصته: حى‌بن يقظان. وكل ذلك لينفى عن ابن طفيل أصالته فى قصته العالمية الفريدة، وقد نقض رأيه جوتييه فى ترجمته المجددة لقصة حى بن يقظان سنة ١٩٣٦ قائلا بحق: إنه لا علاقة بين مضمون قصة حى بن يقظان والقصة الموريسكية. وقد افترض غرسية أن القصة لم تعرف فى المحيط الإسبانى إلا بعد ترجمتها إلى اللاتينية فى القرن السابع عشر! وكان ينبغى أن ينبهه ما بينها وبين قصة الكريتيكون المطبوعة فى القرن السابع عشر من تشابه إلى أن الأقرب إلى المنطق وطبائع الأشياء أن تكون قصة حى بن يقظان مما ترجمته مدرسة طليطلة إلى القشتالية أو الإسبانية القديمة فى القرن الثالث عشر الميلادى أو قبله أو لعلها ترجمت قديما إلى اللاتينية، وعلى ضوء إحدى الترجمتين كتبت قصة الكريتيكون. وأيضا كان جديرا بغرسية أن يصل بين قصة ابن طفيل وقصتى ابن سينا اللتين أشار إليهما ابن طفيل فى مقدمته لقصته وهما قصة حى بن يقظان وقصة سلامان وأبسال وما تصوران من غلبة العقل على القوى البدنية وغلبة الذات الإلهية على العلل الكونية، ويؤكد هذه الصلة أن شخصيات أبسال وسلامان وحى بن يقظان عند ابن سيناهى نفس شخصيات قصة حى بن يقظان عند ابن طفيل. وأكثر من ذلك يشير ابن طفيل فى مقدمة قصته صراحة أنه يتابع ابن سينا فى نزعته الصوفية التى بثها فى كتابه أسرار الحكمة المشرقية التى تقابل الحكمة اليونانية. وأيضا فإنه تابع ابن باجة - الذى نوه به مع ابن سينا فى مقدمة القصة - فى كتابه تدبير المتوحد الذى يتحد فيه -كما مر بنا فى الفصل الثانى- عقل الفيلسوف بالعقل العلوى الفعال مباشرة واصلا بذلك ابن باجة بين الفلسفة والدين، ولكن دون نزوع إلى التصوف كما يقول ابن‌طفيل فى مقدمته للقصة.

ولا علاقة أى علاقة بين قصة ابن طفيل ومذهب الأفلاطونية الحديثة كما ظن بالنثيا وغيره، وأيضا لا علاقة بين يقظان فى القصة والمسيح، فيقظان ليس هو الله ولا حى ابن الله كما ظن بالنثيا ظنا مخطئا، ومعاذ الله أن نصل بين قصة ابن طفيل والمسيحية بأى وجه من الوجوه، والقصة تزخر بالآيات والتعبيرات القرآنية والروح الإسلامية الصوفية. وكان حريا بغرسية وغيره أن يردُّوا عناصر الإطار فى القصة إلى ما ذكره ابن طفيل نفسه من أنه استوحى فكرة ميلاد «حى» بدون أم ولا أب فى إحدى جزر الهند مما جاء عند المسعودى من أن بين تلك الجزر جزيرة يتولد فيها الإنسان من غير أم ولا أب، وبها شجر يثمر نساء. أما تصوره بأن طينا تخمَّر وتخلَّق منه «حى» فقد استوحى فيه مثل قوله تعالى عن أصل خلق الإنسان من طين: (ولقد خلقنا الإنسان من سُلالة من طين). وأما على التقدير الثانى وهو أنه كان بإزاء تلك الجزيرة جزيرة يملكها رجل شديد الأنفة والغيرة وكانت له أخت ذات جمال وحسن باهر فعضلها ومنعها من الأزواج إذ لم يجد لها كُفْئًا، وكان له قريب يسمى «يقظان» فتزوَّجها سرا وحملت منه ووضعت طفلا، ولما خافت أن يفتضح أمرها وينكشف سرها وضعته فى تابوت أحكمت زمَّه (إغلاقه) وخرجت به فى أول الليل إلى ساحل البحر وقذفت به فى اليَمِّ فحملته أمواجه إلى ساحل تلك الجزيرة فإن ابن طفيل يستلهم القسم الأول من هذا الخبر للمولود مما ردَّدته بعض كتب التاريخ العربى من خبر هرون الرشيد مع أخته العباسة ووزيره جعفر بن يحيى البرمكى من أنه كان لا يستطيع الصبر عن لقائها، فقال لجعفر أزوجها لك ليحل لك النظر إليها ولا تَقْربها، فقال: نعم. فزوَّجها منه، وكانا يحضران معا، وكان الرشيد يتركهما فحملت العباسة من جعفر، وخافت الرشيد فسيَّرت ابنها مع حواضن إلى مكة. والصلة واضحة بين ميلاد حى سِرًّا من أخت الملك وميلاد ابن العباسة سرا من أخيها الرشيد ومحاولة كل منهما تهريب مولودها، واستلهم ابن طفيل فى وضع أم حَىٍّ له فى تابوت والقذف به فى يَمٍّ نقلته أمواجه إلى جزيرة ما جاء فى القرآن الكريم عن أمِّ موسى حين وضعته وخافت عليه من فرعون ومَلئه أن يقتلوه – وكانوا يقتلون أبناء اليهود الذكور ويستحيون بناتهم الإناث فأوحى الله إليها – كما جاء فى سورة طه – ﴿أنِ اقْذِفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليَمِّ فَلْيُلْقه اليَمُّ بالساحل﴾ ونفسُ الصيغة القرآنية نجدها عند ابن طفيل حين يقول عن أم حى: «وضعت ابنها فى تابوت ثم قذفت به فى اليم فاحتمله إلى ساحل الجزيرة» وهو تطابق واضح مع العبارة القرآنية. وبذلك كله يتضح أن عناصر الإطار القصصى فى قصة حى بن يقظان عناصر عربية إسلامية صوفية خالصة.

٥

المقامات والرحلات

(أ) المقامات

فن المقامات من أهم فنون النثر العربى، وقد ابتكره بديع الزمان الهمذانى (٣٥٨ - ٣٩٨ هـ) نافذا فيه إلى أقاصيص تصور الأدباء السيَّارين المسمَّيْن فى عصره بالساسانيين المحترفين للكُدْية أو الشحاذة الأدبية متخذا له أديبا شحاذا، أو متسولا كبيرا، هو أبو الفتح الإسكندرى، ومعه راويته عيسى بن هشام. وبديع الزمان يصور حِيَل أبى الفتح فى استخلاص الأموال والمطاعم من أيدى الناس بفصاحته وخلابة منطقه فى أسلوب قصصى يشيع فيه الحوار. وطارت شهرة مقامات البديع فى العالم العربى ونزلت قرطبة فيما نزلت من بلدانه، ونرى ابنَ شهيد المار بنا يستوحى - كما ذكرنا - من إحدى مقامات البديع، وهى المقامة الإبليسية، رسالته التوابع والزوابع التى بناها على لقائه فى وادى الجن لشياطين الشعراء والكتاب، ولقى بينهم شيطان بديع الزمان. وليس ذلك فحسب فإننا نراه - كما مرَّ بنا - يحاكيه فى وصفه للحلواء ببعض مقاماته كما يحاكيه فى وصفه الرائع للماء. ويعرض علينا ابن بسام فى ذخيرته ثلاث مقامات، غير أنها ليست مقامات بالمعنى الذى أراده بديع الزمان إذ لا تقوم على الكدية والشحاذة الأدبية، وإنما تصف موضوعا أو موضوعات، وهى أشبه بالرسائل منها بالمقامات.

وأولى المقامات الثلاث مقامة أبى حفص[1] عمر بن الشهيد الذى لقيه الحميدى فى المريَّة سنة ٤٤٠ وهو من شعراء أميرها المعتصم بن صمادح (٤٣٩ - ٤٨٤ هـ) ومقامته أشبه بوصف رحلة له وصفا أدبيا طريفا، فيه غير قليل من الدعابة، وقد استهلها بنعى حال الكتابة فى عصره وأنها أصبحت صنعة ممتهنة. ويكتفى ابن بسام بعرض فصول منها، وفى أحد الفصول يصف ابن الشهيد الربيع وصياحَ الديك فى السحر، وفى فصل ثان يصف منزل بدوى دخله مع صحبه «فهشَّ البدوى وبَشَّ، وكَنَس منزله ورشَّ، وصيَّر عياله

---

(١) انظر فى أبى حفص بن الشهيد ومقامته الذخيرة ٦٧٠/١ وما بعدها، وراجع فى ترجمته الجذوة للحميدى ص ٢٨٣ والبغية ص ٣٩٤ والمغرب ٢٠٩/٢.

إلى ناحية، وجمع أطفاله فى زاوية». ويتحدث عن أثاث بيته حديثا فكها، ويقول إنه حاول أن يكرمهم فدعا صبيانه ليمسكوا بديكٍ هَرِم، ويستغيث بهم الديك ويتشفّع - فى حوار طويل - بهرمه وأنه أصبح لضعفه ونحُوله أشبه بالأدوية منه بالأغذية، ويَرِقّون له. ويقدِّم إليهم البدوى بعض ألطافه معتذرا ويَقْبلون عُذْرَه ويَرْحلون سَحرا عنه. وينزل مع صحبه قريةً مسيحية سمعوا فيها صَوْت الناقوس وألموابدَيْر راعهم ما فيه من شموس وأقمار ولا سيوفَ إلا من مُقَلٍ ولا تُرُوسَ إلا من خَجَلٍ، فنزلوا فيه وشربوا من الدِّنان ما أسكرهم ثم شدُّوا الجياد عنه رَكْضًا فمروا بكنيسة متهدمة ويبكى ابن الشهيد أطلالها وما كان فيها. ويفضى مع صحبه إلى مروج بها قطعان من السائمة، ويصيدون كثيرا من طير البِرك، وينقش على مرمرة بيضاء مقطوعة شعرية يصوِّر فيها البرك ومياهها وما صادوه من طَيْرها. ويستأنفون السَّيْرَ ليلا، ويلقاهم شابٌّ فارس ممتطيًا جوادًا ومُتَقَلِّدًا حُساما، آبِقٌ من أهل حصن لنصارى مَرّوا به، معلنا إليهم أنه عَبَدَ الصَّليبَ وقَرع الناقوسَ إلى أن أسعده الله بهداية الإسلام، ويشهد أن الله إلٰهٌ واحد، ليس له وَلَدٌ ولا والد. وبذلك تنتهى المقامة وهى أشبه بنزهة متعددة المشاهد.

والمقامة الثانية عند ابن بسام مقامة أبى الوليد[1] محمد بن عبد العزيز المعلم أحد وزراء المعتضد أمير إشبيلية وكُتَّابه، وقد انتقى منها ابن بسام فصولا وأولها يستهله ابن المعلم بالحنين إلى ماضٍ نعم فيه برفاهية العيش، ثم دار به الدهر من نعيم إلى شظف شديد، وما يلبث أن يقول إن البشير قرع بابه حاملا إليه كتابا من أمير، فلبَّاه، حتى إذا مثَل بين يديه أسمعه مدحة فيه ثم تَلاها بنثر مُفْرط فى الثناء عليه من مثل قوله: «هو الإمام الطاهر، والكوكب الزَّاهر، والأسَدُ الخادِرُ[2]، والبحر الزَّاخِرُ، أوهبُ الملوك للذخائر، وأعفاهم عن الجَرائر.. أعطرُ من العنبر، فى كلِ مِنْبر، وأَفْوح من المسك الذكىّ،فى كل نَدِىّ» ومضى فى مثل هذا الثناء حتى استطير الأمير فرحا، وازْدَهى مَرحا، وقام إليه فقبَّل بين عينيه. وبذلك تنتهى المقامة، وهى أشبه برسالة فى مديح أمير، وربما كتب بها إلى المعتضد أميره.

والمقامة الثالثة عند ابن بسام مقامة أبى محمد[3] بن مالك القرطبى، وقد ساق فى

---

(١) انظر فى ابن المعلم ومقامته الذخيرة ١١٢/٢ وراجع الجذوة ص ٦٥ والبغية ص ٩٤ والمغرب ١١٢/١.

(٢) الخادر: المقيم بعرينه.

(٣) انظر فى أبى محمد بن مالك ومقامته الذخيرة ٧٣٩/١ وما بعدها وراجع فى ترجمته القلائد ١٧٠.

ذخيرته بعض فصولها، وابن مالك يديرها على مديح المعتصم بن صُمادح أمير المرية ويُغْرق فى مديحه إغراقا شديدا، ونراه يُطيل فى وصف فُتوحه وانتصاراته فى الحروب ووَصْف جيشه وأسلحته من الدروع والسيوف والرماح والخيل مظهرا فى هذا الوصف غير قليل من البراعة، ولا يزال ينثر عليه ثناءه من مثل قوله: «جَدْبٌ وربيع مُعْرِق، وليل ونهار مشرق، فيه الصَّابُ والعَسَلُ والسَّهْل والجَبل، ثالثُ القمرين وسِراج الخافِقَيْن[١]، وعماد الثَّقَلَيْن، المعتصم بالله ذو الرياستين». ويشكو للمعتصم عَوز أهله وضِيقَ ذاتِ يَده، وأنه لولا ما يُقَيِّده من أَفْرُخٍ كزُغْبِ القَطَا لتقدم فى صفوف جُنده تارة محاربا وتارة خَطيبا محمِّسا أو مُهادِنًا. وبذلك تنتهى المقامة، وهى أشبه بقصيدة مدح طويلة دبَّجها فى المعتصم بن صمادح

وعلى هذا النحو نَفْتقد المقامة التى تقوم على الكُدْية والشِّحاذة الأدبية فى عصر أمراء الطوائف، ويظهر الحريرى (٤٤٦ - ٥١٦ هـ) ويؤلف مقاماته فى أواخر القرن الخامس وسرعان ما تُدَوِّى شهرتها فى العالم العربى ويَؤُمُّه الرواة من كل مكان يأخذونها عنه، وأمَّه من الأندلس فى فواتح القرن السادس الهجرى أبو[٢] القاسم عيسى بن جَهْوَر القرطبى وأحمد بن محمد بن خلف الشَّاطبى وأبو الحجاج يوسف القُضاعى البَلَنْسِىّ والحسن بن على البَطَلْيَوْسِىّ، وجميعهم حملوا مقاماته إلى الأندلس وأخذها عنهم تلاميذ كثيرون ومضوا بدورهم يدرسونها لطلابهم، وأخذ نفر من دارسيها هناك يتجرَّد لشرحها، منهم عبد[٣]الله بن ميمون العَبْدرى القرطبى المتوفى سنة ٥٦٧، ومنهم أبو العباس[٤] أحمد الشريشى المتوفى سنة ٦١٩ وقد صنع لها ثلاثة شروح: كبير طُبع بمصر مرارا فى جزئين، ثم أوسط وأصغر. ومعروف أن مقامات الحريرى تقوم - مثل مقامات بديع الزمان - على الطريقة الساسانية أو الشِّحاذة الأدبية، وقد بلغ الحريرى بفنها الذروة.

وإذا رجعنا إلى ما أُثر من مقامات عند الأندلسيين بعد مدارستهم لمقامات الحريرى وجدنا المقامات تأخذ نهجين: نهجها المار فى القرن الخامس الهجرى القائم على الوصل بينها وبين أغراض الشعر من مديح وغيره وكذلك بينها وبين أغراض الرسائل من وصف بعض المشاهد والبلدان. ونهج جديد يستوحى الحريرى فى مقاماته الساسانية القائمة على

---

(١) الخافقان: المشرق والمغرب، والثقلان: الإنس والجن.

(٢) انظر فى ترجمة أبى القاسم بن جهور وزملائه التكملة رقم ٣٥ ورقم ٧٢٧ ورقم ٢٠٧٦.

(٣) انظر ترجمة العبدرى فى المغرب ١١١/١.

(٤) راجع فى الشريشى التكملة ١١١ والنفح ١١٥/٢ والمنهل الصافى ٣٥٤/١.

الكُدْية والشحاذة الأدبية، ومن النهج الأول المقامة الدَّوْحِيَّة لمحمد[١] بن عياض اللَّبْلىّ المتوفى سنة ٥٥٠ وموضوعها الغزل، وذكر ابن سعيد فى المغرب فاتحتها، والمقامة العِياضية لمحارب[٢] بن محمد بن محارب الوادى آشى المتوفى سنة ٥٥٣ وهى فى مديح القاضى عياض، ومقامة فى هجاء بعض أعيان مالقة لعلى[٣] بن جامع الأوسى، والمقامة النَّخْلية لأبى الحسن النباهى المالقى المتوفى بأخرة من القرن الثامن وهى مفاخرة بين النخلة والكَرْمة. وللسان الدين بن الخطيب مقامة فى السياسة، وهى أشبه برسالة أو مبحث فيما ينبغى أن يكون الحاكم عليه من نشر العدل فى رعيته وتعهد المجاهدين فى سبيل الله وأن لا يعوِّلوا فى كسبهم إلا على مغانمهم كالجوارح لا تَطْعَمُ إلا من صَيْدها وما يقع فى مخالبها، ويلمُّ بسياسة العمال فى ولاياتهم وأن تقوم على الحق ودَحْض الباطل، وكل ذلك على لسان شَيْخٍ فارسى ناصح لهرون الرشيد ويوصيه بعمارة البلدان والتمسك بالشريعة. والرسالة حرية بأن تقرن برسائل السياسة عند ابن المقفع. وللسان الدين غير مقامة فى وصف رحلات له فى بلدان الأندلس والمغرب الأقصى، وهى أشبه بالرحلات منها بالمقامات ولذلك سنتحدث عنها بين رحلات الأندلسيين. وحوالى منتصف القرن التاسع الهجرى يشتهر - فى أيام الأندلس الأخيرة - عمر الزَّجَّال، وقد روى له المقَّرى مقامتين أولاهما مقدمة لقصيدة هزلية طويلة، وثانيتهما فى أمر الوباء الذى ألم بغرناطة زمن أميرها الغنى بالله، وهو فيها ينكر على قصر الحمراء بغرناطة إبقاءه فيه على السلطان مع تفشى الوباء، ويقول إنه ينبغى أن يتحول عنه إلى مالقة التى كانت تتبع حينئذ غرناطة.

ونترك هذه المقامات التى تستوحى مقامات عصر أمراء الطوائف الشبيهة بالرسائل الأدبية إلى مقامات الكدية والشحاذة الأدبية التى تستوحى الحريرى فى مقاماته أو أقاصيصه الساسانية التى رواها الحارث بن همَّام عن بطلها أبى زيد السروجى. وأول ما يلقانا من ذلك المقامات اللزومية للسرقسطى، وهى خمسون مقامة، وسنخصها بحديث مستقل. وكان يعاصره ,الكاتب أبو عبدالله بن أبى الخصال الذى مرت ترجمته والمتوفى سنة ٥٤٠ وله مقامة[٤] ساسانية جعل بطلها نفس بطل مقامات الحريرى: أبا زيد السروجى، كما جعل الراوى لها نفس راوية تلك المقامات: الحارث بن همام. وتبدأ المقامة

---

(١) انظر ترجمة ابن عياض فى المغرب ٣٤٤/١ والتكملة ص ٢٣٣.

(٢) التكملة ص ٤٠٧.

(٣) راجع ترجمته فى الذيل والتكملة: القسم الأول من السفر الخامس ص ٢٠٢.

(٤) انظر فى مقامة ابن أبى الخصال تاريخ الأدب الأندلسى: عصر الطوائف والمرابطين للدكتور إحسان عباس ص ٣١٦.

بمنظر فى الريف والناس متجمعون حول أبى زيد السروجى، وهو يستحثهم على الجود والسخاء وهم يحذفونه بالدراهم، وهو يتلقَّف ولا يتوقف. وعرفه الحارث ونصحه أن يبيت بمنزله خشية اللصوص ويلبى دعوته، ويطعم عنده الطعام المرىء، حتى إذا أصبح الحارث وجده غادر المنزل تاركا له رقعة فيها ثلاث قصائد. ويبحث عنه ويعرف أنه ذهب إلى حانة. وتطيل المقامة فى وصف الخمر والشاربين ومن فى الحانة من الجوارى والغلمان. ويقضى البطل وروايته فيها يوماً هنيئا، وتنتهى المقامة بمقطوعة شعرية.

وتنوه كتب التراجم بمقامات لغير أديب، ولكن لا ندرى هل هى كمقامات عصر أمراء الطوائف أو هى تستلهم الحريرى فى مقاماته الساسانية، ومن أهم المقامات التى استلهمته مقامة العيد لعبد[1] الله بن إبراهيم بن عبد الله الأزدى المتوفى سنة ٧٥٠ وهو من أهل مدينة بَلِّيش،وكانت مجاورة لمالقة، وهى مقامة خاطب فيها الرئيس أبا سعيد بن نصر يستجديه أُضْحية، وهو فيها يحكى قصة ساسانى من أهل الكدية أو الشحاذة الأدبية، ويستهلها بأن الرجل دخل داره ليتناول شيئا من الطعام فقالت له زوجته لم جئت؟ لا طعام لك عندى إلا إذا صنعت ما صنعه زوج الجارة إذ فكَّر فى العيد وأنت قد نسيته، فقال لها: صدقت وسأخرج الآن لأبحث لك عما ذكرت، وأخذت تقول له إنك لن تأتى بشىء وأخذت تهوِّن من شأنه، ولما كان يجد من خوفها - كما يقول - ما يجد صغار الغنم من الذئاب عَدَا يطوف السكك والشوارع ويجوب الآفاق، ويسأل الرفاق، ويخترق الأسواق، إلى أن مرَّ بقصَّاب (جزَّار) وبين يديه عَنْز، وسأله أن يبيعه منه ويمهله فى الثمن، وباعه له مؤجَّلا بعشرين دينارا، وانحدر معه لدُكَّان موثِّق يكتب لهما عقْد البيع. وعاد مع الجزار فلم يجد العنز، وكان قد شَرَد، فأخذ ينادى فى الأسواق والأزقة مَنْ رأى عَنْزا، وإذا برجل فخَّار خرج من دهليز يصيح أين صاحب هذا العَنْز، والعَنْز يدور فى الدهليز ويحطم ما بقى من الطواجن والقدور. وطلبه المحتسب (شرطىّ السوق) وصاحب الدهليز أمامه يبكى، ولم يَعْف عنه إلا بعد أن أدَّى عنه جيرانه ما أفسده عنزه. وتوجَّه به مع الحمَّال إلى داره ولم تبق فى الزُّقاق عجوز إلا وصلتْ لتراه، وتسأله بكم اشتراه، والأولاد يدورون به، أما ربَّة البيت، فبادرت زوجها تقول:«ليس فى البيت خَلٌّ ولا زيت، ومتى تُفْرح زوجتك، والعنز أُضحيتك، واقلَّةَ سَعْدِها، واخُلْفَ وَعْدِها، وما حَبَسَنَك عن الكِباش السِّمان» وتأخذ فى وصف الكبش السمين الذى كانت تريده، فيقول لها: وأين توجد هذه الصفة، يا قليلة

---

(١) راجع فى ترجمة عبد الله الأزدى ومقامته وما بعدها.
الإحاطة فى أخبار غرناطة (تحقيق عنان) ٤٢١/٣

المعرفة، فتقول له عند مولانا ومأوانا الرئيس الأعلى، ويفيض فى مديح الرئيس أبى سعيد بن نصر.

والمقامة مسجوعة سَجْعًا عذبا، وهى تصوِّر جوانب كثيرة من المجتمع الغرناطى، تصوِّر ربة البيت وما تكلف به زوجها من مطالب فوق طاقته حتى إذا أحضر لها ما تريد عادت فأَزْرَتْ به، وتصوِّر القصَّاب فى زيِّه وقد شَدَّ فى وسطه مِئْزَرةً وقَصَّر ثوبه وكشف عن ساقيه وشمر ساعديه، وتصوِّر جشعه فى البيع. وتُرينا نظام التوثيق وكتابة العقود فى الأندلس وما كان يشيع هناك من صناعة الفخَّار، والمحتسب ومن يساعده من الأمناء ورجال الشرطة، والعجائز وتطفلهن، والأولاد والتفافهم حول كلِّ ما يرون. وهى مقامة بديعة.

المقامات اللزومية للسَّرَقُسْطى

هو أبو الطاهر[1] محمد بن يوسف التميمى السرقسطى الإشتركونى نسبة إلى إشتركونه: حصن من أعمال تُطيلة فى الثغر الأعلى. ويبدو أنه نشأ فى سرقسطة، ولذلك نُسب إليها وقيل إنه من أهلها. ويقول ابن بشكوال إنه سكن قرطبة، ولا نعرف بالضبط هل سكنها بعد أخذ النصارى لسرقسطة سنة ٥١٢ أو قبل ذلك وأكبر الظن أنه بارح سرقسطة مبكرا للقاء الشيوخ النابهين فى الأندلس، إذ تذكر كتب التراجم أنه أخذ عن ابن السيد البطليوسى ببلنسية وعن أبى بكر بن العربى بإشبيلية وعن أبى على الصدفى بمرسية سنة ٥٠٨ وعن أبى محمد الرَّكْلى بشاطبة، واستقر بقرطبة وتصدر فيها لإقراء الأدب واللغة. ونوهت كتب التراجم بأستاذيته لكثيرين من علماء الأندلس فى العربية فى مقدمتهم ابن مضاء صاحب كتاب الرد على النحاة. ولم تذكر كتب التراجم تاريخ مولد السرقسطى وذكرت أنه توفى بقرطبة سنة ٥٣٨ للهجرة. ومن آثاره كتاب المسلسل فى غريب لغة العرب وهو منشور بالقاهرة، ومقاماته اللزومية أروع آثاره، ومن أروع ما قدمت الأندلس للأدب العربى من أعمال أدبية.

---

(١) انظر فى أبى الطاهر السرقسطى الصلة لابن بشكوال رقم ١١٧٥ والتكملة لابن الأبار رقم ٥٥٤ ومعجمه ص ١٤٤ وما بعدها والإحاطة ٥٢١/٢ وتاريخ الأدب الأندلسى: عصر أمراء الطوائف المرابطين ص ٣١٧. وقد نشر مقاماته نشرة علمية محققه الدكتور بدر أحمد ضيف فى الهيئة المصرية العامة للكتاب (فرع الإسكندرية).

وقد وضع السرقسطى مقاماته فى محاذاة مقامات الحريرى وعلى غرارها من اتخاذ بطل لها من أبطال الشحاذة الأدبية هو الشيخ أبو حبيب فى محاذاة بطل مقامات الحريرى: أبى زيد السروجى واتخذ له راوية هو السائب بن تمام فى محاذاة راوية مقامات الحريرى: الحارث بن همام. وذكر مع السائب فى تسع مقامات راوية يحدث عنه هو المنذر بن حمام. وجعل السرقسطى مقاماته خمسين بعدد مقامات الحريرى وبناها مثله على عَرْض جِيَل شحاذ أدبى كبير هو الشيخ أبو حبيب ويرقِّمها مثله من المقامة الأولى إلى المقامة الخمسين، غير أنه يختلف عن الحريرى فى أنه لا يعطى لكل مقامة لقبا خاصا بها يميزها ما عدا أربع عشرة منها فقط هى التى ميزها بالألقاب. والشيخ أبو حبيب سدوسى من عمان وكثيرا ما يظهر فى ثياب خَلَقَة وأسْمال، منكِّرا لشخصه على طريقة الحريرى. وهو دائما واعظ يزهد الناس فى الحياة ويحثُّهم على عَوْنه لما يرون من سوء حاله، ويُلْقون إليه بالدراهم والدنانير، أو يبذلون له المآكل والطعام، متخذا دائما حيلة أو موقفا، به يستدرّ عطفهم. وكثيرا ما يشترك معه فى الموقف أو الحيلة راويته السائب أو ابنه حبيب أو ابنته التى يتخذ منها جارية يبيعها ويأخذ ثمنها، ثم يتضح أنها حُرَّة، فيظفر بالثمن، وتُرَدّ إليها حريتها، حيلة من حيله.

ومقامات السرقسطى مبنية على السجع مثل مقامات الحريرى، غير أنه اقتدى فيه بأبى العلاء المعرى فالتزم فى نسجه مالا يلزم من تعدد قوافى السجع أو نهاياته مشترطا على نفسه أن تكون من حرفين أو أكثر. ولا يكتفى بتصعيب الممرات إلى سجعاته فى بعض مقاماته، إذ نراه فى المقامة السادسة عشرة يشترط على نفسه أن تتوالى سجعاتها ثلاثية ولذلك سماها المثلثة مفتتحا لها بقوله: «أقمت فى غَزْنة[1]، فترشّفت من مائها أى مزنة، وتوطّأت من أكنافها كل سهلة وحزنة» وسمى تاليتها المرصَّعة لأنه لم يكتف فى سجعاتها بالاتفاق فى حرف واحد بل التزم فيها حرفين أو أكثر كقوله فى مطلعها: «حننت إلى الوطن المحبوب، ونزعت إلى العَطن[2] المشبوب، حيث مآرب الشباب وملاعب الأحباب» وسمى الثامنة عشرة المدبَّجة، لأنه جعل الكلمات فى كل سجعتين تتقابل فى نهاياتها وتتعادل، على شاكلة قوله فى وعظها: «وسامِك[3] السماء ورافعها، وماسك الدِّماء ودافعها، إنك فى حَبائل الرَّزايا لمضطرب، ومن مناهل المنايا لمُقْتَرب». واشترط على نفسه فى المقامة الثانية والثلاثين أن يختتم كل سجعاتها بحرف الهمزة ولذلك سماها

(١) غزنة: مدينة فى أفغانستان.
(٢) العطن: مبرك الإبل.
(٣) سامك: رافع.

الهمزية، واختتم سجعات المقامة الثالثة والثلاثين بحرف الباء ولذلك سماها البائية، وسمى الرابعة والثلاثين الجيمية لاختتامه سجعاتها بحرف الجيم والخامسة والثلاثين الدالية لاختتام السجعات بحرف الدال. وبالمثل صنع نفس الصنيع فى السادسة والثلاثين فاختتم سجعاتها بالنون وسماها النونية. ونحس غير قليل من التكلف فى هذه المقامات الخمس لبناء السجعات فيها على حرف واحد. وكذلك الشأن فى المقامات الأربع التالية وأولاها وثانيتها على نسق الحروف الهجائية وثالثتها ورابعتها على نسق حروف أبجد المعروفة، ولكن من الحق أن سجعاته فى المقامات الأخرى تشيع فيها العذوبة والسهولة والقدرة على التفنن فى الوعظ والوصف ونسج الكلام.

ويتنقل السرقسطى ببطل مقاماته بين بلدان كثيرة فيما عدا المقامتين الثلاثين والخمسين، فقد استعرض فى أولاهما على لسان البطل مميزات أنبه الشعراء فى الجاهلية وعصر المخضرمين والعصرين: الأموى والعباسى، وخصَّ الثانية - وهى المقامة الخمسون - بالحوار فى النظم والنثر بين ابن البطل حبيب وابن ثان لم يظهر إلا فى هذه المقامة اسمه غريب، وبينما ينتصر حبيب للشعر ينتصر غريب للنثر، حتى إذا اشتد بينهما الخصام، تدخل بينهما أبوهما الشيخ أبو حبيب للوئام، مبينا أن لكل من الشعر والنثر مجاله، والإحسان أنواع وضروب، حتى إذا اقتنع المتحاوران بكلامه أوصاهما - كما أوصى الحريرى ابنه فى مقامته الأخيرة - أن يقوما على حرفة الكدية وأن لا يصطحبا إلا الجواد ولا يرحلا إلا بزاد. ومثل هاتين المقامتين فى العناية بموضوع محدد المقامة التاسعة عشرة، وهى فى وصف الخمر وحاناتها. ودائما يتنقل الشيخ أبو حبيب فى مقاماته من بلد إلى بلد فى العالم الإسلامى منكرا لشخصه متحولا من حيلة إلى حيلة ومن صيد إلى صيد، وفى كل صيد وحيلة يعرفه السائب بعينه ويكشف حقيقته وسره. ولم ينزل فى الأندلس سوى جزيرة طريف ونزل فى المغرب طنجة والقيروان، ونزل فى مصر الإسكندرية ودمياط وفى الشام فلسطين وحلب. ونزل فى أنحاء كثيرة من الجزيرة العربية مثل عدن والشِّحْر وظَفار وزَبيد والبحرين واليمامة، ونزل بالعراق فى بغداد وواسط والأنبار والرَّقَّة وحَرَّان، ونزل بإيران فى الأهواز وأَصْبهان والرىّ ومَرْو، وتوغل فى بلاد الترك إلى الكَرَج وصول وغَزْنة. ولا يكتفى السرقسطى بإنزال بطله فى البلدان الإسلامية والضرب فى الصحارى والقفار، إذ رأى أن يخوض به البحار وأن يضم إلى رحلاته البرية كما صنع الحريرى رحلات بحرية تأثر فيها بما كتبه أصحاب تلك الرحلات، على نحو ما يلقانا فى المقامة الرابعة والأربعين وسماها العَنْقاوية نسبة إلى

العَنْقاء أنثى الرُّخِّ، وهما طائران خرافيان ضخمان يتردد ذكرهما فى أحاديث بَحَّارة العرب عن رحلاتهم فى أعماق البحار والمحيطات مبالغين فى وصف ضخامتهما وقوتهما الخارقة وحملها لمن تحطمت سفنهم إلى البَرِّ والبلاد المأهولة، على نحو ما نقرأ عند الرُّبَّان بُزُرْك بن شهريار من بحَّارة القرن الرابع الهجرى فى كتابه: «عجائب الهند: بَرِّه وبحره وجزائره» إذ يقول إن الرُّخِّ أنقذ سبعةً غرقت سفينتهم فى جزيرةٍ بقرب الهند ويَرْوِى عن بعض الملاحين أنه رأى ريشة من ريشه تسع خمسا وعشرين قربة من قرب الماء! كما يذكر أن بحارةً وقع فى سفينتهم عيب اضطرهم أن يَقْدُموا بها إلى جزيرة صغيرة رأوها فى طريقهم، فنزلوا بها وأصلحوا عيب سفينتهم وعنَّ لهم أن يوقدوا نارًا لبعض أغراضهم، فأحسوا الجزيرة تتحرك من تحتهم، فأسرعوا بالنزول إلى سفينتهم، وتولتهم الدهشة، إذ رأوا الجزيرة تغوص فى الماء وعرفوا أنها سُلْحفاة كانت طافية على وجه الماء وأحست النار فغاصت. وإنما ذكرت هذه السلحفاة الضخمة الخرافية والرخ الخرافى قبلها لأن من يقرأ مقامة السرقسطى العنقاوية لا يشك فى أنه قرأ كتاب بُزُرْك بن شَهْرِيار، وأنه استمدَّ منه حين جعل بطل مقامته وراويته يلجِّجان فى رحلة بحرية، «ويخرجان إلى جزيرة عَريضة وأرض أريضة[١]، ولا ألباب ولا أفكار، ولا عرفان ولا إنكار، إلى أن استيقظا من تلك الغمرات، وصحَوَا من تلك السَّكَرات، فعلما أن الجزيرة حيوان بحرى أصْحَر[٢]، ثم أبْحَر، وشَمَسَ، ثم قَمَس[٣] فى الماء وانغمس» والسرقسطى يشير بهذا الوصف للحيوان إلى أنه سلحفاة، فإنها حيوان بحرى برى إذا نزل إلى الماء قصدا للاستراحة من طول المقام فى البر. طفا على وجهه. وما يلبث السرقسطى أن يقول إن بطل المقامة وراويته «أظلَّتهما ظُلَّة ظليلة وسحابة بَليلة». وتهبط السحابة إلى الأرض وإذا هى الرخ فَرْخ العَنْقاء، ويطيل السَّرَقُسْطى فى وصفه وكيف تعلقا بأطراف ريشه يقول السائب الراوى.

«ثم لما صَدَع الفجر ووَضَحَ، واخْضَلَّ[٤] النَّدى ونَضَحَ، سار فى الهواء سَيْرًا رَفيقا[٥]، وجعل السحاب يسايرنا رَفيقا، تَخْفُقُ تحتنا البُروق، وتتطلع إلينا المغاربُ والشروق، إلى أن فارقتْنا البحار، وعلمنا أنه الإصْحار[٦]، ولما يَحِنْ من ليلنا

---

(١) أريضه: حسنة المرأى.
(٢) أصحر: برز فى الصحراء أو الأرض.
(٣) شمس: نفر. قمس فى الماء: غاص.
(٤) اخضل: ابتل.
(٥) رفيقا: لينا متئدا. رفيقا التالية: صاحبا.
(٦) الاصحار: يريد الأرض.

الإسْحار[١]. ثم أخذ فى الانصباب إلى أرضٍ ذاتِ أشجار وأنهار، ورياض مونقةٍ وأزهار، فخُبِّرنا أنها من أَرْيافِ النيل وشُطُوطِه، ومجاريه وخُطُوطِه، فحمدنا الله على نَعْمائه، وتقلُّبنا بين أَرْضِهِ وسَمائه».

ولا يلبث الشيخ أبو حبيب أن يعظ الناس ويَرْفدوه بالصِّلات الخَفِيّة، والهبات الخَفِيَّة وهو دائما يضمِّن مقاماته مواعظ خلقية ويُنْهى المقامة بشعر، وقد يُكثر منه فى تضاعيفها. ويعود السرقسطى فى المقامة السابعة والأربعين إلى الحديث عن رحلة فى جزائر الهند لبطل مقاماته وراويته، غير أن الراوى لا يُفْضى فيها إلى وصف تلك الجزائر ولا إلى شىء من العجائب البحرية هناك إذ شُغِلَ عن ذلك بقضاء ليلة ماجنة مع البطل فى مجلس غناء. وكأنما كان السرقسطى مطلعا على شىء من الغيب، إذ جعل البطل فى المقامة الحادية والأربعين يتعيَّش من دُبٍّ يُراقصه ويَزْمر عليه ويلاعبه، ومعروف أن رمز مَدْرِيد فى عصرنا إنما هو الدبّ. وفى الحق أن المقامات اللزومية للسرقسطى أروع المقامات الأندلسية التى حاكت مقامات الحريرى بعده، وكانت حرية بأن يتجرد لها شارح مثل الشريشى مواطنه، وكأنما ينطبق عليه المثل: لا يطرب الزامر أهل بلده.

وحرى بنا أن نعرف أنه كان للمقامات تأثير واضح فى الأدب الإسبانى إذ نشأ على غرارها فى منتصف القرن السادس عشر الميلادى لون من الفن القصصى ازدهر خلال القرن التالى يصف حياة المشرَّدين والمتسوِّلين ويقوم على الشحاذة أو الكُدْية، سُمِّيَتْ أقاصيصه باسم «الأقاصيص البيكارسية» وسُمِّيَ بطلها باسم «البيكارو» ودائما نشأته متواضعة ويعانى من آلام المسغبة والبطالة، فيتخذ التسوُّل حرفة له يكسب بها قوته مستخدما فى ذلك حيلا وألاعيب شتى تماما كالشيخ أبى زيد السروجى فى مقامات الحريرى وكالشيخ أبى حبيب فى مقامات السرقسطى، مع صبغ كلامه مثلها بصبغة وعظية خلقية[٢].

(ب) الرحلات

لعل مسيرة قوافل الأندلسيين إلى مكة سنويا لأداء فريضة الحج وزيارة القبر النبوى الشريف هى التى جعلتهم يولعون بالرحلة والأسفار فى العالم الإسلامى وما وراءه من

---

(١) الإسحار: السير فى السحر.

(٢) انظر فى ذلك د. مكى فى كتاب أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوربية ص ٨٨ وما بعدها.

بلدان وشعوب فى آسيا وأوربا وخاصة فى أنحائها الشرقية لاكتشاف المجهول من تلك الشعوب وما بديارهم من ظواهر كونية. وأيضا فإن تعدد مراكز الثقافة فى العالم العربى وفى الأندلس نفسها منذ عصر أمراء الطوائف حَبَّب الرحلة إلى المشغوفين بالعلم والعلماء، على نحو ما نجد فى عصرنا عند شبابنا العلميين من شغفهم بالرحلة إلى الغرب للتزود منه فى جميع ضروب العلم والمعرفة. ولا ننسى السفارات الخارجية التى كان يرسل بها حكام الأندلس وخاصة فى عصر أمراء الطوائف إلى إخوانهم من الأمراء فى الأندلس أو إلى نصارى الشمال أو إلى حكام إفريقيا ومصر والشام، وحتى فى أيام الأندلس الأخيرة إلى الدولة العثمانية. وكثرت الرحلات والسفارات الداخلية زمن أمراء الطوائف للتشاور فى أمر خطير من أمور السياسة والحكم كما كثرت رحلات حكام غرناطة والمغرب لتفقد شئون البلاد والرعية. ومن السفارات الداخلية سفارة الكاتب محمد[١] بن مسلم الدانى عن إقبال الدولة على بن مجاهد إلى بعض أمراء الطوائف من مثل المعتصم بن صُمادح أمير المريَّة والمعتضد أمير إشبيلية حين نازعه المقتدر بن هود (٤٣٨ - ٤٧٥ هـ) أمير سرقسطة فى أحد الحصون، فكتب إلى أغلب قائد ابن مجاهد ووالية على ميورقة يصف له أحداث سفارته فى رسالة طويلة سماها «طَىّ المراحل» قال ابن بسام إنه اقتضب من فضولها لطولها ما يدل على براعة كاتبها، وبلغ ما اقتضبه منها نحو عشرين صحيفة. وفى فواتحها يتحدث محمد بن مسلم عن صداقته لأغلب وشوقه للقائه، ويذكر دعوة إقبال الدولة إخوانه من أمراء الطوائف لإنجاده، ونداءه عليهم لإمداده فاستغشوا بأكمامهم وجعلوا أصابعهم فى آذانهم. ويقتطف ابن بسام من رسالته قطعا بديعة فى وصف الطبيعة، وأخرى فى وصف ما كان ينغمس فيه أمراء الطوائف من ترف بالغ، إذ بنوا - من عَرق الرعية - القصور المشيدة، وألحقوا بها حدائق بهيجة، ويصور كيف كان يطاف عليهم بصحاف من فضة وذهب، وحين يتوضئون تجيئهم طِساسٌ[٢] من التبر وأباريق رُصِّعت بالدر. وللشراب حجر خاصة وكأن الأطباق فيها مُقل الجفون مُلئت من قُرَّة العيون وكأن الكئوس مراشف الحور تُمْزج بحَباب الثغور. ومن تصويره لقرطبة حين مرَّ بها ورأى ما نزل بها من الدمار والذل والهوان قوله: «كثيرا ما كنت أَقْتَرِحُ إتيانها وإن كانت على هَرَم، وأتمنىَّ وقفةً فيها ولو على قَدم،

---

(١) انظر فى الدانى الذخيرة ٤٢٧/٣ والمغرب ٤٠٥/٢.

(٢) طساس: جمع طست.

وأرغب [فى] زيارتها ولو لِمامًا، وأودُّ رؤيتها ولو مَنامًا، لألمح دارَ الخلافة، وأرى بَيْت الرياسة، وجعلتُ أسلك فى منازل المدينة، وأنظر فى تلك المشابه المُبينة، فإذا رُسومها قائمةُ الأعلام، ونُصُبُها ماثلةُ الشكل والقيام.. ووقفت بالقصر المروانى وانتَبذْتُ إلى المُنْتَزَه العَبْدِ الرَّحمانى[١]، فإذا الثلاثُ الأثافى[٢] والديارُ البَلاقع[٣]، وقيل هنا كانت قصورهم وهناك هى قبورهم، قد صارت معاقلُهم ترابا، ومساكنُهم يَبَابًا[٤]».

ويطيل فى تصوير مجد قرطبة أيام بنى أمية ويبكيها بكاء مؤثرا ويصور جامعها وقبابه ومقصورته الفخمة وزخارفها البديعة، والمحراب والمصحف العثمانى بجانبه، وكأنما بيده ريشة يرسم بها لوحات بديعة. ويختم الدانى رسالته بزيارته للمعتضد فى إشبيلية وبيان مدى ترحيبه به وما أغدق عليه من التحف والطرف.

ويتكاثر الرحالة الأندلسيون منذ القرن السادس الهجرى ومن أهمهم أبو حامد[٥] الغرناطى (٤٧٤ - ٥٦٤ هـ) شُغف بالرحلة وتجوَّل فى إفريقيا وزار صقلية سنة ٥١١ ومنها رحل إلى مصر وزار الشام والعراق، وتحول إلى نواحى البحر الأسود (بحر الخزر) وتوغَّل فى بلاد الصَّقالبة والبلْغار وعلى ضفاف نهر الفُولْجا، وصعد إلى أقصى الشمال فى روسيا، وسجل مشاهداته فى كتابه «تحفة الألْباب ونخبة الأعجاب» وله كتاب سماه «تحفة الكبار فى أسفار البحار» ونشر سيزاردوبلر بمدريد ما شاهده فى شرقىّ أوربا، وهو يكثر فيه من ذكر الخوارق والعجائب الخرافية، غير أن به من حين إلى حين بعض حقائق ومشاهد بديعة كمشهد الزُّحْلوقة يتزحلق بها الناس على الثلج فى روسيا يقول:

«الطريق هناك فى أرض لا يفارقها الثلج أبدا، ويتخذ الناس لأرجلهم ألواحا (زُحْلُوقة) ينَحْتونها، طولُ كل لوح باعٌ وعرضه شبْرٌ، ومقدمٌ ذلك اللوح ومؤخرُه مرتفعان عن الأرض، وفى وسط اللوح موضع يضع الماشى فيه رجله، وفيه ثقب، وشَدُّوا فيه سيورا

---

(١) نسبة إلى عبد الرحمن بن الناصر أهم حكام البيت الأموى بقرطبة.

(٢) الأثافى: جمع أثفية، والثلاث الأثافى: ثلاثة أحجار توضع عليها القِدْر، وكانت القبائل تتركها وراءها حين ترحل عن الديار.

(٣) البلاقع: المقفرة.

(٤) يبابا: خرابا.

(٥) انظر فى أبى حامد ورحلته مقدمة جبريل فيران لتحقيق كتابه تحفة الألباب ومقدمة سيزار دوبلر لتحقيقه قطعة من كتابه «المعرب عن بعض عجائب المغرب» وتاريخ الأدب الجغرافى لكراتشكوفسكى تعريب الأستاذ صلاح الدين عثمان هاشم (طبع لجنة التأليف) ص ٢٩٥ وتاريخ الجغرافية والجغرافيين لمؤنس ص ٣٠٣ وكتابنا: الرحلات (طبع دار المعارف) ص ٥١ وما بعدها وبالنثيا ص ٣١٢.

من جلود قوية يشدُّونها على أرْجلهم. ويقرن [الرجل] بين اللوحين اللذين يكونان فى رِجْلَيه بشندال (حبل) طويل مثل عنان الفرس، يمسكه فى يده الشمال، وفى يده اليمنى عَصًا بطوله، وفى أسفل العصا مثل كرة من الثياب محشوَّة بصوف كثير مثل رأس الإنسان خَفِيفة. ويعتمد على تلك العصا فوق الثَّلج. ويدفع العصا خلف ظهره كما يصنع المَلَّاحُ فى السفينة. فيذهب على ذلك الثلج بسرعة، ولولا تلك الحيلة لم يمكن أحدا أن يمشى هناك البتة، لأن الثلج على الأرض مثل الرمل لا يتلبَّد البتة، وأى حيوان يمشى عليه يَغُوص فى ذلك الثلج فيموت إلا الكلاب والحيوان الخفيف كالثعلب والأرنب، فإنها تمشى عليه بخفة وسرعة». وهى صورة من التزحلق قديمة شبيهة أدق الشبه بصورة التزحلق الحديث الذى تُعْقَدُ له المسابقات سنويا فى البلاد الأوربية.

ونلتقى بعد أبى حامد الغرناطى من رحالة الأندلس بابن جبير، وسنفرد له مع رحلته كلمة، ويلقانا من رحالة العصر الغرناطى القاضى أبو البقاء[1] البلوى خالد بن عيسى وسمى رحلته «تاج المفرق فى تحلية علماء إفريقيا والمشرق» وقد لقى فيها كثيرين من العلماء وروى عنهم، بدأها فى ١٨ من صفر سنة ٧٣٠ وظل يلقى العلماء سنوات ويأخذ عنهم، ونزل تونس وعيَّنه أميرها كاتبا فى ديوانه زمنا يسيرا، ثم عاد إلى بلده فعُيِّن بها قاضيا. ويقول لسان الدين بن الخطيب فى الإحاطة إنه حجَّ وقيَّد عن العلماء، ورحلته فى سِفْر وصَفَ فيه البلادَ ومَنْ لقى بفصول، جَلَب أكثرها من كتابات العماد الأصبهانى وصفوان بن إدريس. ولابن جابر الوادى آشى الذى مرت ترجمته فى الفصل الماضى رحلة دوَّن فيها ما اكتسبه من الفوائد الأدبية أثناء أسفاره الطويلة.

ويلقانا ابن[2] الحاج النميرى المولود سنة ٧١٣ لأسرة كريمة وقد عنى أبوه بتربيته حتى إذا كانت سنة ٧٣٤ عُيِّن كاتبا فى ديوان أبى الحجاج يوسف الأول أمير غرناطة، وفى سنة ٧٣٧ رحل لأداء فريضة الحج، ونزل فى عودته بقسنطينة سنة ٧٣٩ وخدم أمراءها الحفصيين، ثم تركهم وخدم أبا الحسن المرينى حتى سنة ٧٤٧ إذ رأى العودة إلى أداء

---

(١) انظر فى أبى البقاء ورحلته الإحاطة ٥٠٠/١ ونيل الابتهاج (طبع فاس) ص ٩٩ والكتيبة الكامنة ص ١٣٤.

(٢) راجع فى ابن الحاج النميرى الإحاطة ٣٤٢/١ والكتيبة الكامنة ص ٢٦٠ ونيل الابتهاج ص ١٤ والمنهل الصافى لابن تغرى بردى ٦٦/١ وجذوة الاقتباس لابن القاضى ص ٨٧ ونثير فرائد الجمان لابن الأحمر ص ١١٣ ونفح الطيب ١٠٩/٧ ورحلة: «فيض العباب» حققها الدكتور محمد بن شقرون ونشرها فى الرباط.

فريضة الحج وعاد فخدم الحفصيين سنة ٧٥٠ وبعد سنتين اعتزل للعبادة بتلمسان وأُجْبر فى سنة ٧٥٧ على خدمة السلطان أبى عنان وجعله رئيس ديوان الكتبة. وأفلت عند موته وعاد إلى غرناطة فعُيِّن قاضيا إلى وفاته بعد سنة ٧٧٤ وكان شاعرا مجيدا فى الشعر الغنائى والتعليمى. ويقول ابن الخطيب فى الإحاطة له رحلة «فيض العُباب وإحالة قداح الآداب فى الحركة إلى قسنطينة والزاب» وقد حققها ونشرها بالرباط - كما ذكرنا فى الهامش - الدكتور محمد بن شقرون، ووضع بين يديها مقدمة قيمة. وهى فى وصف رحلة السلطان أبى عنان المرينى من فاس إلى سَلا والعودة منها ثم إلى قسنطينة والزاب والعودة منها عن طريق الصحراء. والرحلة وثيقة تاريخية مهمة عن فتح بنى مرين لقسنطينة وعنّابة وتونس وبيعة البلدان المغربية لأبى عنان، وقد كتبها ابن الحاج بأسلوب أدبى التزم فيه السجع وبعض المحسنات البديعية مع العناية باستخدام التورية والتصنع للمصطلحات العلمية وبعض الألفاظ الغريبة مما أشاع غير قليل من التكلف فى صياغة الرحلة.

ولصديقه ابن الخطيب معاصره الذى مرت ترجمته بين كتاب الرسائل الديوانية رحلات بديعة فى بلدان الأندلس والمغرب، وأول ما نقف عنده رحلته[1] مع أميره أبى الحجاج يوسف الأول فى تفقده لبعض الثغور الشرقية لإمارته سماها: «خطرة الطيف فى رحلة الشتاء والصيف» وقد سار موكب أبى الحجاج فيها تلقاء الشمال الشرقى من العاصمة غرناطة إلى وادى آش فإلبيرة. ويعود الموكب من طريق آخر مارا بثغر المَرِيَّة على البحر المتوسط. وكانت زيارات الأمير أبى الحجاج لها ولغيرها من المدن أشبه باستعراضات عسكرية، يشترك فيها جند الأمير مع أهل البلدة إذ كانت بلاد الإمارة الغرناطية أشبه برباطات حربية، فكل من فيها حاملو سلاح. ويقول ابن الخطيب إن النساء فى هذه الاستعراضات كن كثيرات، وكن يحيين الرجال ويحييهن الرجال، ونظن ظنا أن كثيرات منهن كن سافرات إذ عرفت الأندلس - كما مر فى غير هذا الموضع - السفور مبكرا.

ولابن الخطيب رحلة ثانية سماها «معيار الاختيار فى ذكر الأحوال والديار» ويسميها مقامة وليست مقامة بل رحلة كسابقتها وصَفَ فيها أربعا وثلاثين مدينة من مدن إمارة

---

(١) انظر فى هذه الرحلة وتاليتها كتاب مشاهدات لسان الدين بن الخطيب تحقيق د. مختار العبادى.

غرناطة وبعض مدن المغرب الأقصى مثل مكناسة. والمقامة مسجوعة مثل سابقتها، وتصور فى تلك المدن عمرانها ونشاطها الثقافى وكل ما بها من صور الحياة، مع ذكر محاسن كل مدينة وما قد يكون فيها من مساوئ. ولهٔ رحلة طويلة لم يكتبها سجعا مثل الرحلتين السالفتين بل كتبها مرسلة غير مسجوعة، وصف فيها المغرب الأقصى ومدنه سماها «نُفاضة الجراب فى عُلالة الاغتراب» وكانت فى أربعة أجزاء، سقط منها ثلاثة من يد الزمن وبقى الجزء[1] الثانى وهو يفتتح هذا الجزء بالصعود إلى جبل هِنْتَاتَة بمنطقة أطلس ويزور هناك قبر السلطان أبى الحسن المرينى ويفيض فى الحديث عن أحوال قبيلة هنتاتة. ويزور أغمات وقبر المعتمد بن عباد بها ويحيِّيه بقصيدة ويلمُّ بمراكش وغيرها من المدن فى طريقه إلى مدينة سَلا على المحيط، ويذكر كل ما فى تلك المدن من مساجد ومكتبات ومدارس. ورحلات ابن الخطيب عامة تكتظ ببيان أحوال المدن الأندلسية والمغربية الاجتماعية والثقافية.

ونلتقى بأخرة من زمن دولة بنى الأحمر فى غرناطة بالقَلْصادى على بن محمد القرشى البَسْطى (٨١٥ - ٨٩١ هـ) الذى مرَّ ذكره فى الفصل الثانى بين علماء الرياضة، وله رحلة إلى الحجاز لأداء فريضة الحج والزيارة النبوية، سماها: «تمهيد الطالب ومنتهى الراغب إلى أعلى المنازل والمناقب» حققها وقدَّم لها ونشرها بتونس الأستاذ محمد أبو الأجفان، وهو لا يتوسع - باستثناء مكة ومناسك الحج - فى وصف البلدان التى نزلها ذهابا وإيابا فى رحلته إلى الحجاز، بل يلمّ بها فى إيجاز شديد، ليحدثنا عن الشيوخ الذين تتلمذ لهم فيها، وخاصة فى تلمسان وتونس والقاهرة، ويبلغون عنده ثلاثة وثلاثين شيخا. والكتاب أشبه بكتب الفهرسة والبرامج منه بكتب الرحلات، وهى كتب اشتهرت بها الأندلس من قديم، وفيها يذكر مؤلفوها شيوخهم وما سمعوه منهم وأخذوه عنهم من مؤلفات. وحرى بنا الآن أن نتحدث عن رحلة ابن جبير.

---

(١) نشر هذا الجزء د. مختار العبادى بالقاهرة.

رحلة ابن جبير

هو محمد[١] بن أحمد بن جبير الكنانى البلنسى المشهور باسم ابن جبير، أصل أسرته من مدينة شاطبة، وُلد ببلنسية سنة ٥٣٩ وقيل سنة ٥٤٠ وسمع فى نشأته من أبيه وعلماء موطنه وأكبَّ على دراسة الفقه، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة، وطمح إلى العمل فى الدواوين، وألحقه أبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن حاكم غرناطة لأبيه عبد المؤمن ثم لأخيه يوسف حتى وفاته سنة ٥٧٢. وكان عثمان شغوفا بالأدب، وخفَّ على نفسه ابن جبير فكان يحضره مجالس شرابه وعبثا حاول أن يقنعه بالشراب معه، إذ كان يعافه تدينا، وذات يوم أقسم عليه ليشربنَّ سبعا، ونزل مضطرا عند إرادته وشرب سبع كئوس، فملأ أبا سعيد الكأس دنانير سبع مرات وصبَّ ذلك فى حجره، فحملها إلى منزله، وصمم أن يجعل كفارة شربه الخمر الحجَّ بتلك الدنانير، حتى إذا كانت سنة ٥٧٨ باع ملكا له تزوَّد به للحج، وفصَل من غرناطة فى شوال، وركب البحر فى سفينة لبعض أهل جنوة قاصدا إلى الإسكندرية ونزل بها واتجه إلى القاهرة ومنها إلى قوص بصعيد مصر، ومنها إلى عَيْذاب حيث عبر البحر الأحمر إلى جدة، وقصد من فوره مكة، وأدى فريضة الحج، وزار القبر الشريف بالمدينة، ثم اتجه إلى الكوفة فبغداد فالموصل وبلدانه. وهو فى كل تلك البلدان يمكث بعض الوقت ويدوِّن ما شاهده فيها من مساجد ومدارس وغرائب، ونزل الشام وكان لحملة الصليب فيها مستعمرات، فجاس خلال ديارهم وسجَّل كثيرا من أحوالهم. وركب البحر المتوسط من عكا على سفينة مسيحية عائدا إلى موطنه. وألمت السفينة بصقلية فنزل فيها وتجوَّل فى بلادها، ورجع إلى السفينة، ونزل منها فى قرطاجنة بساحل الأندلس فى ١٥ من المحرم سنة ٥٨١

ورحلة ابن جبير تقصُّ ما شاهده فى البلدان التى زارها ونزل بها فى صورة مذكرات يومية، ومع كل بلدة وكل مشهد التاريخ باليوم والشهر، ويبدو أنه كتبها فى أوراق منفصلة، وكأن الموت عاجله قبل أن يجمعها نهائيا، فجمعها بعض تلاميذه ونشرها بعد وفاته باسم «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار» وآثر من نشروها فى العصر الحديث

---

(١) انظر فى ترجمة ابن جبير ورحلته المغرب ٢/٣٨٤ والإحاطة ٢/٢٣٠ ومقدمة رايت لتحقيقه لرحلته بلندن ومقدمة دى خويه لطبعتها فى ليدن وكتاب د. مؤنس ص ٤٣٧ وكراتشكوفسكى ص ٢٩٩ وبالنثيا ص ٣١٦ ودائرة المعارف الإسلامية فى ابن جبير وكتابنا: الرحلات (طبع دار المعارف) ص ٧٠ - ٩٤. والرحلة طبعت مرارا فى ليدن والقاهرة.

من المستشرقين والعرب أن يطلقوا عليها اسم «رحلة ابن جبير». وله رحلتان بعد هذه الرحلة حجَّ فى كل منهما، والسبب فى أولاهما أنه سمع بفتح صلاح الدين لبيت المقدس سنة ٥٨٢ واستيلائه عليه من أيدى الصليبيين، فحدثته نفسه أن يزور تلك الأماكن وعلَم الإسلام يرفرف عليها، وارتحل لذلك سنة ٥٨٥ وعاد سنة ٥٨٧ إلى غرناطة وسكنها ثم سكن مالقة ثم سبتة منقطعا إلى إسماع الحديث النبوى وروايته. وكان قد تزوج من أم المجد عاتكة بنت أبى جعفر الوقّشى وزير ابن همشك أمير جيان قبل دخوله فى طاعة الموحدين، وكان كلفا بها، وتوفيت فعظم وجده عليها، ونظم فيها - بجانب ديوانين له أجدهما فى الشكوى من إخوان الزمان - ديوانا سماه: نتيجة وجد الجوانح فى تأبين القرين الصالح». ولكى يخفف عن نفسه حزنه عليها رحل رحلته الأخيرة لأداء الحج سنة ٦١٤ وجاور بمكة فترة، ثم ارتحل إلى الإسكندرية وأدركته فيها منيته فى نفس السنة، ويغلب أن يكون مسجد سيدى جابر بها مسجده وأن تكون العامة حرَّفت اسمه مع الزمن.

والرحلة مكتوبة بأسلوب مرسل تشيع فيه السهولة والسلاسة والعذوبة، مما جعلها نسيجة وحدها - كما يقول ابن الخطيب - كما جعلها تطير كل مطار، ونشعر فى أحيان كثيرة كأنما بيده ريشة يبدع بها لوحات رائعة كما فى تصويره للإسكندرية حين نزلها ومبانيها وأسواقها وشوارعها ومنارها العجيب وما بها من مساجد ومدارس وبيوت لطلاب العلم. ويقول إنه بمجرد أن ينزل بها طالب علم من الأقطار النائية يجد مسكنا والعالم الذى يدرس عليه والراتب الذى يرتفقُ به. وينزل القاهرة ويصف القلعة والأهرام وأبا الهول، ويرسم مشهد الحسين حفيد الرسول عليه السلام فى لوحة باهرة. ويطيل فى وصفه للمارستان بالقاهرة وما به من خزائن الأَدْوية والأسرَّة كاملة الكسوة للرجال وما اتُّخذ فيه من قسم خاص بالنساء وقسم على مقاصيره شبابيك من حديد للمجانين. وينزل مدينة قوص ويصف الحياة فيها كما يصف مدينة عَيْذاب على البحر الأحمر ويقول فى بحرها جزائر بها مغاص للؤلؤ نفيس. ويركب البحر إلى جدة وينزل مكة، ويرسم المسجد الحرام فى لوحة باهرة، تجمع كل تفاصيله بأركانه وأبوابه وكل ما يَغْشى جوانب فيه من ذهب وفضة وستور حريرية وما به من مقام إبراهيم المغطى بالفضة ومن حوائط رائقة الترصيع والتجزيع وقِبَابٍ بديعة وسَوَار وأعمدة بديعة التركيب. وتشغل هذه اللوحة صفحات متصلة من الرحلة لا تترك شيئا فى المسجد ولا فى ظاهره وسطحه إلا تقيِّده. ويرسم لوحة باهرة لمسجد الرسول عليه السلام كاللوحة التى رسمها للمسجد الحرام،

ومن قوله فيها عن الروضة المقدسة: (قبر الرسول وصاحبيه أبى بكر وعمر) والمنبر الشريف:

«الروضة المقدسة مع آخر الجهة القبلية مما يلى الشرق.. وشكلها شكل عجيب لا يكاد يتأتَّى تصويره ولا تمثيله. وجميع سَعتها من جميع جهاتها مائتا شبر واثنان وسبعون شبرا، وهى مؤزَّرة بالرخام البديع النَّحتْ، الرائع النعْت، وينتهى إزار منها إلى نحو الثلث أو أقل يسيرا، وعليه من الجدار المكرَّم ثلثٌ آخر قد علاه تضَمْيخُ المسك والطِّيب، والذى يعلوه من الجدار شبابيكُ عودٍ متصلة بالسَّمْك الأعلى، لأن أعلى الروضة المباركة متصل بَسمْك المسجد. وإلى حيِّز إزار الرخام تنتهى الأسْتار، وهى لازَوَرْدِيَّة اللون.. وفى الصفحة القبلية أمام وجه النبى ﷺ مسمارُ فضةٍ، هو أمام الوجه الكريم فيقف الناس أمامه للسلام، وإلى قدميه ﷺ رأسُ أبى بكر الصديق رضى الله عنه، ورأس عمر الفاروق مما يلى كتفى أبى بكر الصديق رضى الله عنهما، فيقف المسلم مستدبر القبلة ومستقبلَ الوجه الكريم فيسلِّم، ثم ينصرف يمينا إلى وجه أبى بكر، ثم إلى وجه عمر. وأمام هذه الصفحة المكرمة نحو عشرين قنديلا معلَّقة من الفضة، وفيها اثنان من الذهب. وعن يمين الروضة المكَّرمة المِنْبَر الكريم، ومنه إليها اثنتان وأربعون خُطوة، وهو مرخَّم كله، وارتفاعه نحو القامة أو أزيد، وسَعته خمسة أشبار، وطولُه خمس خطوات، وأدراجه ثمانية، وله باب على هيئة الشُّبَّاك مقفل، يُفْتح يوم الجمعة، وطوله أربعة أشبار ونصف، والمِنبَرُ مغشىٌّ بعود الآبنوس، وَمْقعد الرسول ﷺ من أعلاه ظاهر، قد طُبِّق عليه بلوح من الآبنوس غير متصل به يصونه من القعود عليه، فيُدْخل الناس أيديهم إليه ويتمسَّحون به تبركا بلَمْسِ ذلك المقعد الكريم».

ويسترسل ابن جبير فى وصف المسجد وقبلته وما على جدارها من الفسيفساء بهذا التصوير البارع الدقيق. ويذكر أن المؤذن الراتب فيه من أحفاد بلال مؤذن الرسول رضى الله عنه، ويصف مشاهد المدينة. ويبارحها إلى الكوفة، ويصل إلى بغداد، ويصور بعض المجالس العظيمة لعلمائها ووعَّاظها وخاصة ابن الجوزى إمام عصره فى الحديث والوعظ، وفى وصف إحدى مواعظه يقول:

«أتَى فيها بِرَقَائق من الوعظ وآياتٍ بيناتٍ من الذكر طارتْ لها القلوبُ اشتياقا، وذابتْ بها الأنفس احتراقا، إلى أن عَلَا الضَّجيجُ، وتردد بشهقاته النَّشِيج، وأعلن التائبون بالصياح، وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح فشاهدنا هَوْلاً يملأ

النفوس إنابةً وندامة، ويذكِّرها هولَ يوم القيامة، فلو لم نركب ثَبَجَ البحر، ونعتسف مفازات القفر، إلا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل لكانت الصفقةَ الرابحة، والوجهةَ المفلحة الناجحة».

ويصف بغداد ومساجدها ومبانيها وأسواقها ومحالَّها، ويغادرها إلى الموصل فحلب، وتروعُه مبانيها وقلعتها وجامعها والمدرسة الملحقة به وكأنها فى الحسن روضة تجاور أخرى. ويصل دمشق جنة المشرق وعروس المدن، وتروعُه بساتينها المحدقة بها إحداق الهالة بالقمر وما يمتد بشرقيها من غوطتها الخضراء بحللها السندسية البديعة، وينوه بحسنها، ويقول صدق القائلون عنها: «إن كانت الجنةُ فى الأرض فدمشق لا شك فيها، وإن كانت فى السماء فهى بحيث تُسامِتها (تقابلها) وتُحاذيها». ويطيل الوصف لمسجدها الأموى العظيم وما به من عُمُد وقباب وأبواب وما عليها من نقوش وما يمتد على حيطانه وسقوفه من الفُسَيْفِساء البديعة وما به من مقاصير وغرائب التصاوير. ويفيض فى الحديث عن مشاهد دمشق وأسواقها ومدارسها ومارستانها وما بها من خانقاهات للمتصوفة. وأشاد بأعمال صلاح الدين الأيوبى فى الشام، كما أشاد بها فى الإسكندرية والقاهرة، ونوه بانتصاراته على الصليبيين، وتغلغله فى ديارهم، ولاحظ أن تجارهم وتجار المسلمين يغدون ويروحون فى الدارين: دار الإسلام ودار حملة الصليب دون أى اعتراض، والحرب مع ذلك قائمة بين الفئتين والتجار فى عافية. ويُبْحر من ميناء عَكَّا مع التجار النصارى فى إحدى سفنهم المعدَّة لسفر الخريف، وكانت متجهة إلى مسِّينة فى صِقِلِّية، فنزل بها وتجوَّل فى بلدانها، وكان المسلمون قد فتحوا تلك الجزيرة فى مطالع القرن الثالث الهجرى وعرَّبوها لمدة قرنين ونصف إذ فتحها النورمان، وكان ملوكهم الأولون يحتضنون الثقافة العربية ويَرْعَوْنَ علماءها، ويجلسون منهم مجلس التلاميذ، مما أتاح لصقلِّية حينئذ أن تُصبح مجازًا لعبور الثقافة العربية الإسلامية إلى أوربا وخاصة فى عهد روجر الثانى وابنه غليوم اللذين طبعا حياة الدولة فى أيامهما بالطوابع العربية الإسلامية، ويصوِّر ذلك ابن جبير فى حديثه - برحلته - عن غليوم الذى زار الجزيرة فى عهده، فيقول عنه:

«هو كثيرُ الثقة بالمسلمين، وساكنٌ إليهم فى أحواله والمهمِّ من أشغاله، حتى إن الناظر فى مطبخه رجلٌ من المسلمين.. ومن عجيب شأنه المتحدَّث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية، وعلامته (فى أول رسائله) - على ما أعلمنا به أحد خدمته المختصين به - «الحمد لله حَقَّ حمده»، وكانت علامة أبيه «الحمد لله شكرا لأنعمه». وأما جواريه وحَظاياه فى قَصْره

فمسلمات كلهن، يقول: ومن أعجب ما حدَّثنا به خَدِيمه: يحيى بن فتيان الطرَّاز أن الإفرنجية من النصرانيات تقع فى قصره، فتعود مُسْلمة، تعيدها الجوارى المذكورات مسلمة، وهُنَّ على تكتم فى ذلك كله، ولهنَّ فى فعل الخير أمور عجيبة.. وأما فتيانه الذين هم عُيُون دولته وأهل عِمالته فى ملكه فهم مُسْلمون، ما منهم إلا من يصوم الأشهر تطوُّعا وتأجُّرا (طلبا للأجر) ويتصدَّق تقربا إلى الله وتزلفا، ولهم فى فعل الجميل أخبارٌ مأثورة». وهى وثيقة تاريخية مهمة فيما كان من تعاون بين النورمان النصارى والمسلمين فى أيام ملوكهم الأولى بصقلية. ويتنقَّل ابن جبير فى الجزيرة، ومما يذكره عن نساء النصارى فى «بالرم» العاصمة أنهن كن يلبسن نفس زِىِّ المسلمات ويتَحَجَّبْنَ مثلهن منتقباتٍ بالنِّقب الملونة كما يتزيَّنَّ على طريقتهن، ويقول إنهن فصيحات. ومع ذلك كله يقول ابن جبير إن راية الإسلام ستنكَّس هناك وسُيصْبح كل ما للمسلمين من مساجد وغير مساجد هناك أثرا بعد عين، وصدق حَدْسُه. وقد أبحر من صقلية إلى قرطاجنة على الشاطىء الأندلسى ومنها إلى غرناطة. والرحلة - بحق - ممتعة لا بأسلوبها الأدبى المرسل البليغ فحسب، بل أيضا بملاحظات ابن جبير الدقيقة المتنوعة.

خاتمة

تحدثنا - فى الصحف الماضية - عن كثرة العناصر المكونة لسكان إيبيريا وأنها ظلت تستقبل عناصر متنوعة من القارات القديمة الثلاث: أوربا وإفريقيا وآسيا، ومن قديم ظلت تستقبل حضارات الفينيقيين واليونان والقرطاجينيين والرومان دون أن تضيف شيئا يميزها فى تاريخ الحضارة الإنسانية، وغزاها القوط المتبربرون فى القرن الخامس للميلاد وقضوا - أو كادوا يقضون - على كل ما وفد عليها من تلك الحضارات. ومرَّ بنا فتح العرب لإيبيريا سنة ٩٢ هـ/ ٧١١م والجهود التى بذلها موسى بن نُصَير وطارق بن زياد فى فتحها حتى خليج بسكاى وجبال البرينيه التى تفصلها عن غالة (فرنسا). ولم تكد تمضى أربع سنوات حتى أصبحت إيبيريا من جنوبيِّها إلى شماليِّها تدين بالولاء لدمشق كإقليم من أقاليم الدولة الأموية. ويُسْتَدْعى الفاتحان العظيمان إلى دمشق بأخرة من سنة ٩٥ للهجرة ولا يعودان إليها. واستوطن الجيش الفاتح من العرب والبربر أواسط إيبيريا وجنوبيها، وسموا ديارهم - بل إيبيريا جميعها - باسم الأندلس أخذا من كلمة «ڤندالس» سكانها فى الجنوب. وتدخل الأندلس فى عصر الولاة منذ سنة ٩٥ إلى سنة ١٣٨ وأبلى نفر من ولاتها - حتى سنة ١١٦ - بلاء حسنا فى غزو غالة (فرنسا) ويفرضون على إقليم سبتمانية بجنوبيها ولاءه للعرب، وتتقدم جيوشهم مرارا على نهر الرون وفى اتجاه بواتييه إلى الشمال وليون إلى الجنوب، وتدب العصبيات - بل تضطرم - بين قبائل العرب القحطانية والمضرية، وبين العرب والبربر، فيتوقف هذا المد العظيم، ولولا ذلك لفتح العرب شطرًا كبيرًا من أوربا الغربية.

ويقيَّض لانتشال الأندلس من العصبيات المحتدمة فيها عبور عبد الرحمن بن معاوية ابن الخليفة هشام بن عبد الملك سنة ١٣٨ للهجرة بحرَ الزُّقاق إليها وإعلانه فيها ميلاد دولة أموية غربية تخلف دولة آبائه فى دمشق التى قضى عليها العباسيون قضاء مبرما سنة ١٣٢ للهجرة. ويأخذ هو وأبناؤه وأحفاده الذين امتد حكمهم للأندلس نحو ثلاثة قرون فى تأسيس حضارة أندلسية عربية باهرة، وقد أخذت تلك الحضارة فى التكامل لعهد عبد الرحمن الأوسط الذى أنشأ للدولة أسطولا يحمى موانيها على المحيط الأطلسى

والبحر المتوسط، ووضع لحكم البلاد نظاما إداريا حضاريا، إذ اتخذ لها مجلس وزراء على نحو ما نعرف الآن من مجالس الوزراء فى الأمم المتحضرة، وأضاف إليه هيئات - باسم خطط - للإشراف على مصالح الرعية. وبلغت الأندلس الذروة فى المكانة السياسية والحضارية لعهد عبد الرحمن الناصر الذى فرض سلطانه على المسيحيين فى الشمال. وما يلبث عهد الدولة الأموية أن ينتهى بفتنة كبرى ظلت نحو عشرين عاما. وينشأ عصر أمراء الطوائف، وفيه تنقسم الأندلس إلى أندلسات، وبعبارة أخرى إلى إمارات كثيرة، ويتنافس الأمراء فى الإكثار مما يحيط بهم من شعراء وعلماء وكتّاب، وتنفق سوق الأدب والعلم، وتهبط كفّة الحكم والسياسة إلى أدنى مستوى، إذ يعيش الأمراء للترف واللهو وكل فنونه، ويتناحرون فيما بينهم، على حين يركعون - خانعين - للمسيحيين الشماليين، مما جعل ألفونس السادس ملك قشتالة ينقض على طليطلة واسطة عقد الأندلس سنة ٤٧٨ للهجرة ويستولى عليها، حتى إذا لم يبق منزع فى قوس الصبر لا للفقهاء ولا للرعية ولا للأمراء اللاهين استصرخوا جميعا يوسف بن تاشفين أمير المرابطين فى المغرب، فعبر إلى الأندلس سنة ٤٧٩ وسحق جموع ألفونس السادس فى الزلاقة سحقا ذَريعا، وتطورت الأمور سريعا، وأظل لواء المرابطين الأندلس جميعا. وتضعف دولتهم بعد نحو نصف قرن ونيِّف، وتعود الأندلس فى بعض أجزائها إلى التفكك، وتتداركها دولة الموحدين، وتظل تحميها إلى أوائل العقد الثالث فى القرن السابع الهجرى، ومن مفاخرهم تدمير أميرهم يعقوب الموحدى لجيش ألفونس الثامن فى موقعة الأرَك سنة ٥٩١. وتعود الأندلس منذ سنة ٦٢٣ إلى التفكك، وتقع كثرة من مدنها العريقة فى حجور المسيحيين الشماليين، ويستطيع ابن الأحمر سليل سعد بن عبادة الصحابى الجليل أن يستنقذ إمارة غرناطة له ولأسرته لأكثر من قرنين ونصف إلى أن سلَّم أبو عبد الله الصغير مفاتيح المدينة لفرناند وزوجته إيزابيلا سنة ٨٩٧ للهجرة.

وذكرنا ما تم فى المجتمع الأندلسى من مزج سريع بين المسلمين من العرب والبربر وبين المسيحيين ومن دخلوا فى الإسلام منهم وأبنائهم، وكانت حياة المسيحيين حياة متبدية بها غير قليل من الشظف، بينما أخذ المسلمون الأندلسيون يتحولون إلى حياة حضارية، وخاصة منذ عهد عبد الرحمن الأوسط لشغفه بحضارة العرب المادية فى المشرق مما جعل التجار يحملون إليه كثيرا من أدواتها، وساعد على اكتمال الحضارة الأندلسية فى عهده وفود زرياب تلميذ إسحق الموصلى - أكبر الموسيقيين فى عهد الرشيد - على قرطبة، ومكّن له عبد الرحمن - إلى أقصى حد - من إحداث نهضة موسيقية فى الأندلس بإنشائه

له معهدا موسيقيا تخرج فيه كثيرون، قادوا بالأندلس الحركة الغنائية والموسيقية قيادة بديعة. ولا يقف أثر زرياب عند هذا الجانب، بل يتسع ليشمل الجوانب الحضارية المادية فى المأكل وملبس الجنسين وتزينها فى الهيئة والمظهر، وأيضا فى اتخاذ الرياش الفاخر. وأخذ عبد الرحمن الأوسط وأبناؤه يعنون ببناء القصور والتأنق فى أثاثها وزينتها، ولا يبنى حفيده الناصر قصرا فحسب بل يبنى مدينة عظيمة هى مدينة الزهراء. ومن يتابع ابن بسام فى وصفه لبعض قصور أمراء الطوائف مثل قصر المكرَّم لبنى ذى النون يظن كأنها من قصور ألف ليلة وليلة الخيالية، وما يزال قصر الحمراء بغرناطة إلى اليوم يشهد بما بلغته الحضارة المادية فى المعمار إلى أوج لم تعرفه الأندلس قبل العرب وبعدهم إلى اليوم.

وكان للمرأة فى هذا المجتمع الأندلسى الحضارى مكانة عظيمة جعلتها تحظى من الحرية بما لم تحظ به أختها فى المشرق حتى كان بينهن كاتبات مشهورات للخلفاء الأمويين، وكان بينهن عالمات مقرئات ومحدِّثات وطبيبات، وكان بينهن سيدات مجتمع راقيات كصواحب الصالونات بفرنسا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر وكان لهن - مثلهن - غير قليل من التأثير فى الحياة الأدبية.

ولم تعرف الأندلس التشيع إلا قليلا وعند أفراد محدودين، وظلت النزعة الأموية تغلب عليها بعد سقوط الدولة الأموية، وعرفت الأندلس الزهد وتألق فيها أسماء زهاد كثيرين، كما عرفت التصوف منذ القرن الرابع الهجرى وأنجبت فيه مشاهير مثل ابن عربى وابن سبعين والششترى.

ولم يكن لإيبيريا دور علمى فى العصور القديمة، والعرب هم الذين بدأوا فيها الحركة العلمية بعلومهم اللغوية والدينية، وعَمِلَ عبد الرحمن الأوسط على السعة بهذه الحركة، إذ أدخل عليها بقوة العناية بعلوم الأوائل من رياضة وطب وصيدلة، وجلب كتب تلك العلوم من بغداد. وبلغ الناصر وابنه الحكم المستنصر بالحركة العلمية الغاية المأمولة باستدعاء العلماء من المشرق وإجزال العطاء لهم وجلب المخطوطات النفيسة فى مختلف العلوم والآداب، مما أتاح لدراسة علوم الأوائل الازدهار منذ القرن الرابع الهجرى، مع ما أضاف إليها علماء الأندلس من إضافات باهرة على مر العصور، وتلمع فى الرياضة أسماء مسلمة المجريطى والزرقالى والبِطْرَوْجى والرَّقوطى، وتلمع فى الطب أسماء الزهراوى وبنو زهر وابن رشد، وفى الصيدلة أسماء الغافقى وابن العوام وابن البيطار

وفى الفلسفة أسماء ابن باجة وابن طفيل وابن رشد وفى الجغرافية أسماء الرازى وأبى عبيد البكرى وابن غالب وابن سعيد.

وينشط علماء النحو واللغة مبكرين، ويؤلف الزبيدى كتابا فى طبقاتهم حتى زمنه فى القرن الرابع الهجرى، ويبلغون عنده نحو مائة عالم نحوى ولغوى، ومنْ أشهرهم الرباحى راوى كتاب سيبويه عن أبى جعفر النحاس المصرى ومنذر بن سعيد راوى معجم العين للخليل بن أحمد عن ابن ولاد المصرى، والزبيدى نفسه صاحب الكتاب السالف، وأبو بكر بن القوطية وابن الإفليلى وابن سيده والشنتمرى وابن الطراوة وعيسى الجزولى وابن عصفور وابن مالك وابن حيان. وتنشط مباحث البلاغة على يد أمثال ابن الكتانى المتطبب وحبيب والكلاعى والمواعينى وابن رشد وأبى البقاء الرندى، وبالمثل تنشط الكتابات النقدية عند ابن شهيد وابن خفاجة وابن بسام وحازم القرطاجنى.

وينقل القراء مبكرين عن ورش المصرى قراءته وتشيع فى الأندلس، ومن أشهر علماء القراءات هناك القضاعى والطلمنكى ومكى بن أبى طالب وأبو عمرو الدانى والشاطبى وابن حيان. وتعنى الأندلس بتفسير القرآن مبكرة، وتلمع فيه أسماء بقى بن مخلد وابن أبى زمنين وابن عطية والقرطبى وابن حيان. ويتكاثر المحدِّثون من أمثال ابن وضاح وقاسم بن أصبغ والحميدى وابن قرقول وابن الخراط وابن القطان. ويتكاثر الفقهاء كثرة مفرطة وخاصة على مذهب مالك، وتدور فتوى فقهائهم وقضاتهم عليه وعلى حَمَلة مذهبه المصريين وخاصة عبد الرحمن بن القاسم، ومن أشهرهم شَبْطون وعيسى بن دينار ويحيى الليثى وعبد الملك بن حبيب وابن عتبة وابن عبد البر وأبو الوليد الباجى وابن رشد الجد. ويلقانا غير فقيه للشافعية من مثل ابن الخراز والأصيلى. وينشط المذهب الظاهرى هناك، ومن كبار أتباعه منذر بن سعيد وابن حزم وابن حوط الله. وعرفت الأندلس الاعتزال عند أمثال عبد الأعلى بن وهب وابن مسرة ومنذر بن سعيد وإسماعيل الرعينى، كما عرفت المذهب الأشعرى عند محمد بن خلف.

وكان للمؤرخين نشاط واسع فى الأندلس منذ القرن الثالث الهجرى، ومنهم من كتب فى التاريخ العام مثل عبد الملك بن حبيب وعَريب وابن الخطيب، ومنهم من كتب فى تاريخ الأندلس مثل أحمد الرازى وابنه عيسى وابن القوطية وابن حيان ويحيى بن الصيرفى وابن صاحب الصلاة وأبى الحجاج البياسى وابن الخطيب. ومنهم من كتب فى

السيرة النبوية مثل ابن حزم وابن عبد البر والكلاعى وابن سيد الناس. ومنهم من كتب فى تراجم الأدباء والعلماء من كل صنف. ومنهم من كتب فى الأنساب مثل ابن حزم وفى تراجم الصحابة مثل ابن عبد البر. ومنهم من كتب فى التراجم الأندلسية العامة مثل ابن الفرضى وصاعد والحميدى وابن بشكوال والضبى وابن الأبار والملاحى وابن الزبير وابن الخطيب. ومنهم من كتب فى تراجم الفقهاء والقضاة مثل ابن عبد البر أحمد بن محمد والخشنى والنباهى، ويشتهر فى الترجمة للأطباء ابن جلجل وللغويين والنحاة الزبيدى وللأدباء من شعراء وكتاب ابن دحية والفتح بن خاقان وابن بسام وابن الأبار وابن سعيد وابن الخطيب وابن الأحمر.

وأخذتُ أبحث بحثا تحليليا تاريخيا فى نشاط الشعر والشعراء موضحا كيف أن أهل الأندلس تمثلوا العربية تمثلا قويا، وشركهم المسيحيون فى هذا التمثل، حتى إن جمهورهم هجر لغته اللاتينية الدارجة، وأصبحت العربية لسانه ومهوى فؤاده وأداة تعبيره عن مشاعره وأفكاره، حتى ليعلن ذلك أحد قساوستهم متحسرا ومتعجبا أشد العجب من هجران الشباب المسيحى للغة وطنه الرومانثية وتمثله للعربية معجبا بها وبأدبها أشد الإعجاب، محاولا بكل ما استطاع أن يُتقنها. ويقول القس إن كثيرين من الشباب أتقنوها وكتبوا بها أشعارا ورسائل بديعة. ويشهد لكلامه أننا نجد فعلا بين المسيحيين الإسبان من بلغوا من إتقان العربية والقدرة على التعبير الدقيق بها أن عُيِّنوا كتّابا فى دواوين الدولة، وبذلك وبأدلة أخرى مؤيدة أضفناها ما ينقض نظرية ريبيرا المفضية إلى أن عرب الأندلس كانوا يستخدمون فى حياتهم اليومية لهجة رومانثية من اللاتينية الدارجة، وما كانت الأندلس بدعا من الأقاليم العربية، فقد ظهرت فيها جميعا عاميات دخلتها فى جميع البلدان العربية ألفاظ من لغاتها الأصلية التى كانت متداولة فيها، وبالمثل كانت تشيع فى الأندلس عامية عربية تسربت إليها ألفاظ من اللاتينية الدارجة على نحو ما حدث فى عامية الشام ومصر وغيرهما من البلدان العربية.

وعاشت الفصحى بجانب هذه العامية الأندلسية العربية معيشة مزدهرة شأنها فى ذلك نفس شأنها وازدهارها فى جميع الأقطار العربية، وتدل على ذلك دلالة بيِّنة كثرة الشعراء فى كل بلد بالأندلس حتى فى الريف وبين أهل القرى، وهى كثرة تأخذ فى الاتضاح منذ القرن الثالث الهجرى، وتتسع سعة شديدة فى عصر أمراء الطوائف، إذ تعدَّد الأمراء الذين يغدقون عطاياهم على الشعراء. ويظلون يتكاثرون فى اطراد طوال العصور التالية.

واستطاعت الأندلس فى أثناء هذا النشاط الشعرى الواسع أن تنفذ إلى ابتكار فن شعرى جديد هو فن الموشحات، وحاول بعض المستشرقين الإسبان مثل غرسية غوميس أن يقولوا إنها نشأت من المزج بين الشعر العربى وبين بعض الأغانى الرومانسية فى اللاتينية الإسبانية الشعبية، وليس فى أيديهم أغنية رومانثية واحدة يستطيعون أن يثبتوا عن طريقها هذا المزج. والصحيح - كما أثبتنا بأدلة متعددة - أن الموشحات إنما هى صورة أندلسية تطورت عن أصول مشرقية هى المسمطات، وكان أول من أحدثها عربى هو مقدم بن معافى، وأعطاها صورتها النهائية بعده عربيان هما الرمادى الكندى وعبادة ابن ماء السماء الأنصارى. وعرضنا أوأشرنا إلى طرائف من الموشحات على مر الأزمنة مع الترجمة لثلاثة من الوشاحين البارعين هم ابن عبادة القزاز ويحيى بن بقى وابن زهر، وألممنا بالأزجال وذهبنا مع ابن خلدون إلى أنها نشأت بعد الموشحات مع الاستشهاد ببعض روائعها ومع الترجمة للزجال الفذ ابن قزمان. ثم أخذنا فى دراسة أغراض الشعر دراسة تاريخية نقدية تحليلية تعقبنا فيها كل غرض وأهم شعرائه على مر التاريخ، وبدأنا بشعراء المديح مع نماذج من مدائحهم ومع الترجمة لسبعة من أعلامهم، وصنعنا نفس الصنيع بشعراء الفخر مع الترجمة لثلاثة من أفذاذهم، وبالمثل لشعراء الهجاء مع الترجمة لأربعة من كبار الهجائين، ولأصحاب الشعر التعليمى مع الترجمة لعلمين من أعلامهم.

وعلى نحو ما عُرض من روائع الأغراض الشعرية السالفة عُرضت روائع الغزل على مر العصور مجسِّدة الشأو البعيد الذى بلغته الأندلس فى تلك الروائع، إذ تمثل شعراؤها إلى أقصى حد ما فى الحب العذرى العربى القديم من حنين ملتاع وحب ظامئ لا ينطفئ أواره، مع ما يلاحظ من أن ناظميه يعكسون مشاعرهم على عناصر الطبيعة من حولهم. وتبادلهم المرأة الأندلسية - مع ما يحفها من عفة ووقار - حبا بحب. ويشترك معهم فى الغزل الفقهاء والفلاسفة هناك، مما أتاح للغزل فى الأندلس سموا بعيدا على نحو ما يتضح عند من ترجمنا لهم وخاصة ابن زيدون وولادة. ونلتقى بشعراء الطبيعة والخمر، وتبلغ الأندلس فى شعر الطبيعة ذروة لعل إقليما عربيا لم يبلغها على مر العصور، وتوضح ذلك غاية التوضيح النصوص والتراجم المختارة وخاصة تراجم ابن مقانا وابن خفاجة وابن سفر. ويلقانا شعراء الرثاء للأفراد وفى مقدمتهم ابن وهبون وتأملاته البديعة فى حقائق الحياة والموت، وشعراء الرثاء للدول الغاربة فى الأندلس وفى مقدمتهم ابن اللبانة وابن عبدون. ونقرأ خواطر بديعة لشعراء الزهد والتصوف، وتتيح الأندلس للتصوف الفلسفى ازدهارًا عظيمًا على نحو ما هو معروف عن متصوفها ابن عربى. وتزدهر فيها

المدائح النبوية ازدهارا رائعا على نحو ما يلقانا عند ابن جابر الوادى آشى. ومنذ سقطت طليطلة فى القرن الخامس يستصرخ الشعراءُ العربَ ومواطنيهم لاستنقاذ مدنهم من أيدى حملة الصليب، ويتعالى الصراخ فى القرن السابع الهجرى وبعده، على نحو ما يلقانا عند ابن الأبار وأبى البقاء الرندى.

وازدهر النثر فى الأندلس ازدهارا لا يقل عن ازدهار الشعر فيها، ويتضح ذلك فى كثرة كتاب الرسائل الديوانية على مر العصور، وفى مقدمتهم البِزِلْيانى وأبو محمد بن عبد البرّ وابن القصيرة وابن أبى الخصال وابن الخطيب، كما يتضح فى كثرة كتّاب الرسائل الشخصية وفى مقدمتهم حبيب وابن الدباغ وابن طاهر وابن الجد. ونفذ الكتاب المبدعون هناك إلى رسائل أدبية بارعة، منها رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد المستوحاة من إحدى مقامات بديع الزمان، مع بث روح وفكر جديدين فيها، ومنها رسائل ابن برد الأدبية، وإحداها وهى فى تفضيل أهب (جلود) الشياه على البُسطِ مستوحاة من رسالة سهل ابن هرون فى فاتحة كتاب البخلاء للجاحظ التى يحتج فيها للبخل ضد الكرم، ومنها الرسالة الهزلية لابن زيدون وأختها الجدية، وأولاهما مستوحاة من رسالة التربيع والتدوير للجاحظ مع اختلاف الموضوع، ومنها رسالة ابن غرسيه الذميمة فى الشعوبية والردود عليها، ومنها الرسائل النبوية البديعة على نحو ما يلقانا عند ابن الجنان، ومنها مواعظ مؤثرة مثل مواعظ منذر بن سعيد وأبى بكر الطرطوشى. ونلتقى بأعمال نثرية متنوعة وفى مقدمتها كتاب طوق الحمامة لابن حزم الفقيه المبدع، وهو يكتظ بتجاربه وتجارب معاصريه فى الحب العذرى مع الشهادة الناطقة بازدهار هذا الحب العفيف الطاهر فى الأندلس. ونلتقى بالمقتبس لابن حيان وهو طراز فى الكتابة التاريخية لا نظير له فى كتابة التاريخ عند العرب، ومثله الذخيرة لابن بسام فى كتابة التراجم الأدبية وعَرْضٍ ما لأصحابها من روائع شعرية ونثرية. وتلقانا مذكرات لأمير غرناطى هو عبد الله بن بُلُقِّين، كما تلقانا قصة حَىّ بن يقظان لابن طفيل، وهى قصة طفل ألقى به بعد مولده فى جزيرة مهجورة، فتبنته ظبية فقدت رضيعها وأرضعته، ونما وأخذ عقله ينمو معه ويرصد كل ما حوله حتى إذا بلغ الثلاثين أخذ يدرك حقائق الأشياء شأن الفلاسفة، وشعر أن للكون خالقا وأخذ يشعر برغبة شديدة للاتصال به، وبعد محاولات شتى استطاع الاتحاد بربه. وبذلك يثبت ابن طفيل أن التأمل العقلى الخالص المفضى إلى الفلسفة مثله مثل الإيمان عن طريق الأنبياء فى أن كلا منهما يؤدى إلى نفس الغاية وهى الاتحاد الصوفى بخالق الكون ومنشئه. وقد ثبت ثبوتًا بَيِّنًا أن عناصر القصة عناصر

عربية إسلامية خالصة، وقد أثرت فى الأدب الإسبانى إذ استُوحيت منها قصة موريسكية هى قصة الصنم والملك وابنته وقصة (الكريتيكون) للكاتب الإسبانى اليسوعى جراثيان المنشورة فى منتصف القرن السابع عشر، وأثرت القصة آثارا مختلفة فى الآداب العالمية على نحو ما هو معروف عن قصة روبنسن كروزو لكاتبها الإنجليزى دانييل ديفو.

ويعرض الفصل بعد ذلك فن المقامات فى الأندلس وسلوك بعض أصحابه مسلك الحريرى فى مقاماته القائمة على الكُدْية والشحاذة والتفاصح بالسجع والتعبيرات الأنيقة، مع عرض المقامات اللزومية للسرقسطى وبيان التزامه فيها ما لا يلزم من تعدد الحرف فى قوافى السجع محاكاة لأبى العلاء فى لزومياته، وتغلغله ببطل مقاماته فى أعماق المحيطات بالإضافة إلى ما تنقل بينه من البلدان العربية. وذُكر - فى إجمال - ما أثرَّ به فن المقامات فى الأدب الأندلسى إذ نشأت على غراره فى القرن السادس عشر للميلاد وخلال القرن السابع عشر قصص سميت بالقصص البيكارسية، وبطلها «البيكارو» يتجرّع - كبطل المقامات - آلام البؤس والفقر، ويعيش على التسول والشحاذة متوسلا إلى ما يكتسبه عن طريقهما بحِيل وخُدَعٍ شتى يستحوذ بها على إعجاب الناس فيوسعونه حفاوة وعطاء.

وتحدث الفصل عن رحلات الأندلسيين وبواعثها الكثيرة لأداء فريضة الحج والزيارة النبوية، وللإلمام بمراكز الثقافة فى المشرق والأخذ عن الشيوخ: أخذ المؤلفات والإجازات، وللسفارة إلى ممالك النصارى فى الشمال وأصحاب الإمارات المختلفة فى الأندلس ولمرافقه حكام غرناطة وسلاطين المغرب فى رحلاتهم، وللفرجة على ما وراء البلاد العربية فى آسيا وشرقى أوربا واكتشاف المجهول فى تلك الديار النائية من الأمم وظواهر الكون. ومن أطرف تلك الرحلات رحلة أبى حامد الغرناطى إلى بلاد البلغار والصقالبة وروسيا، ورحلة ابن جبير فى البلدان العربية، وتتميز بدقة الوصف وجمال السرد والأسلوب المرسل العذب.